المازني

قبض الريح

قبض الريح

892.74
M476qA

تأليف

ابرهيم عبد القادر المازني

(الطبعة الثانية)

١٩٤٨

﴿ حقوق الطبع محفوظة للناشر ﴾

عنيت بنشره

المطبعة العصرية

٦ ، الخليج الناصرى ، بالفجالة ، بمصر

المطبعة العصرية بمصر

Published and printed by
Elias' Modern Press,
P.O.Box, 954, CAIRO (Egypt.)

المقدمة

كتبتُ هذه الفصول وغيرها — كثيراً غيرها — فى الفترة الطويلة التى كان فيها شبح الماضى — أى نعم ، طيف الماضى — يعايشنى . وكان أقرب جيرانى الى نفسى ، السماء . وكنت يومئذ — وما زلت — فى رقعة من الأرض مدحوة للتفكير والأحلام وللموت . قد طال عهدى بها وإلفى لها حتى ليكبر فى وهمى — حين يستغرقنى روحها — أنى ههنا كنت قبل ميلادى ، وانى بعضها ، وقطعة منها ، لو علم الناس . وهى جمة الحالات ، وان كان ظاهرها لا يكاد يلحقه تغيير ، وأقوى ما يروعني من أطوارها ، فقدانُها الوعىَ ، فلو نُفخ فى الصور ما تنبهت . وقد تبدو لى كأنّ يد القدرة التى بسطتها قد مالّتها وانصرفت عنها وشُغلت بسواها فيدركنى عليها العطف ، وكثيراً ماخيل إلي كأنى ألمح فيها عروقَ العلة الاولى ، وشرايينها وأنسجتها ، وانى أحس خفقها وأسمع نبضها . وهى ، على تفكك ذراتها ، كلٌّ كامل فى رأى العين وفى إحساس القلب . وربما توهمتها مخّاً عارياً يُنشىء مالا يدرى . وقد يتمثل لى فيها رأىُ أرضنا ـ أو ما أحسبه رأيها ـ فى الحياة والمساعى حتى لأكاد أسمعها تقول باسنان هذه الصحراء للناس أو للمقادر

«ماجدوى هذه المساعي ؟ ما خير أن تزخر على ظهرى الحياة ؟ لأية غاية أو فى أى سبيل إرهاقى وكدى وإملالى على الادهار ؟ انه عبث متواصل فى الوسع رفع مؤونته بالمحو والسلب وقد تكون لهذا حكمة ، ولكنها حكمة كانت تكون عندى أعدل لو أنها شاءت ألا تكون هذه الحيوات »

وما ضربت فى هذه الصحراء ، أو صافح وجهى نسيمها ، أو سفت الرياح علىّ رمالها ، أو أدرتُ عينى فى عريها الأزلى ، إلا هتف بي من ناحيتها هاتف يقول ابن داود

« باطل الأباطيل ، الكل باطل . ما الفائدة للانسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس ؟ دور يمضى ودور يجىء ، والارض قائمة الى الأبد . . . كل الأنهار تجرى الى البحر ، والبحر ليس بملآن . . . كل الكلام يقصر . لا يستطيع الانسان أن يخبر بالكل . العين لا تشبع من النظر ، والأذن لا تمتلىء من السمع . ما كان فهو ما يكون ، والذى صُنع فهو الذى يُصنع ، فليس تحت الشمس جديد . . . .

« أنا الجامعة ، كنت ملكا على اسرائيل فى اورشليم ، ووجهت قلبى للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ماعمل تحت السموات . . . فاذا الكل باطل وقبض الريح ! »

« وأنا أيضاً كالجامعة ، وجهت قلبى الى المعرفة ، وامتحنتُ نفسى بالسؤال ، وعللت روحى بالتفتيش ، بنيت لنفسى « آمالا » غرست لنفسى « أوهاماً » عملت لنفسى جنات وفراديس غرست فيها « أحلاماً » من كل نوع ثمر . . . وهذا كان نصيبى من كل تعبى . . . قبض الريح ! »

واستنفد العناء مجهودى كما تنفد السحابة أراقت ماءها على الأرض .

وكل بما عنده يجود ! زرعت حصى فى أرض صفوان وهذا حصادى ، وقبضت الريح من كل تعبى تحت الشمس وهأنذا أؤديها الى القارىء وأطلقها عليه كما تلقيتها لو يقنع الطالب المدل ! وقد خرجت ، كما سيخرج القارىء ، وكما سنخرج جميعاً من هذه الدنيا ، وليس فى يدى شىء . ؟

ابرهيم عبد القادر المازنى

سبتمبر سنة ١٩٢٧

بين القراءة والكتابة

مضت شهور لم أكتب فيها كلمة فى الأدب ، لأنى كنت أقرأ ! والقراءة والكتابة عندى نقيضان ، وقد كنت — وما زلت — أمرءاً يتعذر عليه ، ولا يتأتى له ، أن يجمع بينهما فى فترة واحدة . ولكم أطلت الفكرة فى ذلك فلم يفتح الله على بتعليل يستريح إليه العقل ويأنس له القلب . وما أظن بى إلا أن الله ، جلت قدرته ، قد خلقنى على طراز « عربات الرش » ! التى تتخذها مصلحة التنظيم — خزان ضخم يمتلىء ليفرغ ، ويفرغ ليمتلىء ! وكذلك أنا فيما أرى : أحس الفراغ فى رأسى ، وما أكثر ما أحس ذلك ! فأسرع إلى الكتب ألتهم ما فيها وأحشو بها دماغى هذا الذى خلقه الله لى خلقة عربات الرش كما قلت ! حتى إذا شعرت بالكظة ، وضايقنى الامتلاء ، رفعت يدى عن ألوان هذا الغذاء وقمت عنه متثاقلا متثائباً مشفقاً من التخمة ، فلا ينجينى إلا أن أفتح الثقوب وأسح ! ؟ وهكذا دواليك !

ولكم قلت لنفسى : أهذا الذى ركبه الله لك يامازنى بين كتفيك رأس كرؤوس الناس أم معدة أخرى ؟ ؟ وأداة نظر وإدراك وتفكير هو أم مخزن يكتظ حيناً ويخلو أحياناً تبعاً لانتقال الأحوال بك ؟ والحق أقول أن الجواب يعييني ! وإذا لم اكن قد ركبتُ من الوهم شر الحمير ! فان الناس فى الأكثر والأعم إنما يعالجون الكتابة لأن فى رؤوسهم فكرة أو خالجةً ، كائنة ما كانت ، يبغون العبارة عنها والافضاء بها ، ولست أرانى كذلك ، ولقد يخيل إلىّ فى بعض

الأحايين أن فى نفسى معنى معيناً ، ويؤكد ذلك عندى ويقرر اعتقاديه ، ما أحسه من جيشان الصدر واضطرابه ، فأذهب ألتمس هذا المعنى أو الخاطر فاذا به قد تبخر ! وإذا بى كابنى حين يجلس إلى جانبى ويحاول أن يقبض على الدخان الذى يتصاعد من سيجارتى ، وأنا أضحك من هذا الذى يحاوله ، وألهو به وأقول انه يجرب فى عالم المحسوسات بعض ما أعانيه فى عالم المعنويات ! وكثيراً ما يدفعنى الى الكتابة احساس غامض إلا أنه من القوة بحيث لا يسعنى مغالبته فأتناول القلم ، وأنا كالمسحور ، وكأن القلم هو الذى يثب الى يدى ، كما ينجذب الحديد إلى المغناطيس ، وأسرع فى الكتابة وأمضى فيها إلى غايتها المقدورة ، شأنى فى ذلك شأن الذى يسير وهو نائم ! ينهض من فراشه ويخطو ، ويذهب هنا وهنا ، ويتكلم أو يباشر بعض الأعمال ، ولكن وعيه ليس تاماً ، وإرادته لا دخل لها فى شىء مما يصدر عنه .

وأحياناً أفعل هذا : أسأل نفسى « أفى رأسك شىء ؟ » وأعنى بالشىء ماله قيمة ، لا أى شىء على الاطلاق ، فتساورنى الشكوك فأنقر بأصبعى على جوانب رأسى كمن يريد أن يتبين من الرنين مبلغ الخلو ! وربما أسفت لأنى لا أستطيع أن أتناول رأسى هذا وأن أقلبه بين كفىّ وأن أفعل به مايفعل المرء حين يختبر البطيخ ! ثم أقول لا بأس ! القلم حاضر والورق تحت عينى فلأقم حد هذا على صفحة ذاك ، ولأفتح ثقب هذه « الحنفية » ثم فلأنظر ماذا يقطر منها أو يسيل . أو لا يدير أحدنا صمام « الحنفية » أحياناً ليرى أفيها أم ليس فيها ماء ؟ ؟ نعم ! وكذلك أمتحن نفسى من حين إلى حين كلما شككت وكبر فى ظنى أن رأسي قد أصبح فارغاً ! ولا أفعل هذا ، حين أفعله ، إلا على سبيل الاختبار وطلباً للاطمئنان لا رغبة فى الكتابة ولا عن قصد إليها . حتى إذا وجدت القلم يجرى وألفيت مراعفه تقطر ، قلت الحمد لله ! وأقصرت !

وقد أبدأ المقال معتمداً شيئاً بعينه فيجرى القلم بخلافه ! وشبيه بهذا أن تريد السفر الى الاسكندرية فتحملك رجلاك إلى قطار يذهب بك السويس ، وأحسب ذلك إنما يكون كذلك لأن الكلام يفتح بعضه بعضاً وقد يفتنك وأنت تكتب ، معنى يعنّ لك فيلهيك عما كنت فيه ويدفعك من طريقه الى غير ما قصدت إليه . وقد تأخذ فى كلام تحسبه هيناً فتتكاءدك الوعور وتتعاظمك العقبات فتميل عنه الى ما هو ألين . ومن هنا كان آخر ما أكتبه هو العنوان ! وكثيراً ما استخير الله فى الكتابة على نية معقودة ثم أعدل فى بعض الطريق عنها وأتحول الى سواها ويجىء الكلام متناولاً طرفاً من هـــذا وأطرافاً من ذاك ويعجزنى أن أختزل مضمونه فى عنوان فأدع المقال بلا رأس وأقدمه هكذا الى الأستاذ أمين بك الرافعى فيضع هو — جزاه الله عنى خيراً — مايوافقه من العناوين !

وأمرى مع الكتب أغرب . كنت فى أول عهدى بها — أى منذ عشرين سنة أو نحو ذلك — أذهب فى أول كل شهر الى واحد من باعتها فيتقدم الىّ العامل سائلاً عن حاجتى فأبينها له فيرفع رأسه الى الرفوف ويدور حول نفسه وهو فى مكانه ثم يلتفت الىّ وعلى شفتيه — دون عينيه — ابتسامة جهل وغباء ، ويهزلى رأسه آسفاً . فأنحيّه عن الطريق وأمضى الى الرفوف وأجيل عينى فيها وآخذ منها ما يروقنى وأنصرف عن الحانوت بأثقل من حمل حمار ! وأغرق فيها بقية الشهر الى ما فوق الأذنين ان كان فوقهما شىء يستحق الذكر ! وكنت لا أتخطى عتبة البيت إلا متأبطاً كتاباً ، ولا تمضى على ليلة إلا طالعت فى بعضها قليلا أو كثيراً ، وكانت الكتب أنيسى فى وحدتى وسميرى فى خلوتى ، وكنت أستغنى بها عن متع الحياة ولذات العيش وأقول انها تدخل فى متناول الحس . العواطف والمدركات وكلّ ماله وجود فى العقل ، وانها توقظ الحواس الخامدة والمشاعر الراكدة وتملأ القلب وتشعر النفس كل ما تستطيع الطبيعة البشرية احتماله وكلّ ماله

قدرة على تحريكها وابتعاثها ، وتدرب المرء على الاستمتاع بتدبر عظمة الجلال والابد والحق ، وانها تمثل ذلك للاحساس وتحضره للذهن وتكشف لنا عن وجوه الألم والحزن والخطأ والاثم ، وانها تعين القلب على تعرف الهول والفزع والسرور واللذة وتخفق بالوهم على جناح الخيال وتفتنه بسحر عواطفه وخواطره ، وانها تسد النقص فى تجاريب المرء وتثير فيه تلك العواطف التى تجعل حوادث الحياة أشد تحريكاً لها وتجعله أشد استعداداً لقبول المؤثرات على اختلاف أنواعها ودرجاتها ، لأنه ليس بالانسان حاجة الى التجريب الشخصى لتتحرك فيه هذه العواطف بل حسبه « ظاهرُ » التجريب الذى تهيؤه له الكتب وانما تستطيع الكتب أن تقوم مقام التجربة الشخصية الواقعة بما تمثل للمرء لأن كل حقيقة واقعة يجب أن تمثل فى الرأى قبل أن يتعرفها الذهن أو تؤثر فيها الارادة ، ومن أجل ذلك كان سواءاً على المرء أن تؤثر فيه الحقيقة الواقعة بالذات أو يأتي التأثير من طريق آخر كالصور والرموز التى تمثل هذه الحقيقة ، فان فى طاقة الانسان أن يصور لنفسه ماليس له وجود حتى يعود وكأن له جسماً يحس ويلمس ، فسيان عند الانسان أن يؤثر فيه الشيء أو مثاله ، لأنه يحرك فيه عوامل الفرح والحزن مثلا على كل حال ، وسواء أكان الشيء حاضراً أم ماثلاً فى الخيال بصورته ، فان الانسان لايسعه إلا أن يحس حركات الغضب والبغض والرحمة والقلق والفزع والحب والاجلال والعجب والشهرة . فكأن هذه الرموز هى اللسان المترجم — كما يقول هوريس — عن الحقائق

كنت أقول مثل ذلك وأصدقه ، وكان مثلى كمثل أشعب الذى حكوا ان صبية التفوا به وأثقلوا عليه فأراد أن يصرفهم عنه فقال لهم ان فى مكان كذا وليمة فاذهبوا اليها وأصيبوا منها ، فلما مضوا عنه بدا له الأمر كأنه صحيح فذهب يعدو فى أثرهم . وكما أن أشعب عاد بالخيبة والحسرة والسخر من نفسه كذلك

انقلبت عن الكتب ، فلا أنا أفدت شيئاً سوى قمع الشباب واضاعة فرصته واراقة مائه فى تلك الصحراء العارية ، ولا أنا فهمت الحياة كما ينبغى أن تُفهم أو سددت نقصاً فى تجاربى أو استطعت أن استغنى « بظاهر » هذا التجريب عن التجريب الشخصي ، وشر من ذلك أنى اطلعت من هذه الكتب على صورة أو صور للحياة ، ليس اكذب منها ولا أبعد ! ولا نكران انها أيقظت نفسى وفتحت عينى ونبهت حواسى وابتعثت مشاعرى وجعلتنى أشد تأثراً بالحياة وتحركاً لها واستعداداً لتلقى مؤثراتها ولكن أليس معنى ذلك انها جعلتنى أتعس وأشقى مما كنت اكون لو ظللت أرتع فى بحبوبة الجهل والغفلة والبلادة ولم أفز بهذه النعمة التى لم أعد بها غنياً ؟ ماذا يكون لو أخذنا كنوز هذه العقول ورمينا بها من حالق للرياح والمدر، كما أقول من قصيدة صنعتها بعد ان فطنت الى ما أضعت من عمرى ؟

كم غصت فى لجة الحياة فما ... فزت بغير الصخور والحجر !
وكم نفضت اليدين من حجر ... حسبته درة من الدرر !
نخل كأس العفاء تسلبني ... كنزى وتسحو سلاسل الخبر
ما ضرنى لو جهلت ما علمت ... نفسي وما قد أفادنى نظرى ؟
أو لو نسيت الذى شعرت به ... فى كبرى الآن أو لدن صغرى ؟
أو لو سلوت الذى كلفت به ... على الذى كان فيه من سُكُر ؟
أو لو فقدت الذى فرحت به ... وما وجدنا فى حدة الظفر ؟
أثمّ صوتٌ تعيد نبرتهُ ... إلىّ ذكرَ الربيع والزهر ؟
أثم عينٌ تثير نظرتُها ... أحلامَ نفسى فى ريّق البكر
وتنشر اللذةَ المضيئةَ لى ... حلماً من العيش جد مبتكر ؟
نعم لعمرى فى الارض زينتها ... من مسمع فاتن ومن نظر
وروضة العيش جد حالية ... من زهر مونق ومن ثمر

كأنها لافترار بهجتها تُحير نطقاً لمدمن البصر
واهاً لقمريّها اذا اتسقت أسجاعُه واستراح للسَّحر !
واهاً لسحر فى لحظ نرجسها يسطو بوقع السجوّ والفتر !
واهاً لأيكاتها إذا همس الـ سيم فى أغصانهن يا أسفا
لكن أغصانهن بعيدة من منال مهتصر
أصبت فى العزم ، لا الشعور ، فان أدرتُ لحظى فى الشىء ، لم يدر
وان مددتُ اليدين خانهما عزمُ الشباب الجرىء ذى الاشر
يذعرنى الشىء كان يجذبنى لشد ما أستجير بالحذر !
أحمل عبئاً من السنين فما عسى وراء الغايات منكدرى ؟
ولى من الذكريات حاشيةٌ فى حيث أمضى ، محشودة الزُّمر
فهاتها أذعر الشجون بها حتى أراها تطير كالشرر
لمْ لا أبتُّ الذى يقيدنى بما مضى وانقضى من العصر ؟
انى أرانى قد حلت وانتسخت مع الصبى سورةٌ من السور
وصرت غيرى فليس يعرفنى — اذا رآنى — صباى ذو الطرر
ولو بدا لى لبت أنكره كأنّنى لم أكنه فى عمرى
كأننا اثنان ليس يجمعنا فى العيش إلا تشبثُ الذكر
مات الفتى المازنىُّ ثم أتى من مازن غيرُه على الأثر

وما أحسبنى بالغت ، فقد مات « الفتى » المازنى حقاً ولم يبق منه شىء !.
وانى لأمر الآن بالمكاتب فأشيح بوجهى عنها وأغمض عينى دونها ، ويردنى الكتاب بكرهى فأتركه حيث يقع وأهمله الاسابيع والشهور، واذا فتحته اكتفيت بأن أعبره تزجية للوقت ، ولم أبال من أى موضع بدأت ، وسيان عندى أن أقرأه من أوله الى آخره ، أو من آخره الى أوله أو أن لا أقراه ، وقد تعاودنى

الحمى القديمة ، ويتأوبنى الحنين الماضى الى الكتب فأدافع نفسى عنها ما استطعت ، فان عجزت وغلبت على أمرى طاوعتها على حذر وسايرتها متحفزاً وذهبت أتخير لها الكتب وأنتقيها ، ومهما يكن من الأمر فلست الآن ذلك الذى كان كأنما يعبد منها دُمى وأصناماً ، ولقد اغتنمت أول فرصة سنحت فبعتها جملة وتحريت بعد ذلك أن أزداد جهلاً !

ولكن الزامريموت وأصابعه تلعب ! كما يقول المثل العامى ، وللعادة حكم لا يقوى المرء فى كل حين على مغالبته ، والنفس لا تطاوع المرء دائما على ما يريدها عليه من الخمود والتبلد ، وقد يزعج المرء أن يرى نفسه يقضى أيامه بطين الجسد وحده ، أو يموتها على الأصح ، فان من الموت أن يستحيل الانسان جثة خامدة المتقد لا ينقصها إلا الرمس ، وما لا يصلح سلوى ومتعة قد يصلح دواءاً ، وعسير على من تعود أن يحس الحياة بأعصابه العارية أن يروض نفسه على التبلد ويخلد الى الركود ، فلا عجب اذا كنت أقبل على المطالعة حيناً بعد حين

***

ولقد قرأت فى هذه الفترة الطويلة طائفة صالحة وأخرى غير صالحة من الكتب بعضها فى الأدب والفلسفة ، على بغضى لها واستثقالى ظلها وعجزى عن فهمها ، وبعضها يزعمه واضعوه أدباً وفلسفة وهو ليس من ذلك لا فى كثير ولا فى قليل . واحسب القراء لا يعنيهم إلا ما أخرجته لهم المطابع المصرية . وهذا هو الذى سنقصر مقالاتنا عليه ونحاول أن نعقد له فصولاً نستطرد فيها ومنها إلى ابواب من البحث متصلة بموضوعاته وسنبدأ ، بحديث الاربعاء ، الذى وضعه صديقنا الدكتور طه حسين ولسنا ندرى بأى كتاب آخر يمكن أن نثنى فان كتاب الدكتور يضطرنا الى النظر فى امور عديدة ، والخلاف بيننا وبينه طويل يتناول أصول المسائل ، ولنا فيمن كسر كتابه عليهم من مثل ابى نواس وبشار

وغيرهما ، وفى العصر العباسى كله ، رأى يناقض رأيه ونظرة تختلف عن نظرته ، وحسبك دليلاً على بعد ما بين الرأيين واتساع الهوة بينهما قوله عن أبى نواس « أما ابو نواس فأمره غير هذا كله ، لم يكن عذرياً وما كان يستطيع ان يكون عذرياً ، وهو الرجل الذى شك فى كل شىء ولم يؤمن إلا بالمجون واللذة يلتمسهما حيث يجدهما لا يتقيد فى ذلك بحرج أو جناح ، ولم يكن عذرياً ولم يكن يتكلف أن يكون عذريا وانما كان يسخر من العرب ومما كان العرب يتكلفون . لم يكن يتكلف العذرية وانما كان يهتم باللذة وبلذة غير التى كان يهيم بها عمر ابن ابى ربيعة . . الى ان يقول « . . ان ابا نواس يكرهك حين تقرأ غزله بالغلمان على ان تعجب بهذا الغزل رغم ما فيه من منافرة للطبع والخلق والدين الخ »

أما نحن فقد قلنا فى المقدمة التى وضعناها للجزء الثانى من ديواننا « فلا جرم كان الشاعر أحسّ الناس وأعمقهم حكمة وأصحهم ادراكاً لخلال الخير وخصال الفضل — نقول الفضيلة والخير ولا نخشى أن يهز الفراء رؤوسهم انكاراً فان الشعر أساسه صحة الادراك الاخلاقى والادبى ، ولست بواجد شعراً الا وفى مطاويه ادراك اخلاقى ادبى صحيح ، وعلى قدر نصيب الشاعر من صحة هذا الادراك الادبى تكون قيمة شعره . ولا يتعجل القارىء فيحسب انا نقصد الى اظهار الاحساس الدينى فى الشعر فليس كلامنا على مادة الشعر بل على مصادره وينابيعه ، ولا ينبغى كذلك ان يستخلص أن الشاعر يجب أن يكون صاحب مبدأ عملى لا يتحول عنه ، فقد كان بيرنز الشاعر الانجليزى وأبو نواس وامرؤ القيس متقلبى وجوه الحياة ومظاهرها ولكن نصيبهم مع ذلك من صحة الادراك الاخلاقى والأدبى عظيم ، ولئن كان لهم معايب تؤاخذهم بها فقد أحالها الزمن هباء لا قيمة له ولا وزن ، وأنت خليق ان تنظر الى ما وراء ذلك . فان ابا نواس اصح مبادىء وانقى ضميراً من البحترى على كثرة ما تقرؤه للأول مما يروع ويخجل ،

وكذلك امرؤ القيس افطن معانى الفضيلة واعظم رجولة من ابى تمام وابن المعتز ، ولم يكن الأعشى على حبه الخمر واستهتاره بها وتخلعه فيها بالرجل الناضب الفضيلة الخ ، الى آخر ما قلنا يومئذ وكان ذلك فى يناير سنة ١٩١٧ ولقد غبرت أعوام ثمانية فلم تزدنا الا اقتناعاً بهذا الرأى الذى اشرنا اليه فى ذلك الوقت اشارة من لا يحس ان المسألة تحتاج الى افاضة

ولقد سقنا لك هاتين العبارتين من كلام الدكتور وكلامنا لتعرف مدى الخلاف بين الرأيين ولتدرك ما فى المسألة من دقة وتعويص ، لا يسع المرء حيالهما إلا ان يسأل الله السلامة

بين البحر والصحراء ! !

أكتب هذا الفصل على شاطىء البحر الأبيض أو بحر الروم ، وقد كتبت الذى قبله على حدود الصحراء ، وللكلام ، كما للناس ، حظوظ ، والمعانى والخواطر أرزاق ، ولقد أذكر أنى كنت ذاهباً الى مصر الجديدة مع طائفة من الاصدقاء فى واحد منهم شذوذٌ وكان يكتب فى الترام ! وانه ليكتب كلمة « السؤدد » إذ انطفأ النور فخط « دالاً » فى النور و « دالاً » فى الظلام ! ولو انى كنت اليوم فى القاهرة وفى بيتى الذى اتخذته على « تخوم العالمين » لكان الارجح فى الرأى والاقرب الى الاحتمال أن يجرى القلم بغير ما يسطره الآن ، فأن النفس كالزجاج الحساس تنطبع عليها وترتسم فيها صورُ ما يحيط بها ، ولقد كان العزم أن أقول غير ما أنا قائله ، ولكن المقادير قذفت بى الى البحر ، لا فيه والحمد لله ، فتحلل العزم ، ومُسح من اللوح ما كانت الصحراء قد نقشت عليه ، ولو خُيرت لاخترت مقامى القديم ، ولآثرت أن اكون فى هذه الساعة التى أكتب فيها حيث كنت فى الاسبوع المنصرم : الى يمينى الصحراء ، والى يسارى المقابر ؟ واحدة تعلو بى ، وأخرى تهبط ، واذا استأثرت معانى الأبد والجلال بالقلب ردّته الى الدنيا ومصائر الخلق فيها هذه الأجداثُ المتلاصقة والعوالم الانسانية التى خرجت من التراب وعادت اليه وتحللت واستسرت فيه .

غير أنى ألفيت نفسى جالساً على شاطىء بحر الروم أنظر اليه وأتأمل عبابه المزبد وموجه المتجدد ، والشمس تنحدر عنه وتبسط عليه أشعتها المتوهجة ، وأواذيه كقطع الجبال المتقلعة تتدفع الى الشاطىء وتستبق سيفه فيغيب بعضها فى بعض وترغى وترعد وتصفر وتهمس وترقص وتضحك وتمحو ما أخطه على الرمل ! ولا أدرى لماذا أذكرنى هذا المنظر ما أنستنيه الأيام من الأقاصيص التى كانت تسلينا وتروعنا وتعمر بها فضاء حيواتنا الصغيرة ، العجائزُ من ذوات قرابتنا أو جيراننا ، إذ يجلس الطفل منا الى إحداهن ويرهف أذنيه ويود لو صارت كل جارحة فيه مسمعاً ، وقلبه الصغير يخفق وكلما أغربت العجوز فى القصة وتبسطت فى وصف الجان والمردة أو السحرة وأسهبت فى سرد أعمالهم ، أدار هو لحظه خلسة فى المكان كالذى ينفضه بعينه أو يخشي أن يظهر له عفريت من أحد أركانه ، وراح يدنو منها ويزحف اليها حتى يلصق بها ، على حين كانت الفتياتُ الناهدات متكئات فى سكون على حوافى النوافذ أو الشرفات ، ووجوههن الصبيحة ، التى كأنما غذتها الوردُ ، يضيئها القمرُ الواجم السارى فى حاشية من النجوم اليتيمة العذراء التى ينقصها ، مثلهن ، الحبُّ !

ولم يتغير البحر عما عهدته ! كل شىء فيه كما كان فى العصر الخالى الا المدينة القائمة على ساحله فقد كانت فى بعض أيامها الخوالى تشغل مكان أثينا فلم يبق لها من سالف عزها الا البوم والسفسطائيون ! حتى آلهة الاغريق استنكفوا على ما يظهر أن يتراجعوا الى الاسكندرية بعد أن ثل الزمنُ عروشهم ونفاهم وشردهم عن ملك السماء ، ولم يرض ملك السماء ذو الخصل البيضاء أن يأوى اليها ويعوذ بها بعد أوليمبيا ، وآثر عليها التشرد بصاعقته الخامدة ، وضن بنفسه عليها زيوس وتجافى عنها وان كان لم يربأ بنفسه عن عزل أبيه وطرد أعمامه وعن الاستهتاك بين الغلمان الذين كان يهبط الى الارض على خلقة النسر ليخطفهم ويصعد بهم إلى

ملكوته ويكايد بقبلاتهم زوجه ! وكم عذلته فى جنميد وأنبته على مشاربته فى كأس واحدة فكان يقول لها مستهتراً لو شربت بعده من هذه الكاس لأقصرت ولم تلومى ! وشاهدى على صحة الرواية « لوسيان ! »

وما وقفت قط على هذا البحر الا أحسست انى مثله ، وإلا هممت أن أنظم هذه الأبيات مرة أخرى :

أنا البحر — لا كرماً ! — إننى ... تكفل بالفقر لى المفضل ؟ !
ولكننى البحر ما إن له ... قرار وما أن له مونلُ
وتجلده الريح إن زمزمت ... جنوبٌ لها أو زفت شمأل
ويجذب أمواهه كوكبٌ ... ويدفعها وهو لا يحفل
وفى قاعه دره راسب ... ومن دونه الخطر الأهول
وتعتام صفحته ركدةٌ ... وفى سره ثورة تشعل
ويلتمس الشطَّ مستروحاً ... فيهزمه الرمل والجندل
أنا البحر ، لكننى غارق ... بنفسى فمن ذا عسى ينشل ؟
أصارع تياره جاهداً ... وفى أذنى رعده المرسل
وأومى الى الناس لو أبصروا ... وقد يخطىء العونَ من يسأل
فهل عاذر إن ونت همة ... وناء بما يحمل المثقل ؟
وهل شاهد ؟ أن بى حاجة ... الى شاهد صادق يعدل الخ

وكأنما ضاق صدرى بما أجن وقلبى بما أثار البحر من خليط الذكريات وحرك من الآمال ، فنهضت عن الصخرة التى كنت قاعداً عليها ودهورت هذه الأبيات فى أشداقى وانطلقت أنشد الريح إياها ! ! ومن عسانى أنشد سواها ؟ فى أى اذن غير اذنها أفرغها او أهمس بها ؟ فى أية نفس انسانية أجد لنفسى كهفاً يتجاوب بأصداء عواطفى وخوالجى ؟ عند من من الخلق أفوز بالتجاوب الذى تمنحنيه الرياح ؟

أين فى النـاس وردتان تميلا ن معاً للنسيم من حيث جاء ؟

كما تساءلت قديماً ؟ ثم أهبت بقصائدى التى لم أنظمها — قصائدى الجياد التى لم تندّ قط عن صدرى وان كانت تعمره ، ولم ينطلق بها لسانى وان تكن على طرفه ، والتى لولا مشيئة الأقدار لذهّبتها بأصيل هذه الشمس الغـاربة ونسجت منها تاجاً لرأسكِ الذى يتوسد التراب ، ولفصلت من زرقة السماء الحالية بنجوم الليل المتوامضة ، ثوباً متألقاً ينسجم على كتفيكِ وينسدل الى قدميك !

* * *

وغابت الشمس وانتشرت على الأرض غيابات الطفل ، فعدت الى مقعدى أنظر الى الموج المشرئب ، وجاش صدرى مثله وجعلت طيوفُ الماضى تبرز من ظلامه وتخطر أمامى ثم تغيب ويلفها ما هو أظلم ، ولـكن طيفاً واحداً ظل ماثلاً لعينى فى حيثما أدرتها ، ومالئاً شعابَ نفسى بالاحساس به ، ومناجياً لى من زفيف الرياح وتهزم الأمواج ، وفيه وفىّ تمثل الحب المفقود والأمل الضائع ! وخامرنى هذا الخاطر وألح علىّ حتى خلتنى جثةَ غريق ردها الموج الطاغى الى رمال الشاطى ! ولج بى هذا الوهمُ حتى ملت عن الصخرة الى الرمال ورقدت عليها وأومأت الى الأمواج أن اركدى فقد ذهب كل شىء : انتسخ الأمل وغاض معـين الحب وجفت الحياة !

ثم تناولت عوداً كان ملقى الى جانبى ، وخططت به كلمات على الرمال البليلة ، غير أن الأمواج طغت عليهـا وغسلتها وعادت بها ولم تترك لى حتى اسمى الذى رسمته فى آخرها ! فياما أوهى العود وأخون الرمال وأطغى هذه المياه المتحدرة !

بأى شىء إذن أكتب ؟ ؟ أأقتطع جذع شجرة بلوط وأغمسه فى بركان وأسطر به ما اريد على صفحة السماء ليبقى ! ؟ !

* * *

ولكم وقفت من قبل على شاطىء هذا البحر بعينه ، وفى مثل هذا الأوان ، مجيلا عينى فى قبة السماء اللازوردية ، ومرسلاً لحاظى فى البحر والرمال والصخور ، وقائلاً لذوات المناقير السوداء إذ تعب بها من الماء وتلقط ما يتقاذف منه : « أيتها الأطيار ! أن حياتك مرة مشنوءة كطعامك وشرابك ! ولشد ما أتمنى أن أعطيك مما أعطانيه الله ، وأن أُنشقك ما أشمه من الأزاهير والرياحين ، وأطعمك مما آكل من لحم غريض وخضر مستطابة وفاكهة شتى ، وأن أشعرك ما أشعر وأتمتع به من لذاذات الحب المتبادل ! فأن لى لشريكة تحبنى ، وانى لأراها الآن بعين الخيال مطلة من النافذة منتظرة أوبتى الى وكرها ومشتاقة رجعتى الى عشها »

وكانت الأطيار تقضى وطرها وتذهب عنى ولا تحفل غبطتى ولا تبالي طعامى ورياحينَ أنفى وعينى ونفسى ، وما أظنها الآن الا قائلة لى « يامن كان يفاخر بغبطته ماذا أنت اليوم؟ ماذا صنع الله بآمالك التى أنشأتها وربيتها واعتززت بها ، وأحلامك التى نسجها قلبك حول حياتك ؟ انظر الظلمة التى تغشى ذهنك ! وتأمل الخفافيش التى تمرح فيه ! اليس الماء الملح الذى نكرع منه وقذائف البحر التى نلتقطها أهنأ وأرغد ! »

فأطرق وأقول : أى والله صدقتِ ! ولشد ما أتمنى أن يكون لى منقارك الاسود !

* * *

كلا ! صحرائى أرفق بى من هذا البحر العاتى الذى لم يتغير منه شىء ! والذى يهيج النفسَ الى مابها ، ويُسعديها ، فتجيش مثله وتتدفع فيها العواطف وتتلاطم وتتزاخر ، ومن لي بالقدرة على نقل هذه الصحراء التى ألفتها وأحببتها ، معى فى حلى وترحالي ، وفرشها وبسطها حولى فى حيثما أكون من الأرض ؟؟ نعم ليت هذا فى وسع انسان ! ! اذن لاستطعت أن أطويها كلما غادرت بقعتها ، وان الفها

مع ثيابى وأشيائى فى حقيبتى ، حتى اذا نزلت مكاناً واستوحشتْ نفسى أنست بأن أخرجها وأنشرها امامى وأتأملها وأذكر بها ليالى فيها بما اشتملت عليه من خير وشر ، وسرور، وحزن ، وغبطة واكتئاب ، ورضى وألم ، ومن أحق بها منى أو بى منها ؟ مالى وللماء الذى لاتطمئن اليه قدم ولا يثبت على حال ولا ينفك ينقلب فيه القديم جديداً ، والماضى مقبلاً ، والمقبل مدبراً ، ولا يفتأ بعضه يفنى فى بعض؟؟ ولعل السبب فى حبيها وايثارها ان بى مشابه منها ! وأني أجتلى فى انبساط رقعتها وترامى اطرافها وتقاذف أرجائها وجدبها وعريها وتجردها من كل زينة تحفل بها رقع الأرض الأخرى ، صورة من نفسى التى تنبسط للحياة ولا تزيد الحياة بها ، وللدنيا لتُحسب عليها ومنها ، ولا تزيد الدنيا بها عماراً ، وعسى أن يكون كلفى بها لذكرياتى ومعاهدى فيها ، وعلى انه أى داع يستوجب ان اعلل هذه « العاطفة » التى انطوى عليها للصحراء ؟ ؟

ولما كنت مع الأسف لا أستطيع أن أنقلها معى الى حيث أذهب فانى اكر اليها راجعاً على جناح الخيال ، وأراها بضمير الفؤاد كلما خفيت عن عينى . وانى الآن لأتلفت من البحر اليها ، وأنقل عينى فى جنباتها وأسرح طرفى فى أرجائها ، وحسبك من قوة شعورى بها ، ومن فرط استيلائها على خاطرى واستبدادها بنفسى ، انى نظمت هذه الأبيات فى بقعة منها فيها آثار بلدة الفسطاط ، أناجى بها ليلة سهرتها بها وعهداً كان لى فيها :

أيا بلدة الفسطاط ما انت بلدة ... ولكنما طيفٌ لمؤتنف الخفض
طواك قضاء الله فى الأرض حقبة ... وانشرك الانسان نقضاً الى نقض
خطوط وانقاض كما جاهد الفتى ... ليحيي ذكرى وهى تمعن فى الغمض
خرائب من حولى وفى النفس مثلها ... وأهول منها ويل بعضى مَن بعض !
وكم خلت نفسى بعضَ ادراس نؤيها ... فأقررت حتى كان يفزعنى نبضى !

قضيت بها ليلاً طويلاً قصيرُه ... وهل تقصر الليلات من شدة المخض ؟؟
فوا أسفا ! لو ههنا كنتِ لانثنى ... قصيراً علىّ الليل ذو الطول والعرض !
لأوحشتنى لما خلت منكِ رقعتى ... ولم تؤنسى ذا وحشة فى حشى الأرض
أ آسفة للموت أم أنت يا ترى ... اراحك منى الله ذو البسط والقبض ؟

فأنت ترى كيف تغلب طيف الصحراء على البحر المائج ، ولا عجب ! فان نفسى ، كما قلت ، بالصحراء أشبه وإليها أقرب !

نظرة أولى

فى

كتاب حديث الأربعاء

كلمة فى الأسلوب أولاً ...

لنا فى الأسلوب رأى قديم يعرفه من يعرفنا ، ذهبنا إليه فى صدر حياتنا ، وثبتنا عليه الى يومنا هذا ، ولسنا نتخذ من الثبات على رأى مفخرة ، فانه لايخفى علينا ان هذا «قد» يكون مرده فى بعض الأحيان الى الافلاس العقلى — ان صح هذا التعبير — أو إلى ضعف الخيال ، أو غير ذلك مما أترك للقارىء استقصاءه إذا شاء ، فقد علمتنى الأيام أن أكون أرفق بنفسى من أن أرهقها أو أحمل عليها اكراماً لسواد عيون القراء !! ولماذا لايتكلف القارىء شيئاً من النصب ؟؟ ولله ، فاعلم ، معشرٌ فقراء العقول ، يُفرح أحدَهم ان يكون له رأى ما ، فيضن به ويحرص عليه ، ولسنا من هؤلاء فيما نرجو !

وسنبسط رأينا ونعيده بأوضح مما فعلناه قديماً حين كنا نعتقد ان المسألة أدخل فى باب البديهيات من أن تحتاج إلى افاضة أو تحتمل اسهاباً ، فنقول ان الغرض الأول من الكتابة على العموم هو الإفهام أو نقل الخاطر من رأس إلى رأس ، والخالجة ، كائنة ما كانت ، من نفس الى نفس ، ومعلوم ان الألفاظ ليست هى المعانى وإنما هى رموز لها ، تدل عليها وتشير إليها ، كما تفعل ايماءات الخرس التى يتفاهمون بها ونظراتهم وحركات وجوههم وأصواتهم القليلة التى يستطيعون اخراجها ، ولو ان إشارات الخرس كثيرة كالألفاظ فى اللغة ، لوفت

بكل غرض تعين عليه الألفاظ ولأغنت غناءها ، وغير منكور ان الألفاظ مهما بلغت كثرتها ، محصورة ، وان المعانى على خلاف ذلك لا آخر لها ولا نهاية ، ومن هنا كان لا معدى عن العناية بانتقاء اشف الألفاظ عن المراد وأحكمها أداء للمقصود ، وإلا كان الكلام لا خير فيه ولا طائل تحته ، وماذا عسى أن تكون قيمة كلام لايؤدى الغرض منه ولا يفهم منه قارؤه أو سامعه إلا كما يرى المرء فى الضباب الكثيف ؟ ؟

فالإفهام أو نقل الخالجة على العموم إلى نفس أخرى هو الغرض الأول من الكتابة على وجه الاجمال ولكن هذه ليست إلا درجة أولى فوقها أخرى يحاول من يسميهم الناس أدباء وشعراء أن يرقوا إليها ، وهى طبقة الكتابة الفنية التى لا يكون المطلوب فيها مجردَ الافهام وايلاج المعنى أو الخاطر ذهنَ القارىء بل التأثير ، وكما ان الانسان لم يكتف بالأصوات الكلامية وأبى إلا أن يغنى وأن يرفع عقيرته ، حين يحس الحاجة إلى ذلك أو الرغبة فيه ، بتواليف صوتية تطربه وتشجيه ، وكما أنه لم يسعه أن يقنع من المساكن بما يقيه الشمس والرياح والأمطار والضوارى ، ومن الثياب بما يعينه على احتمال الأجواء المختلفة ويستره ، بعد أن أرهفت الحياةُ إحساسه ورقته ، ومن الطعام بما يسد الرمق ويدفع غائلة الجوع ويؤتيه القوة ، ومن المراكب على أنواعها بما فيه الكفاية فحسب ، نقول كما ان الانسان أبت له طبيعته التى ركبها فيه خالقه ، إلا أن يجاوز ما تتطلبه الضرورة القصوى فى طعامه وشرابه وملبسه ومسكنه وفى كل شىء آخر ، كذلك لم يطق صبراً على الاكتفاء من الكتابه بما تُبلغ إليه من الأغراض الأولى ، وطمع فيما هو أكثر من ذلك وبغى ما وراءه فنشأ الأدب

وليس من الضرورى أن يكون المرء على جانب عظيم من الثقافة والتهذيب ليطلب الفنَّ فى حياته ، فان الانسان حيوان فنى ، وانك لتجد الرجل الأمى

الكثيف العقل ، السميك ، الوجه يضفر شعر حماره ويفرقه ويرسله على صفحتى عنقه ويفضّض له لجامه ويذهّب سرجه ويركبه مترفقاً ويمشى به مختالاً وينزل عنه ويسايره وينظر إليه بادياً من بعيد ومن قريب ويربّته ويلاطفه ويمسح له وجهه وقد تفيض نفسه سروراً بمنظره فيقبّله ! ؟ ولو انه كان لايتخذه إلا مركباً يريحه من عناء السير وجهده ، لما كلف نفسه أن يحليه ولما عُنى بتجميل أدواته من سرج ولجام وغير ذلك ، وبازاحته جهد طاقته ، وبعلفه ما وسعه الانفاق ، فهى عاطفة فنية ملكت عليه قلبه واستولت على لبه ، وكان مظهرها العناية بتجميل اتانه !

ولكن الحمير ، والحمد لله ، ليست كل ما يمكن ان يكون مظهراً لهذه العاطفة الفنية ! وما يستطاع فى عالم الحمير واشباهها من أبناء ابينا الشيخ آدم رحمة الله عليه وغفرانه له ! يستطاع مثله فى عوالم الكتابة والشعر والموسيقى والتصوير وما منا الا من يبغى ان يكون فى فنه افعل باللب وأسحرَ للقلب وأملأ للعين وأوقع فى النفس ، ولكن الكتابة لا تكون فنية من تلقاء نفسها ، وانما تصير كذلك بما يحدثه المرء فيها من الصور ، وما يوفق اليه من الاحسان والتجويد ، ولا بد لذلك فيما نظن ! من صحة النظر وسلامة الذوق وصدق السريرة والاستعداد ، فان الالفاظ موجودة ، وهى ملقاة فى طريقنا جميعاً وعلى طرف كل قلم ولسان ولو ان العبرة كانت بالالفاظ وحدها . وكان المعول على مقدار محصول المرء منها لكان اكبر الادباء هم جماعة اللغويين والحفاظ ، ولكان ابن منظور والفيروزبادى مثلا شيخى ادباء العرب وشعرائهم ، كذلك الموسيقى اصوات ، وليس يعيى أحداً أن يتوفر عليها ويحذقها ويمهر فى توقيعها ، وقد لا يعجزه أن يصنع بضعة ألحان قليلة او كثيرة ، ولكن ليس كل احد بمستطيع أن يكون بيتهوفن أو فاجنر أو شوبان ، والتصوير أيضاً اصباغ وألوان ، أو قل — ان شئت — ان هذه هى مادته

ووسائطه ، ولكن العلم بها وبأصول الرسم وقواعده ليس حسبَ المرء ليكون مصوراً حتى من الاوساط فضلا عن الفحول من أمثال روفائيل وتيتيان ، وما لنا لا نسوق الامثال مما هو ألصق بحياتنا اليومية ؟ خذ صناعة النجارة مثلا وقل لى لماذا لا يستطيع كل نجار أن يكون ككل نجار ؟ ما السر فى أن واحداً يُخرج قطعةً تدخل السرور على كل نفس وتحب أن تتعلق بها وتتمهل عندها كلُّ عين ، على حين يُخرج لك غيره ممن لا يقلون عنه علماً بالصناعة ودربةً عليها مالا يروق ولا يعجب ولا يعدو أن يكون قطعة منجورة وأخشاباً بعضها الى بعض والسلام ؟

نريد أن نقول ان فن الكتابة ، ككل فن ، يتطلب استعداداً طبيعياً وأنه ـ ككل فن أيضاً ـ لا غنى عن الجمال فيه وماذا يكون قولك فى رجل يزعم ان سيغنّيك ثم لا يسمعك الا أصواتاً متنافرة أو ضوضاء منكرة ؟ او فى آخر يقول لك هذه صورة فنية فاذا نظرت اليها لم تلمح فيها ما يميزها عن النقل الفوتوغرافى ؟ وكالنقل الفوتوغرافى الكتابةُ العادية التى لا يقصد منها الا الى الافهام ، وكالتصوير الفنى لغة الادب

ولا يَفهم أحد من كلامنا أننا نقصد الى التكلف وإثقال الكلام بالحلى والزينة ، فما يخطر لنا شىء من ذلك ، وانما نعنى ان الادب فن ، وأنه لا بد فى كل فن من الاحسان والتجويد ، ولكل امرىء طريقة هو مؤثرها أو موفقٌ اليها لابراز المعنى فى أحسن معرض ، وليست المزية فى التأنق والتحبير فان للجمال العاطل أيضا موقعاً حسناً وروعةً ونضرة ، بل المزية فى ابراز المعانى فى أحسن حلاها كيفما كانت ، وكلٌّ ميسر لما خلق له ، فواحد يوشى الكلام ويطرزه ، وثان يرسله غفلاً ، وثالث يدق لفظه ويشف حتى لتتخطاه العين كأنما يعرض لك المعانى فى ظروف من النور ، ورابع يفرغ خواطره فى قوالب مائت قوة وجمالاً وهكذا . والاحسان فى كل ذلك والقدرةُ عليه ، ملكة لا تحصل بالمعاناة ولا تتهيأ

بالدرس والتحصيل وان كان هذا مما يقويها وينميها . ولا نطيل القول . فأيما رجل زعم نفسه كاتباً أديبا وخلا كلامه من عناصر الجمال فقل له لست به

والآن ، ما رأينا فى اسلوب صديقنا الدكتور طه حسين ؟! الحق أن هذا موضوع يدق فيه الكلام ! ولقد بدأت الكلام وفى عزمى أن أفيض فى بيان رأيي فى الاسلوب ولكنى لم اكد أسود بضعة سطور حتى الفيت نفسى أوجز وأوجز وأوصد كل باب مُوارب فى طريق واضيق دائرة البحث ثم اذا بى اسأل نفسى ما رأيي فى اسلوب الدكتور !؟ ولقد تقمصنى والله عفريت النقد ! وانى لأحس ان عينىّ قد احمرتا ، ويبلغ من احساسى بذلك او توهمى اياه انى اهم بالتطلع الى وجهى فى المرآة ! ولا اكتم القراء انى صرت اؤمن بأن لكل منا شيطاناً ، واحسب شيطانى من اخبث الشياطين ، فانه يزج بى فى مآزق لا ارضاها لنفسى لو كان الأمر لى ، وان على مكتبى لاكثر من خمسة عشر كتاباً استطيع ان اتناولها بما شئت من النقد وانا آمن أن القى اصحابها اذا كنت لا اعرفهم ، ولكن شيطانى الخبيث ظل يخايلنى بكتاب الدكتور حتى اخرجته من بين اخواته وقلت له : « تعال يا هذا » ، واخذت اقلب صفحاته كما يفعل المرء بالخروف يريد أن يشتريه لعيد الاضحى ؟ ! والحق اقول انه اعجبنى ! وانا القى الدكتور كل يوم واحادثه اكثر مما احادث نفسى ، ولكم قلت لنفسى وهو لا يدرى : « لا يا شيخ ! دع كتاب الدكتور الى سواه ، فان للزمالة حقاً واجب الرعاية وستخجل ان تلقاه بوجهك هذا إن نقدته » ثم لا اكاد اخلو بنفسى حتى يهمس فى اذنى ذلك العفريت اللعين : ان الادب فوق الصداقة والزمالة ، وان بروتوس كان يقول « انى احب قيصر ولكن رومية احب الىّ » ، وان لك كتاباً كما له كتاب فلينقده اذا احب ، وليس من شأن النقد الادبى أن يفسد ما بين الصديقين ، وهكذا حتى اقتنعت وتناولت القلم فكتب به الشيطان ما يأتى :—

« الدكتور طه حسين رجل أنيس المحضر ذكى الفؤاد جرىء القلب، تعجبك منه صراحته وتقع من نفسك رجولته وانفته ، ويعلق بقلبك اخلاصه ووفاؤه ، ويثقل عليك احياناً اعتداده بنفسه ! ولما كان قد ألف ان يملى كتبه ورسائله ومقالاته ، فان كتبه وحديثه ، حين يجدّ ، فى مستوى واحد ، كائناً ما كان ذلك المستوى ، فلست تفتقد فى احاديثه ما تجده فى كتابته من الخصائص والشيات ، ويندر فى غيره مثل ذلك ، ومن شأن الاملاء ان يحول دون مط الكلام وأن يجعل الجملَ قصيرة فلا تطول مسافةُ ما بينَ اولها وآخرها ، وان يغري بالتكرير والاعادة الى حد ما ، كما هو الشأن فى الخطابة ، ومن هنا كان اسلوب الدكتور طه خطابياً او قل ان الصبغة الخطابية فيه اغلب من الصبغة الكتابية ، وخصائص تلك ومميزاتها اوضح ، فهو فى الأغلب والأعم يوجه الخطاب الى القارىء كما تفعل حين تحادث جليساً لك ، ويقصر جمله ويؤكد عباراته بالتكرير والاعادة ، ويلتمس التأثير من طريق ذلك ، حتى لتحس وانت تقرأ كلامه كأنما كان يهز قبضة يده حين بلغ هذه العبارة ، ويومىء بأصبعه لما وصل إلى تلك الى آخر ذلك .

« والخطابة فن مختلف جداً عن فن الكتابة ، واحسب انه لو كان الدكتور قد القى هذه الرسائل ولم يكتبها ، لما جاءت إلا كما هي الآن ، ومن شاء ان يكون منصفاً وان يوفى كتابة الدكتور حقها ولا يعدو بها مكانها فلينظر اليها بهذه العين وليزنها بما توزن به الخطابة لا بما تقدر به الكتابة .

« اذن أنا اخرجها من عالم الكتابة ؟ نعم ! ولا أراها الا خطباً مدونة . ولست أريد أن أقف حتى هنا . بل ازيد على ذلك وأضيف اليه انها خلت من مزايا الفنين جميعاً . ! فاما مزايا الكتابة فقد عطلت منها لأن صاحبها يمليها املاء ثم لا يعود اليها بتنقيح أو تهذيب ، ولو انه كان يتعهدها بعد أن يمليها بشىء من الاصلاح لخلت على الأرجح من اكثر ما فيها من التكرير ولعولج بعض ما يعتورها من

العيوب ، ولكنه لا يفعل ، وقد صدق فى قوله « انى ما كتبت فصلا الا وانا أعلم انه شديد النقص محتاج الى استئناف العناية به والنظر فيه ، وأنا أقدّر أن سيتاح لى من الوقت وفراغ البال ما يمكننى من استئناف تلك العناية وهذا النظر حتى اذا فرغت منه ونشرته السياسة عرضت لغيره فى مثل هذه الحال العقلية التى عرضت له فيها معتزماً ان استأنف العناية به والنظر فيه مستحيياً أن أقدمه الى الناس على ما فيه من نقص وحاجة الى الاصلاح ، والأيام تمضى والظروف تتعاقب ، مختلفة متباينة أشد الاختلاف وأعظم التبـــاين ، ولكنها كانت تحول دائماً بينى وبين ما كنت أريد من تجديد العناية واستئناف النظر ، وأى الكتّاب وأى الباحثين لا يشكو مثل هذا فى مثل هذه الأيام التى نعيش فيها ؟ »

واما خلوها من مزايا الخطابة فلأنه لا يمليها على انها خطب تلقى بل على انها مقالات وفصول تقرأ ، وان كانت طبيعة اعتياد الاملاء تجعلها أقرب الى الخطب منها الى الرسائل . ومتى كان هذا هكذا فأى غرابة اذا قلنا أنها خالية مما لم يتحره فيها : أى من خصائص الخطب ومزاياها ؟ وكما أن الخطب تفقد كثيراً من قوتها وتأثيرها فى نفوس الناس حين يقرأونها ، كذلك مقالات الدكتور من عيوبها ان الناس يقرأونها ولا يسمعونه يلقيها !

« ولا شك أن اظهر عيب فى مقالات الدكتور هو التكرار والحشو وما هو منهما بسبيل ، وعندنا ان علة ذلك ليست فقط انه يملى ولا يراجع ما يملى بل الأمر يرجع فى اعتقادنا الى سببين جوهريين : أولهما أن ما أصيب به فى حياته من فقد بصره كان له تأثير لا نستطيع أن نقدر كل مداه ، فى الأسلوب الذى يتناول به موضوعاته ، وفى طريقة العبارة عن معانيه وأغراضه ، ولسنا نتحرج أن نذكر ذلك ، فانه اعرف بنا من أن يشك فى عطفنا ، بل نحن أعلى به عيناً واسمى تقديراً من أن نعتقد ان به حاجة الى هذا العطف ، وليس يخفى أن المرء اذا حيـل بينه

وبين المرئيات ضعف أثرها فى نفسه ، ولم تعد الكلمة الواحدة تغنى فى احضار الصورة المقصودة الى ذهنه بالسرعة والقوة الكافيتين ، فلا يسعه فيما نعتقد الا الاسهاب ومحاولة الاحاطة ومعالجة الاستقصاء والتصفية .

« وثانى هذين السببين انه استاذ مدرس وقد طال عهده بذلك ، والتعليم مهنة تعود المشتغل بها التبسط فى الايضاح والاطناب فى الشرح ، والتكرير أيضاً ، بل تفعل ما هو شر من ذلك : واعنى انها تدفع المرء عن الاغوار والاعماق ، الى السطوح . وبعبارة أجلى تضطر المدرس أن يجتنب التعمق والغوص ، وأن يكتفى — ما وسعه الاكتفاء — بما لا عسر فى فهمه ولا عناء فى تلقيه . وتلك آفة التدريس ولولا انى أعرف كلفه به واقباله عليه وهشه له ، لدعوت له الله أن يريحه منه كما أراحنى »

قال المازنى : وهنا صرف الله عنى السوء واذهب عنى الشيطان فوضعت القلم وأنا احمد الله على ان لم يستكتبنى إلا هذا التحليل البرىء .

مما يحببنى فى الصحراء أن لى فيها سميرين . أحدهما رجل ساذج لا يزال على الفطرة على الرغم مما يحمل من عبء السنين على كتفيه ، ومن ثقل لحيته الكثة على خديه ! وخير مافيه انه يسمح لى أن أمشط له شعراتها الطويلة وأفتلها ، بقرش يأخذه ؟ ! وناهيك به من منظر ليس أروح منه للصدر : منظر وجه حوله مثلُ الاطار من هذا الشعر المفتول ، وفوقه عمامة خضراء ضخمة تهوى الى الحاجبين وتخفى حتى الاذنين ! ولصاحبنا هذا رأى طريف فى صديقنا الدكتور طه حسين ! فهو عنده من أولياء الله الصالحين ! ولكتابه فى نفسه روعةٌ وحرمة ، اذا رآه انبسطت أسارير وجهه والتمعت عيناه ثم مد اليه كلتا يديه ، كالمتسول حين تدفع اليه صحناً فيه طعام ! وتناوله مُبسملاً محركاً شفتيه بما شاء الله . وسبحان الوهاب ! وأمسكه مقلوباً ! فان صاحبنا بفضل الله أمى ! ؟ وأخذ ينظر اليه ويُنغض رأسه المثقل بالعمامة ويبسبس بشفتيه اعجاباً ، وسر ذلك كله انه يعتقد — على ما فهم منى ! ان الدكتور لا يكلم الناس الا يوم الأربعاء ! ! وانه يتناول فى كتابه سيرةَ والبة بن الحباب رضى الله عنه ! وحماد عجرد قدس الله سره ! ! وأبى نواس القطب الأعظم ! وقد توسل إلي مرة أن أقرأ له شيئاً من فيض الدكتور فتعمدت أن أنشده للنواسي هذه الأبيات :

مالى وللعاذلات زوقن لى ترهات
سعين من كل فج يلمن فى مولاتى
يأمرننى أن أخلى من راحتى حياتى
وذاك مالا ولالا يكون حتى الممات
والله منزل طه والطور والذاريات
الر وصاد وقاف والحشر والمرسلات
ورب هود ونون والنور والنازعات

ثم امكسيتُ لان الرجل كان قد سرى فى مفاصله كحميا الخمر فجعل يدق ركبتيه بكفيه ويهز رأسه فى كل ناحية هزاً عنيفاً أشفقت عليه منه وخفت أن ينكسر عنقه. ومنذ ذلك الحين صار النواسى قطباً والدكتور ولياً نفعنا الله بهما . آمين ؟ وبلغ من اكباره لصديقنا وحسن اعتقاده فيه ان سألنى أن أشفع له عنده ليعطيه عهداً ! وهاءنذا أؤدى الرسالة ! فهل بلغت ؟ اللهم اشهد !

وثانى السميرين الانيسين سحلية . نعم سحلية ! وأى غرابة فى ذلك ؟ ألا يتخذ الناسُ الكلابَ ويصطحبونها فى غدواتهم وروحاتهم ؟ ألم يكن اباؤنا المصريون القدماء يعبدون حتى القطط ؟ والسحالى كثيرة فى صحرائي هذه . ويظهر انها أحست منى الحبَّ لها والشوقَ الى الاتصال بها فما خرجت الى الصحراء مرة أو جلست على باب البيت الا برزت لى السحالى من الشقوق وراحت تدور حولى مطمئنة غير وجلة ، وتخطر أمامى وترفع لى ذيلها بالتحية ؟ وبعضها مخطط الجلد منقوش الذيل على نحو ما ترى على آثار آبائنا الفراعنة . وما يدرينا ويدريك ؟ لعل ههنا هيكلا قديماً مدفوناً ولعل هذه السحالى كهنة مسحورون ! فان صح هذا فقد تكون على هذه الذيول القصيرة أسرارٌ عويصة منقوشة لو ظفر بحلها واحد من أمثال « برستيد » لجلا لنا من أنباء القرون الخالية وحقائق الطبيعة الماكرة ما ينقب عليه أمثاله عبثاً فى فدافد الصعيد !

ولا بد لحبها والفتها اياى واطمئنانها الىّ من سر ، وأحسـبه انها لمحت فىّ مشابه منها ! أو كأني بها تعتقد أني كنتُ سأخلق على صورتها ثم عدل بى خالقى ، جلت حكمته ، الى ماهو أدنى وأهون . أعنى صورة الاناسى ! فان كان هذا هكذا فلعله السبب فى أن عينى تقع على الشقوق بسرعة ، وانى كلما أمسكت عصاً الفيتُنى أعالج أن أغرسها فى الأرض أو أن أحفر بها فى جوفها ، ولـكم فكرت فى هـذا فتمنيت أن يتيح الله لنا عالماً ذكياً لبقاً يثبت تناسخ الأرواح ! اذن لـكان هـذا أبسط حل لهذه المعضلة !

وأنا ألاحظها وأجعلها قيد عينى كلما ذهبت تنساب على الرمال أمامى . ولقد خيل لى يوماً . وأنا أرامق واحدة منها ، انها أطرقت قليلا ثم رفعت رأسها الدقيق وحملقت فى وجهى بعينين خلتهما عينى كاهن مسحور ، وقالت لى بصـوت أجش يفيض عطفاً ومرثية « مساكين أبناء آدم ! ما أشـد جهلـكم وأقل استغناءكم عن الـكتب . أوليس هذا الذى بيمينك كتاباً ؟ » قلت « نعم غير انى لا أقرأه لأتعلم منه بل لأنقده » فابتسمت كالساخرة وقالت « وما أشد غروركم أيضاً ! » ثم أمالت رأسها وأغمضت احدى عينيها وسألتنى بلهجة مبطنة بالزرايه « وأى كتاب تقرأ ؟ حدثنى » فقلت « هـذا كتاب وضعه من يدعى الدكتور طه حسين فى بعض من كانوا يدعون أبا نواس وبشارا والحسين بن الضحاك وكلهم ، فيما أرى من هيئتك ، مغمور خامل الذكر لم ينتشر به الصـوت الى عالمك ! » فدارت حول نفسها من فرط الضجر دورتين أو ثلاثاً ثم لفت ذيلها حـتى أدنته من رأسها ولبثت هنيهة تتأمل نقوشـه الخفية السر ، ثم التفتت الىّ وقالت « وما دكتورك هذا ؟ » قلت استاذ فى الجامعـة يدرس الأدب والتاريخ أو كليهما أو لا أدرى ماذا ! » فبدا عليها الاهتمام وتركت ذيلها يعود فيمتد خلفها على مهل ، وقالت « أدب ؟ ؟ وماذا كانت تخسر الدنيا لو لم يظهر فيها أدباؤكم هؤلاء ؟ بل لو لم تخلقوا فيها يا أبناء آدم؟ أكانت تـكف الأرض عن الدوران ؟ أم كانت تسـتوحش خلوها منـكم رائحين

غادين فوق ظهرها ومن جثثكم المرمة فى جوفها ؟ ودكتورك هذا الذى يدرس فى الجامعة هل يستمع اليه أحد ، فقهقهتُ ، فغيظت وابتدرتنى بهذا التعنيف « ماذا يضحكك ياهذا ؟ » فقلت « معذرة سيدتى ان كنت أسأت الأدب ! نعم يذهب اليه الظماء الى المعرفة ليكرعوا من معين علمه وأدبه . ولا نكران انه ليس سوى إنسان ، لا سحلية ، ولكنه يعرف بعض الشىء . . . » فقاطعتنى بقولها « اجبنى ماذا تخسر الدنيا أو تخسرون انتم لو فقدتم هذا الكتاب بل ما عندكم من الكتب ؟ » فخزّ فى نفسى هذا التحقير الذى تلج فيه ونهضت عن كرسىّ وقلت « انى احتج ياسيدتى على هذه اللهجة واؤكد لك . . . »

* * *

« اتكلم نفسك ؟ »

فالتفت مذعوراً الى مصدر الصوت فاذا قريب لى ينظر الىّ قلقاً وقد زوى مابين عينيه ! فعدت الى كرسي وعالجت نفسي حتى ثابت الي ثم شرعت أطمئنه ولكن هيهات . . . ! !

* * *

وقد كففت بعد ذلك عن محادثة السحالي العالمة واعتضت منها محادثة القراء . . . ! غير انى اذني ماانفكت تطن بقولها « ماذا تخسر الدنيا أو تخسرون أنتم لو فقدتم هذا الكتاب بل كل ما عندكم من الكتب ؟ » وانى لأردد سؤالها هذا الآن وأعيده على سمعى ويؤلمنى ويكوى غرورى الجنسى وكبريائي النوعى أن يكون الجواب سلبا قاطعاً ونفياً جازماً ، أى لاشىء ! فأما الدنيا فلا تخسر شيئاً على التحقيق . وأما الناس فبهم كأجهل ما كانوا أو كأكمل ما يمكن أن يكونوا علماً ، فما أرى هذا يقدم أو ذاك يؤخر . اليس الفناء الشامل هو المآل على كل حال ؟ أجيال تمضى وأخرى تأتى ، كالخيالات التي تتراءى للحالم ، حتى إذ

استيقظ المرء اختفت ! كذلك الطبيعة تحلم بنا الآن ثم فى الصباح يخلو رأسها من أشباحنا !! ولعن الله السحالى فقد سودت بسؤالها عيشى حتى لقد صرت كما أقول :

أرى رونق الحسناء فى ميعة الضبا ... فيُوضع بى شؤمُ الخيال ويعنق
ويُشهدنيها فى التراب مرمةً ... وقد غالها غولُ الحمام الموفق !

* * *

ونطبق سؤال السحلية على كتاب الدكتور ونسأل نحن بدورنا : هل فيه من جديد ؟ هل زادت معارفنا به قليلا أو كثيراً ؟ أكنا نكون أجهل مما نحن الآن لو لم يكتبه ! واذكر أن الأدب العربى ليس إلا بعض الأدب العالمى ، وان الدكتور لم يتناول فى كتابه سوى جانب واحد من فترة من عصر من عصور الأدب العربى . والجواب على هذه الأسئلة التى أوحت بها الى السحلية اللعينة ، نعم ولا . وأعنى بذلك أن الدكتور لم يزدنا علماً بالعصر العباسى ولم يضف إلى مانعرفه عنه جديداً ، فلو لم يكتب هذه المقالات لما فاتنا شىء يذكر من هذه الناحية . ولكن هذه المقالات كشفت عن جانب من جوانب نفسه هو ، لم يكن يتأتى لنا العلم به والاطلاع عليه لو فقدنا هذه المقالات . وهذا هو الذى ربحناه . والواقع أننا جميعاً نترجم لنفوسنا ونحدث الناس عنها ونكشف لهم عن دخائلها حين نكتب مؤرخين أو مترجمين أو متفلسفين أو ناقدين أو غيرذلك . واحسبنى لم أعد الحقيقة حين قلت — والشاهد فى البيت الخامس :

يمل الفتى طولَ الحياة ولا يُرى ... على الموت إلا ساخطاً جدَّ واجد
ويطلب ، اما مات ، أن يصبوا له ... معالمَ تستجدي دموع الخرائد

وتُبدى جراحاتِ الردى وكلومَه ... وتستمنح الأحياءَ ذكرَ البوائد

وينسج بُردَ الشعر مسهدُ جفنه ... ليسبي حريم الذكر حر القصائد

بلى ، ذاك دأب الناس ، كلٌّ بنفسه ... يعرفنا ، من صادر بعد وارد !

وديدنهم حتى تجف حياتنا ... وتخلعَ ديباج الربيع المعاود

ويسكن نبض الأرض مثل قطينها ... وتعلق أسباب الردى بالفراقد !

ولا يحسب أحد أن من الخسارة أن يعرفنا المرء بنفسه ولا يعرفنا بسواه . كلا ! فهذا مكسب كبير وربح طائل .

الاساليب والتقليد

بسم الله أبتدىء وعليه أتوكل ! فما بقيت مندوحة عن تقلد السلاح وملاقاة دكتورنا فى الحلبة التى اختارها لنفسه وآثرها على سواها . وعزيز علىّ أن أنازله وأقارعه ، فاني أنطوى له — أو صرت على الأصح أنطوى له — على الحب والاحترام . وليتنى ما عرفته ولا خالطته ! اذن لبقيت يدى حرة ترتفع حين تشاء وتهوى بكل قوتها على رأس كتابه فتهشمه ، أولا تضيره وتوهى عظامها ، على قدر ما فيه من مناعة وقدرة على المقاومة ، دون أن أجعل بالى الى صاحب الكتاب أو يبرز لى وجهه من كل صفحة فيه كأنما ظهر كتابه فى الدنيا بفعل الهواء وبتأثير الجو كما ينبت العشب من تلقاء نفسه على الصخور ، أما الآن فوا أسفاه ! ألف الدكتور كتاباً ودفعه الى الناس وقال لهم فى تواضع كله كبر : هذا مارضيت لكم ! وما هو بسفر أو كتاب ، كما أتصور السفر والكتاب ، وإنما هى مباحث متفرقة ، لست تجد فيها هذه الفكرة القوية الواضحة المتحدة التى يعبر عنها المؤلفون حين يؤلفون كتبهم ، وبالغ فى هذا الضرب من التواضع المقلوب ، فأعلن إلى الناس انه لم يعن بهذه المباحث ، العناية التى تليق بكتاب يعده صاحبه ليكون كتاباً حقاً ، وانه يعلم ، انه شديد النقص محتاج الى استئناف العناية والنظر ، كأنما أراد أن يقول : لستم أهلا للعناية وان فى وسعى أن اؤلف خيراً من هذا الكتاب ولكن لمن ؟ ألقراء الصحف السيارة وهم — فلا تنس ! —

جمهور القراء فى مصر ؟ كلا يا سيدى : « لم يكن بد من أن يتجنب (الدكتور) التعمق فى البحث والالحاح فى التحقيق العلمى إذ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا » ! ولكم وددت انا — أنا المازنى — حين قرأت هذه المقدمة التى صدر بها الدكتور كتابه ، وقبل أن يصل حائك الأقدار ما بين أسبابى وأسبابه ، ان أعلمه احترام القراء ! ولكنى خالطته فأحببته مع الأسف ! وانى لأتمرد أحياناً على هذه العلاقة التى توثقت عراها بيننا ، ويتقمصنى عفريت النقد الذى لا يحابى الأصدقاء ولا يجامل الاوداء ، فارفع بالفأس كلتا يدى وأشب عن الأرض ، وأهم بالضربة تفلق اليافوخ ، فيطالعنى وجهه الساكن وجبينه المشرق ، وهو جالس إلىّ يحادثنى ويقاسمنى ما أعانيه من المضض ويحمل عنى شر شطريه ، فتهى قبضتى وتفلت الفأس ، وتهوى ذراعاى الى جانبى وتتملكنى عاطفة فنية تجعلنى أقول « خسارة ! نعم من الخسارة ان أحطم هـذا الرأس ! فان فى الجبين لا تماعاً وفى العظام قوة ، وفى التركيب — متانة وأولى بذلك كله ريشة المصور لا فأس التحطيم ومعول الهدم ! وليتنى كنت مصوراً ! إذن لأنطقت هـذا الوجه بما عجز عنه قلم صاحبه ! » وهكذا كلما نويت للدكتور نقداً أرانى أمسح له جبينه وألاطفه وأربته ! وانى لأنقم من نفسى هذا ولكن ما حيلتى ؟ لست أرى لى خياراً : هذه هى الأسلحة ملقاة أمامى . تتخطى يدى من بينها كل درع مسرّدة تتكسر عليها النصال ولا تنتقى إلا درعاً من الكتان لا تقى ولا تغنى ! وتدع المعاول والفؤوس والقواضب والسوط وتتناول ما هو بخيط الحرير أشبه . لا بأس ! ولنبرز له عزلاً من كل سلاح !

وما أظن بالقارىء الا أنه يقول وهو يتلو هـذه السطور . وهل أنت أشد احتراماً لقرائك من الدكتور ؟ ألم تصدّر « حصاد هشيمك » بكلمة قال كل من قرأها انها زراية على القراء وتضاحك بهم ؟ وجوابى كلا بالخط الثلث ! وبراءة الى

الله من هذا الوهم الذى ركب بعض الناس ! وهل من الزراية والتهكم أن أقول ان هذا أقصى ما وسعه جهدى فان رضى عنه القراء فبها ولله الحمد والا فماذا لا يصلح كتاباً قد يصلح وقوداً ؟ وفرق ولا شك بين أن أصارح القراء بأن هذا كل ما فى الطوق وبين أن أزعمنى قادراً على خير منه ! فأنا كما ترى أصدق تواضعاً من الدكتور : هو يستخف بقرائه ولا يراهم أهلا لان يتكلف من أجلهم « التعمق فى البحث والالحاح فى التحقيق العلمى » وينشر لهم كتاباً « شديد النقص محتاجاً الى استئناف العناية والنظر » وأنا على خلافه أقدر فى هؤلاء القراء الذكاء والفطنة فأسبقهم الى الحكم على كتابى على حد قول القائل بيدى لا بيد عمر !

* * *

ولم يكذب الدكتور حين قال فى هذه المقدمة « ولقد يكون من الحق على لنفسى وللأدب ولقراء هذه الفصول أن أعترف بأنى ماكتبت منه (كذا) فصلا الا وأنا اعلم انه شديد النقص « محتاج » الى استئناف العناية به والنظر فيه » والدكتور رجل صادق صريح وقد اعترف فوق ذلك بأن الأيام كانت تحول دائماً بينه وبين ماكان يريد « من تجديد العناية واستئناف النظر » وقد احسنت الأيام بما حالت دون مرامه ، ولو أنها اتاحت له أن ينقح ما يكتب ويتعقبه بالاصلاح ، لما تركت لنا معاشر النقاد من عمل نبيض به وجوهنا ونسوغ به طول السنتنا . فهل يسمح لنا صديقنا أن ننوب نحن عنه فى تجديد العناية واستئناف النظر ؟ ؟ ويسوءنا اننا لا نحب أن نحاكى اسلوبه ونضرب على قالبه فى ارسال الكلام . وليس ذلك لأن اسلوبه الكتابى شاق يتعذر تقليده ، بل لأن لنا اسلوبنا الخاص ومن فضل الله علينا أن ليس لنا فيه مقلدون !

ولقد سمعت الدكتور مرة يقول ، وقد عرض ذكر أسلوبه ، ما معناه انه لا يطمع من الشهرة فى أكثر مما وفق اليه من كثرة المقلدين الذين يقتاسون به

ويحتذون مثاله فى طريقة الأداء وفى تأليف الكلام ، وعندى أن الأساليب التى يسهل محاكاتها هى أخلى الأساليب من المياسم الشخصية والميزات الخاصة التى يختلف بها كاتبٌ عن كاتب ، أو بعبارة أخرى هى التى لا تنطبع عليها صورة بارزة مؤكدة من شخصية أصحابها . وتقريباً لذلك من أذهان القراء نقول لهم أن المتنبى مثلاً ينطق شعره باسمه وينسب نفسه له ، دون أن يحتاج القارىء أو السامع — اذا كان قد حصّل شيئاً من الأدب — الى النص على أن هذا البيت أو الأبيات للمتنبى . وما من مطلع على الآداب الغربية يعييه أن يفطن إلى أسلوب كارليل الانجليزى مثلا ولو سيق غفلاً من كل نسبة . والآن فلنسأل : من الذى استطاع أن يقلد المتنبى أو كارليل ؟ اجمع أدباء الدنيا وشعراءها قاطبة وكلفهم أن ينظموا لك قصيدة على غرار المتنبى او يكتبوا فصلا عن مثال كارليل يعجزوا جميعاً ويبوءوا بالفشل لمذلك لأن الأسلوب صورة من النفس ، ولكل ذهنٍ التفاتاتُه الخاصة وطريقته فى تناول المسائل وعرضها ، وكلما كانت هذه الخصوصيات اوكدَ واعمق ، كانت المحاكاة أشق والاخفاق فيها أقرب ، فهى لا تسهل الا حيث يكون الأسلوب خالياً من الخصائص التى ترجع فى مرد أمرها الى النفس ومارُكبت عليه وانفردت به . واليك مثالا من عالم الموسيقى : ونعنى به هذه الأغانى الشائعة على الألسن والتى يسمونها « الطقاطيق » : يوقعها الرجال والنساء والغلمان والأطفال على السواء توقيعاً مضبوطاً ، ولا يكادون يتفاوتون الا من حيث حلاوة الصوت وصلاحه للغناء . ومعلوم ان الذين وضعوا هذه الالحان وصنعوا فيها هذه الأصوات ، هم من رجال الفن ، ولكن الناس يصنعون أصواتاً مثلها فى كلام غير كلامها ، أى يقلدونها ولا يجدون فى ذلك عسراً . أما الأدوار الكبرى والقطع التى هى ادخل فى باب الفن من الطقاطيق ، والتى يشتهر بها واضعوها ولا تُذكر فى الأغلب والأعم ، الا مقرونة — على الأقل فى الذهن —

بأسماء اصحابها ، نقول اما هـذه فما أقل مقلديها بل حفاظها ! وانت قد تستطيع أن تصنع بركة او بحيرة تشرع فيها على الزوارق ، وتأتى اليها بشتى الأسماك ، وتجعل لحوافيها صخوراً ، وتنـــثر على سيفها الحصى ، وتفرش الأرض على مستدارها بالرمال ، ولكن ايدخل فى مقدورك أن تحفر لنفسك فيما شئت من أرض الله الفضاء بحراً أعظم طامى الموج ، متدافع الأواذى ، مختلف التيارات ، يتعاقب عليه المد والجزر بتأثير القمر الذى فى السماء ؟ ؟

فليس من دواعى الفخر ان يكثر مقلدوك وأن يكونوا موفّقين فى الحكاية . ولعمرى ما ذا يبقى من المرء اذا كان يكتب على أسلوب اذا رأيت تقليده حسبته الأصل ؟ ألا يكون الانسان فى هذه الحالة عبـارة عن صورة طبق الأصل من سواه ؟ ومعنى ذلك انه يكون انساناً عادياً من الأوساط ، أمثاله كثيرون ، إذ كان لا ينفرد بشىء يرتفع به عن مستواهم

ومن حسن حظ الدكتور ان له مقلدين ولكنهم لا يوفقون كل التوفيق فيما يعالجون من احتذائه ، لأن اسلوبه ليس خالياً من الخصائص وان تكن من اللطف والدقة بحيث تخفى على مقلديه . وأعرف اناساً يخلطون بين كلامه وكلام سواه غير أن هذا مرجعه الى ضعف التمييز وعدم التفطن الى الخصائص الدقيقة التى لا تأخذها العين أول ما تأخذ

***

لا أعرف ، ولا أستطيع أن أفهم ، مسألة اسمها « مسألة القدماء والمحدثين » ولكن الدكتور الذى أثار نقعها بلا مسوغ يبدىء فيها ويعيد ، ويشغل بها من كتابه حيزاً كبيراً فلنسمعه يتكلم : قال « لم يخل عصر أدبى فى حياة الأمم التى كان لها نصيب من الأدب وحظ فى اتقان القول واجادته من هذه المسألة ، مسألة القدماء والمحدثين . ولم تظهر هذه المسألة فى عصر من العصور أو عند أمة من الأمم

إلا أحدثت خلافاً عظيماً وجدالاً عنيفاً وقسمت الادباء على اختلاف فنونهم الأدبية أقساماً ثلاثة : قسم يؤيد القدماء تأييداً لا احتياط فيه وقسم يظاهر المحدثين مظاهرة لا تعرف اللين وقسم يتوسط اولئك وهؤلاء ويحاول أن يحفظ الصلة بين قديم السنة الأدبية وحديثها وأن يستفد من خلاصة ما ترك القدماء ويضيف اليها ما ابتكرت عقول المحدثين من ثمرات أنتجها الرقى وأثمرها تغير الاحوال وتبدل الظروف ،

وهو كما ترى — أو فيما أرى أنا — كلام يحتاج الى ايضاح فلنسترد الدكتور سطوراً أخرى :

« وفى الحق أن الاختلاف بين القديم والمحدث ليس مقصوراً على الأدب وحده . . . لأن الحياة الانسانية تقوم على أصلين لا ثالث لهما ولا محيد عنهما ، هما البقاء من ناحية ، والاستحالة من ناحية أخرى . فنحن بحكم البقاء وحاجتنا اليه مضطرون الى أن نصل بين أمس واليوم والغد ، مضطرون الى أن نصل بين القديم والجديد ، مضطرون الى أن نشعر بأن حياتنا الآن هى ، ان لم تكن نفس حياتنا قبل الآن ، فهى أثر قوى من آثارها ونتيجة لازمة من نتائجها . ونحن بحكم الاستحالة والتطور مكرهون على أن نشعر بأن يومنا يغاير أمسنا وبأن حياتنا الآن ، ان اشبهت حياتنا امس من وجه أو وجهين ، فهى تغايرها من وجوه .

« واذن ، فنحن بين الشعور بالبقاء ، والحاجة اليه ، وبين الشعور بالتطور ، والحاجة اليه ، مترددون فى ميولنا واهوائنا وآرائنا فمنا من يؤثر هذا الشعور بالبقاء فيغلبه على كل شىء فى نفسه حتى تصبح غايته الحقيقية ألا يكون الا ابن أمسه ، والا حلقة من حلقات هذه السلسلة المتصلة التى لا نعرف لها أولا ولا آخراً ، وهى سلسلة الحياة . ومنا من يؤثر هذا الشعور بالتطور والاستحالة ، فيكلف بالجديد ويرغب فيه ، ويندفع فى هذه الرغبة وذلك الكلف ، فلا يفكر الا فى

شيء واحد ، هو ان يعدو ، وأن يعدو ما استطاع ، الى الامام ، دون أن يقف فيفكر فى حاضره ، أو أن يلتفت فينظر الى ماضيه . ويشتد الخلاف ويعظم بين هذين الطرفين المتناقضين ، بين أنصار القديم المسرفين فى نصره ، وأشياع الجديد الغـــلاة فى التشيع له يشتد هذا الخلاف ويعظم حتى يشعر به أوساط الناس وجماعاتهم المختلفة التى تخضع للحياة وتحياها هادئة وادعة غير شاعرة بتطور ولا ببقاء ، وانما هى محققـــة لهذين الاصلين تحقيقاً طبيعياً ، غير متكلف ولا منتحل . تشعر هـــذه الجماعات الوسطى بما بين هذين الطرفين المتناقضين من جدال عنيف وخلاف عظيم فتتوسط بينهما ويظهر منها هذا القسم الثالث الذى هو خلاصة الامة والذى هو المحقق الوحيد لاعتدال الطبع وصفاء المزاج ، والذى هو المحقق الوحيد للصلة الصحيحة المنتجة بين القديم وبين الحديث ، اهـ

والآن أفهمت ؟ كلا ؟ ؟ ولا أنا ! وأحسب الدكتور أراد أن يتفلسف فأخذ بأيدينا الى اعماق مجهولة من الهواء الراكد فيما وراء المادة ولم يزد على أن اذكرنا تلك السراديب الرومانية التى تذهب فى كل اتجاه والتى احتفرتها أيدى الناس بحثاً عما لا ندرى ! وخير لنا أن ندع الدكتور وشانه فى هذه السراديب ولنرفض أن نتحدر وراءه الى هذا الظلام الدامس الذى أفاضه على موضوعه ولنبق حيث نحن تحت سماء الله المجلوة وبين مظاهر الحياة والطبيعة ، وليهنه ، البقاء والاستحالة ، نسأل الله له السلامة !

المسألة أبسط من ذلك : أدب خلفه لنا الآباء يحسبه بعضُ المعاصرين المثلَ الأعلى ، وقد يكون كذلك ، أو لا يكون ، ويتوهمون انهم يستطيعون بالمحاكاة أن يبلغوا مبلغهم ، وانهم اذا استعاروا أجنحة النسور حلقوا مثلها فى سماء الحياة وان فى وسعهم أن يوفقوا بين روح العصر الحاضر وأساليب التفكير والحياة القديمة . وهناك قوم آخرون مثلى ومثل الدكتور لا يعنّون أنفسهم بهذا التوفيق

ولا يتحرون الا شيئاً واحداً هو الابانة عما فى نفوسهم . وهؤلاء فريقان : فريق يُعنى بأن يدرس براعات الادب القديم وفريق لا يكترث لذلك . فالأمر كما ترى لا يحتاج الى كل هذه الفلسفة التى حصب الدكتور بها وجوهنا فى فاتحة كتابه.

وأريد أن أخطو خطوة أخرى لأقول ان مقلدى القدماء لا يقلدونهم ولا ينسجون إلا على منوال نفوسهم . وان امكان النجاح فى هذه المحاكاة مستحيل ، وانهم حين يكتبون لا يحتذون مثالاً قديماً ، وانهم واهمون إذ يظنون انهم يطبعون على غرار السلف . وان السبب بسيط جداً وهو أن نجاح التقليد يستلزم أن يتكلف المرء أساليبَ تفكير عفى عليها الزمن ، وأن ينظر الى الحياة من وجهة غيّرها كرّ الايام ، وأن يتخيل جواً لا عهد له به ، وبيئة ووراثة انقطع فعلهما فى هذه الايام . ولو أن رجلاً من رجال العصر استطاع أن يتجرد من زمنه الحاضر وأن يكر الى الماضى ويجىء بكلام لا يختلف فى شىء عن كلام رجل من كتاب العرب أو شعرائهم ، لكان فى نظرى أعظم من ذلك العربى ، وحسبك أن تقدر جهد الخيال الذى يتطلبه أن يرجع المرء بنفسه قروناً !

وخطوة أخرى أخطوها : ذلك انى أنكر انكاراً باتاً أن فوق ظهر الكرة الارضية فى هذا العصر رجلاً يكتب كالعرب. وهذا صادق افندى الرافعى زعيم من نسميهم المقلدين وأنصار الأدب القديم : أى عربى كتب أو يمكن أن يكون قد كتب مثله ؟ وليس المقام مقام مفاضلة وانما هو مقام محاجة . وهذه جملة مستقلة من كلامه فيما سماه من كتبه « السحاب الاحمر » لم أتخيرها ولكن وقعت عينى عليها اتفاقاً ، ويجدر بى قبل أن أنقلها أن أعلن انى لم أفهمها ! وهى قوله « قد يتغير الرجل فى نظر امرأته حتى تقول له : يا أنت الأول ويا أنت الثانى ، ولكنى عرفت رجلاً قال لامرأته : يا أنت الخامسة والخمسين ؟!؟! »

ولست آتى بجديد حين أقول ان من المستحيل أن يرجع أحد بنفسه الى عهد العرب لأن الحياة لاسبيل فيها الى هـــذا النكوص . فلا قديم ولا جديد ، وكل ما هنالك ان واحداً يركب عقله ويتعثر به فى الطريق الذى تسلكه قافلة العصر ، وأن آخر يركب رجليه أو مطية أخرى ويسير فى طليعة الركب أو بين سواده

وان الكتاب ليحسنون جداً الى الأدب اذا أراحونا من هذه الضجة الفارغة التى أثاروها حول القديم والجديد، فان الزمن ماض لا يثقّل رجلا ، فمن سايره فهو معه ومن شاء أن يتكلف المحال فسينقطع عن القافلة وأمره الى الله

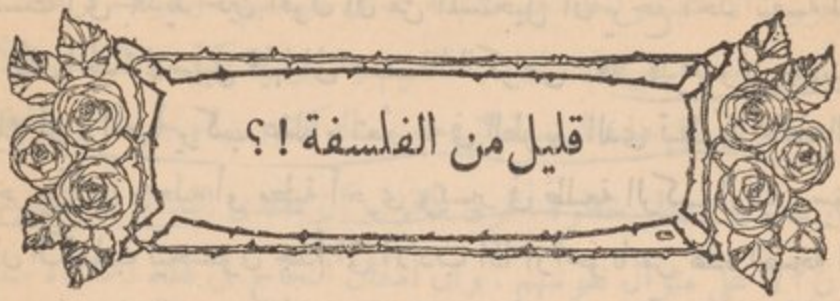

نستأذن القراء الكرام فى قليل من الفلسفة . ولهم علينا عهد الله ألا نعود الى ذلك . لا لان الفلسفة مما يعسر عليهم « هضمها » ولا لان « الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا » كما يزعم صديقنا الدكتور طه حسين فى مقدمة كتابه الذى مللته لكثرة ما ذكرته ، بل لأنى لا أحسن هذا الضرب من الكلام . وما لنا لانتفلسف وقد تفلسف الدكتور ؟ أترى ماتيسر له يُعجزنا ؟ ألا يدخل فى طوقنا كما دخل فى طوقه أن نسوق كلاماً يستحى القارىء أن يقول لا أفهمه ؟ وما دام فى الدنيا من يشق عليهم أن يعترفوا بالعجز عن فهم ما يزعمه أصحابه فلسفة ، فان الدنيا بخير ياسيدى ، ولنتفلسف فيها نحن أيضاً ! وأحر بفلسفتنا أن ترضى القراء وأن تكسبنا ثناءهم حتى اذا لم يفهموها ، كما هو المنتظر ! ذلك انها دفاع عنهم ! فما أطيبنا والله ! فى سبيلهم نتجشم الغوصَ فى درك اللجة الفلسفية ، ومن أجلهم نقامس حيتانها المخوفة ونتعرض لان يُطبق علينا أحدُها فكّه الرهيبَ ويبتلعنا بكل ما ننطوى عليه من قدرة وحذلقة ، أو لأن نغرق ونرسب فى النهاية الى جانب الدر الذى لا نعود به ، وبين الحصى والطين والحجارة التى نرتطم فيها . ولن ينفعنا القراء حينئذ ، وقانا الله شر خدمتهم !

ويغرينى باعتساف الفلسفة ومحاولة الركض بين وعورها ما أشرت اليه فى مقالى السابق ، وأسلفت عليه القول من زراية دكتورنا على القراء ، واعتباره إياهم غير أهل لأن يتكلف من أجلهم « التعمق فى البحث والالحاح فى التحقيق العلمى

إذ كانت الصحف السيارة لاتصلح لمثل هذا ، لا يا صديق الدكتور . عُلادة ، لو وسعك هذا الذى تقول انك تجنبه لما أحجمت عنه ولا صدك الاشفاقُ على رؤوس القراء والترفقُ بأدمغتهم . ولو كان فى جعبتك ما هو أغلى وأثمن لما طويته عن العيون ولاحتلت وتلطفت وألححت فى عرضه ولرفعته قبلنا من كل ناحية

وليس الدكتور وحده هو الذى يفعـــل ذلك فاننا جميعاً مع الأسف هذا الدكتور ، وما منا الا من يطيب له أن يدعى أنه قادر على خير مما يصنع ، وكما أن الفقير يتظاهر بالثراء ويحب أن يوهم الناس انه أغنى مما يدل عليه ملبسه ومسكنه وطعامه وسائر ما عسى أن يبدو لهم منه ، ويستنكف أن يعترف بخصاصته ورقة حاله ، كذلك نحن معاشر الكتاب : يزعم كل معدم منا أو من لا يملك الا فكرة واحدة انه غنى العقل ، وربما أغرق فى الدعوى فقال انه مليونير ! والناس فى العادة لا يخفى عليهم الغنى المادى ولا يعييهم أن يقفوا على حقيقة الدعوى فيه ونصيبها من الصحة ، ومن هنا ترى المفلسين لا يزالون يكبحون جماع دعواهم ليجعلوها أقرب إلى العقل وأحرى بالتصديق ، إذ كان لا يقبل ممن يمشى فى أسمال بالية ويسكن كوخاً حقيراً أن يقول أن المال عنـدى قناطير مقنطرة ، ولكنه لا يدفع السامعين إلى الانكار والجزم بكذبه إذا ادعى انه ادخر مائة جنيه . فان مائة جنيه لا تنافى كل المنافاة ما عليه ظاهرُ حاله . أما غنى العقل أو الفكر فما الحيلة فى دعواه ؟ ما طريقة حسابه والحكم عليـــه ؟ انه غنى يدعيه لا الكتاب والشعراء والعلماء وحدهم — ولو اقتصر الأمر عليهم لهان الخطب وسهل الوزن والتقدير — بل كل من له راس بين كتفيه . وهبك عرفت ما فى رأسه وأحصيته فقد بقى أن تعرف أهو من ماله الخاص أم مما اقترضه من سواه أو مما يستربيه ؟؟ فمجال الدعوى كما ترى واسع رحيب ، والحدود هنا غير قائمة ، وكل ذى دعوى يرى من الاوفق له أن يغض عن دعاوى سواه ليغضوا عنه وليتبادلوا الموافقة ويتقارضوا التأييد !

وليس من مسكين مغموط الحق غير جمهور القراء . نكتب لهم طلباً لاعجابهم والتماساً لثنائهم ونشداناً للشهرة واستفاضة الصيت بينهم وتأبى لنا طباعنا المنكرة إلا أن نجعل الاستخفاف بهم وسيلتنا الى اكتساب ذلك : يعرض أحدنا على القراء بضاعة مزجاة فاذا عوتب أو نوقش اعتذر بالسوق وأنها لا تحتمل إلا الخسيس الرخيص من الأصناف ، ويُصفى ثان ويغدو كالدجاجة انقطع بيضها فيكبر عليه أن يقول فرغ رأسى ، ويروح يقول ان الارض غير صالحة للبذر ومن الحمق أن أحاول زرع أرض ظهرها صفوان ، وقد علم ان العيب عيبه لا عيب التربة ، وان ما لا وجود له الا فى رأسه — ان كان فيه شيء — هو فى حكم المعدوم ، وانه لا وجود لخاطر على الحقيقة الا اذا ترجمه الجمهور عن صاحبه ، ويجيء ثالث بكلام لا يكتبه بالقلم كما يكتب الناس ، بل بالبرجل كما يقول صديقنا الأستاذ العقاد فى وصف واحد من هؤلاء ، فاذا قلت له انك تكتب ما لا يُفهم استشاط وسب الشمس والقمر وقال ان منزلتى أن اكتب ومنزلتكم أن لا تفهموا ، اذ كنت أختلف عنكم فى الحس وفى التفكير وفى الحكم على الاشياء ، وأصدر فيما اكتب عن الالهام الذى لا ينزل على العامة وأشباهها ! وهكذا . .

والآن فلنتفلسف ! وفلسفتنا هذه جديدة الا أنها مستمدة من سوانا ، كالحياة نفسها ، والحياة ابداً جديدة غير ان حاضرها متسلسل من ماضيها ومرتبط به . ويسرنى ان اعترف فى مستهل فلسفتى التى ارجو ان اوفق الى بسطها وايضاحها انى مدين على الاكثر لصديقي الاستاذ العقاد وان ما كتبه فى « فلسفة الجمال والحب » وذهب اليه فى هذا البحث من ان « الجمال هو الحرية » كان فتحاً مبينا فى عالم الفلسفة وان قوله فى مقدمة كتابه(١) « ان الكون كله والحياة (وهى اعم من الكون فى نظرى) والفن ومناظر الارض والسماء — كل اولئك مظهر للتآلف

---

(١) مطالعات فى الكتب والحياة

او للتنازع بين الحرية والضرورة ،او بين الجمال والمنفعة ، او بين الروح والمادة ، او بين افراح الفن واوزانه : قوى مطلقة وقوانين تحكم هذه القوى المطلقة ، وكلما ائتلفت القوى والقوانين اقتربت من السمة الفنية والنظام الجميل الذى يبين بالمادة صفاء الروح ويسبر بالقيود أغوار الحرية ؟ وهـذا الائتلاف هو دستور الفن الالهى المحيط بكل شيء وهو فلسفة الفلسفات فى هذا الوجود ، أقول أن قوله هذا على الخصوص هو الذى فتح لى الابواب المغلقة التى طالما أوهيت رأسى بنطحها.

نعم هذا هو دستور الفن الالهى : قوى مطلقة تحكمها وتنظمها قوانين ، وبغير ذلك لا نستطيع ، ولو فاضت أرواحنا من شدة التفكير ، أن نعلل ما نلمحه من مظاهر التناقض فى الحيـــاة وهذه الفقرة بعينها من مقدمة العقادة التى أعلن الدكتور طه انه لم يفهمها ، هى مفتاحى الذى سأديره فيما سأتناوله الآن . واذكان لكل شيخ طريقته الخاصة به فسأبدأ بحثى من حيث اريد أنا لا من هذه الرباوة العالية التى أشرف العقاد من قمتها على الحياة . وفى مرجوى أن آخذ بيد القارىء وأن أصعد معه درجة بعد درجة حتى نبلغ جميعاً هذه القمة

بأيهما يحس الآدمى أولا : بنفسه أم بغيره ؟ أظن أنه لا شك فى أن أول ما يحس به المرء بعد أن يأتى الى هذه الدنيا ويشعر بشيء فيها ، هو نفسه . وفى وسع كل امرىء أن يتحقق من ذلك ويقطع الشك فيه باليقين ، وذلك بأن يلاحظ طفـــله لأول عهده بالحياة ، فان كل طفل يظل زمناً غافلا عن كل ما يحيط به من الأشياء والناس ، حتى أبويه بل حتى أمه أو ظئره . وظاهر أن احساسه بوجود غيره لا يكون إلا على الأيام ، أى شيئاً فشيئاً ، ولا ينمو ويقوى إلا تبعاً لنمو إدراكه لما بينه وبين ما حوله من الناس والأشياء من الصلات . ومعنى ذلك أن الاحساس بالنفس أو بالفردية سابق للاحساس بالغير وناشىء قبله . ولك أن تقول بعبارة أخرى أن الغرائز الاجتماعية مكتسبة إلى حد

كبير . وليست كذلك الغريزة الفردية . أضف إلى ذلك أن الفرد وجد قبل النوع فالفردية هى السمة الأولى التى تبديها الحياة أو تبدو معها . وثم سمة أخرى لا خفاء بها هى أنه لا سبيل الى الخلط بين اثنين وان التطابق التام حتى بين التوأمين لا وجود له ، وبعبارة أخري ، ليس فى الحياة فردان يمكن أن تصفهما مترادفان كما تصف بعض الألفاظ تساهلاً فى التعبير . نريد أن نقول أنه لا آخر للتنوع فى صور الحياة . أى أن الحياة مطلقة الحرية فى انتقاء الصور التى تبدو فيها وتتشكل بها وان سبيل الحياة أن تخرج أشكالاً متنوعة وانها لا تتقيد فى ذلك بقالب معين ولا تلتزم فيه مانلتزم نحن مثلاً فى الشعر أحياناً من الوزن أو القافية . ولا يتعجل القارىء فيعترض فما نريد أن نذهب إلى أبعد من أن « الأصل » هو الحرية المطلقة فى اختيار الصور والاشكال . ولو أن هذا لم يكن كذلك أى لو أن الحياة مقيدة بصورة أو صور معينة لا تخرج عنها لكان تعاقب الأحياء تكراراً سخيفاً لا معنى له . وتصور أن الناس مثلاً يخلقون على طراز واحد لا يتغير ويصبون فى قالب لا يتعدد ! ألا يكون كل جيل فى هذه الحالة صورة معادة لكل جيل سبقه ؟؟ نعم بلا شك ! وماذا يكون معنى هذا التكرار المستمر ؟ لا معنى على الاطلاق ! وأحر بالحياة أن تكون إذن مسرفة سفيهة مملة . وما أحقها حينئذ بأن يحجر عليها من يستطيع ؟ !

كلا ! ليس فى الحياة إسراف ولا املال لأنه لا تكرار هناك ولا إعادة . وكل فرد يخرج من يدى الحياة يكون الأصل فيه أنه نمط قائم بذاته مختلف عما عداه وحريتها فى ذلك مطلقة لا نهاية لها ولا حد . ولكن — نعم « ولكن » — لابد من القيد الذى تنتظم به الحرية وتصان من التبدد والانحلال المفضيين إلى العدم : وهذا القيد هو أن الناس لا يخلقون فى هذه الأيام كما خلق أولهم من الطين مباشرة أو من المواد الأولية . وإنما يأتى من إنسان مثله وتخرج صورة الحياة

الجديدة من صورة سابقة أى من أبوين . وهذا الجهاز الذى تمر به مادة المخلوق الجديد يطبعه بطابعه ويترك أثره فيه فيجيء الجديد مشابهاً للقديم . وإذ كان هذا هكذا فكل فرد يأتى إلى دنيانا يكون نتيجة عاملين : حرية الاختيار التى تتوخاها الحياة فى صورها ، والوراثة الناتجة من التناسل والتى ترمي إلى الاحتفاظ بالصورة القديمة وإلى اعادتها ، وهذا هو علة الاختلاف من ناحية والتشابه من ناحية أخرى . والمسألة كما ترى بسيطة سهلة المساغ وليس فيها تعويض بل لا جديد فيها فى الحقيقة ولا فلسفة !

وعسى من يسأل : ولكن ما علاقة هذا بالدكتور طه حسين وبما افتتحت به هذا المقال ؟ ؟ وجوابنا ، ان العلاقة وثيقة والصلة متينة . ذلك أولاً أن الدكتور قد شاء أن يتفلسف فى كتابه فلم يبق لغيره عذر اذا لم يتفلسف ؟ ! وثانياً اننا أردنا أن نعلل هذه الظاهرة العجيبة : ونعنى بها تزلف المرء للجمهور وتظاهره بالاستخفاف به وبرأيه واستصغاره لقدره . فأردنا أن نقول بلسان الفلسفة ان من الدلائل القوية على ان الأصل ان الحياة مطلقة الحرية فى أخذ صورها وتنويعها ان كل واحد منا يحب أن يرتفع عن المستوى العام ، بالحق أو بالباطل ، لأن التميز دليل على وفرة الحيوية وارتائها فى المرء على النصيب العادى ، وهذا التميز هو الدليل من جهة أخرى على تغلب الفردية ، أى قانون الحياة ، على الوراثة التى تحاول ، كما قلنا وكما تعلم ، أن تجعل الناس صوراً متطابقة . ومن الذى يرضى أن يكون صورة مكررة من سواه لا تختلف عنه فى كثير أو قليل ؟ من الذى لا يحب أن يسمو فى نظر نفسه أو فى نظر سواه ، وهو المهم ، عن هذا المستوى العام ؟ وانها لرغبة تنبيء عن احترام الحياة وتكشف عما بين قانونها والوراثة من التنازع . فاذا رأيتنى أو رأيت سواي يتسامى عن منزلة الجماهير فاعذره فقد عرفت الداعى الى ذلك والباعث عليه ، واعلم ان « الجمهور » لفظ مرن يسعك فى كل لحظة أن تضيقه وتوسعه وأن تجعله كلما شئت يشمل كل الناس إلا « أنت وأنا » .

القديم والجديد

من الأوهام الشائعة أن الناس مولعون بكل جديد، ومن الأمور التى يشكوها من يتنكبون الطرق المعبَّدة أن الناس لا يبادرون الى متابعتهم حيثما يذهبون. فأى القولين أصدق ؟ وبأيهما نأخذ ؟

لقد أشرنا من قبل الى أن سبيل الطبيعة أن تصل الى غايتها من أهون سبيل، أى انها تتوخى أسهل السبل وأقلها كلفة وأعظمها اقتصاداً. ولا بأس من أن نعود الى ذلك بشىء من البيان يجلو غامضه ويحل مشكله. ولنضرب مثلين، أحدهما من الانسان وثانيهما من غيره. ولنبدأ بثانيهما فانه أخف وأيسر ايضاحاً. تسقط الأمطار على الجبال أو سواها فينحدر الماء ويحتفر لنفسه مسيلاً. فهل علم أحد أن هذا الماء الجارى آثر، مذ سال على وجه الارض أن يخترق الصخور أو يعلوها وزهد فى اللين الدمث الذى لا يشق عليه أن ينساب فيه ؟ كلا ؟ ماعلمنا عن الماء من حماقة كهذه ! فهو اذا صادفته أرض صخرية لم يتلبث عندها ريثما يحفر فيها مجراه بل راح يترقرق فوقها. وإذا اعترضته وعور ذاهبة فى الجو لم يتجشم أن يعلوها ويطم فوقها إذا وجد مجازاً له عن يمينها أو شمالها. ودع هذا وتأمل الانسان، وسل نفسك، ما السر فى أن المرء يصعب عليه أن يغير ما كوّن لنفسه من العادات ؟ أليس لأنها لا تتقاضاه من الجهد ما تكلفه مخالفتها ؟ مثال ذلك، أن تكون قد ألفت أن تسلك طريقاً معيناً بين بيتك وبين المكان الذى تزاول فيه عملك اليومى. فأنت كلما

ذرت الشمس تكرر ما عملته فى الصباح الماضى وتزايل بيتك ، وتقودك رجلاك وأنت لا تشعر إلى هذا الطريق المعين ، وتدبان بثقلك عليهما فيه كعادتهما فى كل يوم . ومن المؤكد أن سلوك هذا الطريق لا يكلفك تنبهاً خاصاً أو تفكيراً ، وأنك حين تمشى فيه وتمر بما تمر به كل يوم لا يلفتك فيه شىء . شأنك فى ذلك ، من بعض الوجوه ، كشأنك حين تأكل ، تمتد يدك إلى اللقمة فتتناولها ثم ترتفع إلى فمك ومنه تهوى إلى جوفك . وليس ليدك عين ترى بها مكان فمك من وجهك . ولسنا نعلم أن يد المرء تخطىء وترتفع إلى الأنف . فقد اعتادت أن تحسن تقدير المسافة وأصبح الجهد اللازم لذلك يبذل بطريقة آلية . وكذلك رجلاك تحملانك فى الطريق المألوف وتذهبان بك فى منعطفاته دون أن تفكر أنت فى شىء . ولكنك حين تسلك طريقاً آخر غير الذى ألفته تلفى نفسك تستعمل عينيك وتجيلهما فيما هو أمامك وعن يمينك وشمالك ، وقد تفكر فى طوله أو قصره بالقياس إلى طريقك المعتاد ، وفيما هو قائم على جانبيه من المساكن أو الأشجار وغير ذلك ، وقد يعقد ذهنك مقارنات ومقايسات كثيرة ويجرك هذا إلى مواضيع شتى قد تشغلك النهار أو بعضه أو أكثر من ذلك وهذا كله جهد لا تبذل شيئاً منه حين تأخذ فى طريقك المألوف . وكذلك الحال حين تتناول طعامك بغير اليد التى ألفت أن تتناوله بها

ولم تكن الحياة نفسها تعجز عن أن تخلق الناس فى أيامنا هذه كما خلقت أولهم وأسبقهم فى الوجود ، أعنى من طينة الأرض التى صيغ منها المخلوق الأول — كائناً ما كان هذا المخلوق — ولست أعنى بطينة الأرض وحلها ، وانما أعنى المواد الطبيعية الأولية كما هو ظاهر بالبداهة . ولكن الحياة لا تفعل ذلك الآن وقد كفت من زمان طويل لا يعرف حسابه إلا الله سبحانه وتعالى ، عن إخراج المخلوقات على هذا النحو العتيق ، وصرنا نخرج إلى الدنيا بطريقة التوالد إذكان

خلق الانسان بالتوالد أسهل من اعادة كل أدوار التطور الماضية كلما أريد خلق انسان . ولأن التوالد يتيح المرور بمختزل هذه الأدوار وبسرعة فلا حاجة لتكلف المرور بها على نحو مطابق للأصل . وإذ كان هذا الكلام يحتاج إلى تفسير فليعلم القارىء — إذا كان ممن يجهل ذلك — ان المرء يعيد على صورة مصغرة مختزلة ما مرت به الانسانية من أدوار النشوء ، وللقارىء أن يصدق هذا أولا يصدقه ، فان كانت الأولى فله منا الشكر الجزيل على الثقة بنا والاطمئنان إلينا ، وإن كانت الثانية فلا ضير عليه أو علينا ولن يمنع إنكاره ان الأمر كما نقول والحال على ما نصف ووقتنا وصدرنا أضيق من أن نتجشم إثبات ذلك له على حين يستطيع هو أن يريحنا بأن يقرأه فى أكثر من كتاب واحد

والآن فلننتقل الى شيء آخر ، وليحضر القارىء الى ذهنه تلك الآلة الموسيقية التى يسمونها القانون . وهى آلة ذات أوتار كثيرة يحتاج الضارب عليها أن يعيد إصلاح أوتارها كلما أراد أن ينتقل الى « نغمة » مغايرة للنغمة الأولى ، ومن باب غير بابها . ولكنه لا يحتاج إلى اعداد أوتاره وتهيئتها من جديد إذا كان الانتقال بسيطاً وفى موضع واحد أو مواضع قليلة من الصوت الذى يوقعه ولم يكن عاماً شاملاً . ونحسب هذا معروفاً مفهوماً . وما منّا إلا من رأى ذلك وشهده بعينيه . فصاحب القانون لا يغير شد الأوتار ولا يكف عن التوقيع عليها ليعالجها من جديد إذا كان الخروج عما هيأ له أوتاره جزئياً غير تام ، وهو حين يحدث هذا الخروج الجزئى عما استعد له بآلته لا يتعبه هذا الخروج ولا يصدمه ، ولا يكلفه أو يكلف الأوتار فوق طاقته وطاقتها فيستمر العزف أو التوقيع كأن لم يحدث انتقال ما .

كذلك الناس حين يجيئهم واحد منهم بما هو أشبه بقديمهم الذى ساروا عليه وألفوه ، لا يحسون أن جديداً طرأ أو انهم يحتاجون أن يصلحوا نفوسهم

ويهيئوها تهيئة خاصة لتلقى هذا الطارىء واستقباله . ولا يشعرون بدافع إلى المقاومة اتقاء لما يكلفهم اطّراح ما اعتادوه من الجهد . ومن الأمثلة كتابات المنفلوطى ، رحمه الله. وهذه لم يكن فيها جديد ، بل كلها مما شبوا وشابوا عليه . وكل ما فى الأمر أنه جعل لكلامه طلاء أو لوناً لا يحيله عن أصله ولا يخرجه عن تياره . وشبيه بذلك أن تستحدث ألواناً جديدة فى الملابس دون أن تغير الشهرة (المودة) فى تفصيلها — فلا يصدم الناس منها شىء كبير ولا يحملهم على التردد فى قبولها والاقبال عليها أنها مخالفة لما يجرى عليه العرف . ولكن لنفرض أن حائكاً سن لنا « شهرة » جديدة كل الجدة كأن يرتد بنا إلى خمسين أو ستين سنة ليحيي طرازاً كان شائعاً يومئذ ، أو كأن يستحدث أسلوباً تكون فيه الأزرار من الخلف لا من الامام أو تكون السترة أو مايسمونه « الجاكتة » أشبه بالشملة . فهل يقبل الناس على تلقف هذا الطراز ؟ كلا ! يتحرجون فى أول الأمر وينكرونه ويظلون يتهيبونه زمناً طويلاً أو قصيراً على قدر بعده من مألوفهم ، حتى يتهيئوا لقبوله شيئاً فشيئاً ويقتنعوا بصلاحه وجماله على الأيام ، ان كان له نصيب من الجمال أو الصلاح . وهذا هو الذى يحدث حين يخرج كاتب أو شاعر على التقاليد والسنن وينهج سبيلاً غير التى ألف الناس أن ينهجها الكتاب ، أو حين يأتى عالم أو فيلسوف برأى يقلب ما نشأ الجمهور على اعتقاده . ولماذا فى ظنك كان أهل أوربا فى القرون الوسطى يستنكرون أن يذهب أحد إلى ان الأرض دائرة او انها ليست محور الوجود وقطب الكون أو أن الشمس لا تدور حولها بل هى التى تدور حول الشمس؟؟ ماذا يعنيهم من كون الأرض كرة أو سطحاً أو هل تدور حول الشمس أم الشمس التى تدور حولها ؟ ماذا كربهم من ذلك فى حياتهم أو أفسدها عليهم حتى آذوا القائلين بما اعتقدوا خلافه ؟ لا شىء سوى أن الرأى الجديد كان خطوة فى عكس الطريق الذى درجوا عليه كما درج آباؤهم وكان من شدة المغايرة وفرط

المعارضة لمألوفهم بمثابة القول بأن الأنف مجعول لمضغ الطعام ، والأذن للشم ، والعين للسمع . والناس انما يسهل عليهم الأخذ بالجديد اذا كان مقارباً لما اعتادوه وكان كأنه امتداد له ولم يكن مغايراً فى جوهره لآرائهم أو أذواقهم

وقد قلت حين سُقْتُ مثل الحائك « لنفرض انه سن لنا شهرة جديدة كل الجدة كأن يرتد بنا خمسين أو ستين سنة ليحي طرازاً كان شائعاً يومئذ » . وأعنى بذلك أن القديم الذى مضى زمنه وانقضى عهده يكون فى حكم الجديد وله وقعه وصدمته حين يراد احياؤه ، لأنه يكون جديداً فى نظر من لم يألفوه ، واعتبار من لم يدركوا زمنه وعلى ان هذا فرض قائم على استحالة إذ كان احياء القديم يتطلب أن تتوفر الأحوال والمقتضيات والحالات النفسية والفكرية التى عفى عليها الزمن وطوى صفحتها

وبعد فليس بصحيح أن الناس مولعون بكل جديد ، وانما الصحيح انهم يقاومونه ويتهيبون له على الأيام وان جديد اليوم اذا كان صالحاً خليق أن يصبح مألوف الغد . ومن حق الجمهور علينا أن نحمد له ذلك ، وأن نشكر الله عليه . اذ حقيق بالدنيا أن تنقلب بيمارستاناً ضخماً لو أن الناس فيها كانوا يبادرون الى الأخذ بكل جديد واجابة كل مهيب فليس كل جديد صالحاً ، والاتزان فى الحياة ألزم وأجدى وأكفل باطراد التقدم من طيش التعجل .

طه — ومجنون ليلى

بسم الله ، وما توفيق الا بالله . وبعد ، أيها القراء ، فقد هدانى البحث والتقصى ، مع الاسف الى حقيقة خفيت عليكم — حقيقة ان سرنى أنى وفقت اليها . لقد ساءنى والله انها نسخت حلماً لذيذاً عشت به زمناً رغداً ، فليست كل حقيقة سارة ، وما كل حلم يشتهى المرء أن يفيق من أضغاثه . ولكنه « التعمق فى البحث والالحاح فى التحقيق العلمى » قاتلهما الله ، والتحقيق العلمى كالجيلوتين ! لا يرحم ، ولا يدركه العطف على الاوهام التى يحصدها ، والخرافات التى يطير رؤوسها عن أبدانها التى تتكون على الايام كجزائر المرجان .

وأوجز ، على خلاف عادتى ، فأقول : ان « صديقى » الدكتور طه حسين الذى سمعتم به ، وقرأتم ما كتبته عنه ، شخص لا وجود له فى دنيانا هـذه ، وانه من مخلوقات الخيال ليس الا . . !!

أتهزّون رؤوسكم انكاراً ؟ يا سبحان الله ! وهل هو أضخم شأناً أو أحق بأن يكون مخلوقاً حقيقياً من « هومر » الذى يذهب الكثيرون من جلة العلماء المحققين الى أنه اسم خرافى ؟ أو من شكسبير الذى يزعم بعضهم انه اسم انتحله واستتر وراءه خلافه ؟ كلا ! لا محل للانكار ورفض التصديق : والقـدرة الالهية التى تفنى الموجود لا يعجزها أن لا توجـده أصلاً . والمرء بعد أن يعود تراباً فى تراب تحت تراب ، كما يقول الخيام ، يجرى ذكره على « بعض » الالسنة ، ثم يقل وروده عليها يوماً بعد يوم حتى تطوى صحيفته ويتم محوه فكأنه ما كان . وذاك مرجوعنا

جميعاً باذن الله فى هذه الدنيا التى لا تتسع لنا الا فوجاً فى إثر فوج . وهبوا الدكتور حقيقة مادية نلمسها ونحسها اذا شئنا فماذا يضيره أن ننكر وجوده ؟ أليس الثابت على كل حال انه — بعد عمر طويل ان كان يشتهى طول العمر — سيحور صدى تتجاوب به كهوف بعض النفوس ،أو على الاكثر كتاباً أو كتباً تتداولها الايدى ؟ نعم . وما أحسبه يمكن أن يطمع فى اكثر من هذا لانه ليس ثم ما هو اكثر من ذلك ، وهذه كتبه بين أيدينا ،فماذا اذن ؟ ما حاجتنا الى صاحبها ؟ لماذا ينبغى أن يكون لها صاحب موجود ؟؟ (وياسيدى القارىء ان هذا الذى « يتسمى » الدكتور طه حسين ينكر فى احدى مقالاته ، المعزوة اليه ، ان شخصاً اسمه مجنون ليلى دب على ظهر الأرض ويزعمه طائفة محشودة من القصص ابتكرها اكثر من واحد . ودليله على ذلك ان الرواة تضاربوا فى هذا المجنون وبالغوا وجاوزا المعقول ، ولا أدرى ماذا صنعوا أيضاً ! أفلا نستطيع نحن قياساً على هذا المنطق أن نشك فى وجود من نشاء بل ان ننكر وجوده بتاتاً ؟)؟ نعم ، يسعنا ذلك بلا ريب ، ومن ترى أحق بأن يطبق عليه هذا المنطق من صاحبه ؟ ؟ ويعز علينا أن نمحو من الدنيا رجلا قبل أن تعفى عليه الأيام كما ستعفى علينا أجمعين . ولكن المثل يقول « كما تدين تُدان » ولقد أسلفنا لك ان الدكتور لم يتحرج أن ينكر أن مجنون ليلى وجد فى الدنيا ولم يصده عن هذا الانكار القاسى حتى ولا العاطفة الفنية . ورحم الله ابن الرومى فقد كان يقول :

ولو أننى أحييت ميتاً ، عشقته بحسن الذى آثرت فيه من الحسنى

ولكن الدكتور يعمد إلى صورة حية فيحاول بمنطقه أن يقضى عليها ويفجعنا فيها ويسلبنا إياها ويحسب أن قصة المجنون يمكن أن تبقى لها روعتها وجمالها وأخذُها بعد أن تفقد الأصل وتخسر عنصر الوحدة فيها ، وبعد أن تصبح مرقعة كأسمال المتسولين ! فها قد قيض الله للدكتور مجنوناً آخر ينكر وجوده

كما أنكر هو وجود المجنون القـــديم !! وانه لانتصاف ! فما يضير صاحب ليلى ما يقول الدكتور فيه . فأما الدكتور فسيحتاج بعد اليوم إلى كل من عنده من الشهود وما فى جعبته من الأوراق ليثبت ان لاسمه مسمى وهيهات !!

كنت جالساً ذات يوم مع صديق الأستاذ العقاد فتذاكرنا حديث الأربعاء وصاحبه ، بمناسبة ما كتبته عنه، واستطردنا إلى طريقته فى البحث ، والتحقيق العلمى، ثم إلى سيرة مجنون ليلى . فقال الأستاذ العقاد عن أى شىء يسفر البحث يا ترى لو نسجنا على منوال الدكتور فيما كتبه عن المجنون؟ انه لا يبقى منه شىء كما لم يبق هو شيئاً من المجنون . والحق أقول ان مقترح العقاد راقنى ، وان نفسى ظلت تنازعنى بعد ذلك أن اتولى امضاء هـــذه الفكرة فلبثت أن اتردد حتى لم أعد استطيع المقاومة . وقد أقنعت نفسى بقولى لها ان العقاد لا يضيره أن أسطو على فكرة أو افكار له فانه أغنى من ذلك ، وأنا أفقر من أن أدعها له وان كنت أردها بهذا الاعلان اليه

وبعد هذا البيان الذى لابد منه أقول ، لنفرض ان مؤرخاً فى القرن الثالث والعشرين مثلاً تناول حياة الدكتور بمثل تمحيصه وتحقيقه العلمى فهل تكون النتيجة إلا كما يأتى ؟ : —

يزعمون ان رجلاً اسمه الدكتور طه حسين ، عاش بمصر فى اوليات القرن العشرين ، وانه صاحب هذه الكتب المختلفة التى نسبوها اليه ونحلوه إياها ، ولكن كل ما اطلعت عليه مما يعزى له يحملنى على التردد بين رأيين : احدهما ان يكون هناك أناس كثيرون يتسمون « طه حسين » وثانيهما ان يكون هذا اسماً استعاره فرد أو عدة أفراد لما كتبوه ونشروه . ذلك انه ، على ما روى ، أزهرى النشأة ، والأزهر هذا جامعة اسلامية كبرى يلبس طلابها الجبّة والقفطان والعمامة أو ما ماثل ذلك من ثياب العامة فى ذلك الوقت مما تجد نماذج منه فى المتاحف .

فهو على هذا « شيخ » ويقولون انه كان فى صدر ايامه هذه يكتب فى صحيفة يومية اسمها «الجريدة» ، ولكنى راجعت مجموعة هذه « الجريدة » فى دار الكتب فألفيت احد أدباء ذلك العصر واسمه « عبد الرحمن شكرى » يسميه « طه افندى حسين » فى مقال له. وهو مالا سبيل الى حمله على انه خطأ أو زلة قلم ،لان الفرق بين الافندى والشيخ كان من الوضوح ، والاختلاف فى التعليم والنشأة والوسط والزى كان من الشدة ، بحيث لايعقل أن يقع الخلط بينهما . فهل طه افندى حسين هو عين الشيخ طه حسين ؟؟ ولا شك أن شكرى كان يعرف المُعنى «بطه افندى حسين» فقد كانت بينهما ملاحاة ،يدل على ذلك قصيدة نشرتها الجريدة بامضاء « طه حسين » ومطلعها

« قل لشكرى فقد غلا وتمادى بعض ما أنت فيه يشفى الفؤاد »

وأحر بمتهاجيين أن يعرف كل منهما صاحبه وأن لا يجعله « أفندياً » وهو شيخ . ومما هو خليق أن يضاعف الشك فى انهما شخص واحد ،أن الشعر لم يكن من أدوات الشيخ طه حسين وان ناشرى كتبه ومترجمى حياته لم ينسبوا اليه بيتاً واحداً .

ويعزى الى طه حسين ، ولا أدرى أيهما ؟ مقال بل عدة مقالات فى الجريدة يدعو فيها الى تغيير الهجاء ورسم الكلمات . فهل كان الداعى الى هذا والملح فيه الشيخ طه أو طه افندى ؟ أما الشيخ طه فكان على مايقولون مكفوف البصر وكان فى ذلك الوقت لا يزال طالباً بالأزهر ، ومن المعلوم ان طلبة الأزهر كانوا من « المحافظين » ومن أشد طبقات المتعلمين استنكاراً للبدع ونفوراً من أصحابها، وكثيراً ماكانوا يتجاوزون الاستهجان بالقلب أو باللفظ ويتضاربون بما كانوا يتفكهون بأن يسموه « السلاح الاحمر » يعنون به النعال ! ولم يرو أن الشيخ طه كان من أبطال هذه المعارك «الحمراء» ولا من ضحاياها، وأخلق به ألا يكون ،وقد

كان كما يزعمون ضريراً . فلو انه صاحب هذه البدعة والمنادى بها لأصابه رشاش من قذائفها . زد على ذلك انه ضرير . وما اهتمام الضرير برسم الكلمات ؟ !! ماله ولهذا وهو لا يعانيه ولا يكابد صعوباته ؟ ! ان الاهتمام لذلك والتحمس له احق بأن يكونا من رجل يكابد الكتابة بنفسه لا من كفيف ماعليه الا ان يملى . وهو على كل حال خاطر اولى به ان يجرى ببال مبصر لا ضرير . فالأرجح فى الاحتمال والأقرب الى المعقول ان يكون هناك شخصان اسم كل منهما « طه حسين » واحدهما افندى مبصر يقول الشعر ويدعو الى تغيير الهجاء ، والثانى شيخ ضرير يكتب فى الادب

والآن من هو الدكتور طه حسين صاحب « حديث الأربعاء » ؟ أهو الشيخ أم الافندى ، ام هو لا هذا ولا ذاك ، بل شخص ثالث ؟ ؟ أما انه أحدهما فانى اقطع بنفيه . وحسبك الفرق بين أسلوب هذين وأسلوب ثالثهما . وسننقل لك فقرات تريك من التباين ما لا يدع مجازاً للشك فى ان الكتّاب عديدون

قال الشيخ طه حسين فى كتابه ذكرى أبى العلاء « كان ابو العلاء يحرص أشد الحرص على أن يخفى نفسه على القارىء فى بعض رسائله ، ولكن شخصه كان يأبى الا الظهور . وكان يلقى بينه وبين القارىء أستاراً صفيقة من غريب اللفظ ، وحجباً كثيفة من ثقيل السجع ، و يقيم حوله أسواراً منيعة من المباحث اللغوية والصور الدينية ، ولكن عواطفه الحادة تأبى إلا أن تخترق هذه الموانع كافة لتصل إلى قلب القارىء فتترك فيه ندوباً ، لدغات الجمر أخف منها وقعاً وأهون منها احتمالا »

وهو أسلوب لا شذوذ فيه كما ترى . ولكن اقرأ الآن الفقرة الآتية من كلام « الدكتور » طه حسين فى نفس الموضوع والمعنى . قال « ذلك ان أبا العلاء كان — كما تعلم — من أشد الناس ايثاراً للغريب وتهالكاً عليه . ثم كان أبو العلاء ، إلى هذا — فيما أعتقد أنا — يتكلف الغريب ويتعمده ليصد عامة الناس وجهالهم

— سواء فى ذلك العلماء وغير العلماء — عن قراءته والظهور على ما فيه . وكأن أبا العلاء كان لا يكتب لعصره ، وكأن أبا العلاء كان يحس أن عصره خليق ألا يكتب له ، وكأنه كان يكتب لهذا العصر الحديث الذى نحن فيه وللعصور التى ستليه ، وكأنه كان يخشى على آثاره الأدبية أن يفهمها أهل زمانه فيفسدوها ويشوهوها ويحولوا بيننا وبين فهمها وكأنه إنما أقام من الغريب وقواعد النحو والصرف والعروض والقافية طلاسم وإرصاداً شغل بها أهل عصره عن هذا الكنز حتى لا يصلوا إليه وحتى تسلم لنا نحن خلاصته ، فنترك للقدماء نحوهم وصرفهم وغريبهم وعروضهم وقوافيهم ، ونفرغ لخلاصة هذا الكنز من فلسفة فى الخلق والجماعة والدين »

ثم اقرأ للشيخ طه حسين قوله من ذكرى أبى العلاء أيضاً « من قرأ رسالة الغفران وأراد أن يفقه معناها حق الفقه احتاج إلى دقة ملاحظة ، وحذق فطنة ، وبعد نظر ، ونور بصيرة ، وإلى أن يدرس روح الكاتب فيحسن درسه ويعرف أغراضه فاذا لم يوفق إلى ذلك مرت به رسالة الغفران وهو يظنها من أقوم كتب الدين »

وقس هذا الى ما كتبه الدكتور

« أراد أبو العلاء أن يتفكه وأراد أبو العلاء أن ينقد وأراد أن يكفر وأراد أن يؤمن ولست أحتاط فى لفظ ولا أتحرج من معنى وإنما أريد ان اكون حراً فيما افهم وفيما اقول فالحرية وحدها هي السبيل إلى فهم ابى العلاء هذا كله ، اراد ان يتفكه فتفكه إلى غير حد ، واراد ان ينقد فنقد فى غير رحمة ، واراد ان يكفر فكفر بغير حساب ، واراد ان يؤمن فآمن فى غير شك . اراد هذا كله ووفق الى هذا كله احسن توفيق الخ »

وانما اكثرت من المقتطفات ليتيقن القارىء ان الكاتبين شخصان مختلفان ولا عجب ان يكونا كذلك فان الأسلوب صورة من النفس . وهكذا صار عندنا

من المشتركين فى حمل هذا الاسم ثلاثة اشخاص متباينين : شيخ وافندى ودكتور

ويظهر أن هناك اكثر من دكتور طه حسين واحـد . ففى بعض المقالات المعزوة الى هذا المتسمى « الدكتور طه حسين » تنويه بأن كاتبها كفيف وفى البعض الآخر ما يفيد انه مبصر فهو يقول « قرأت ورأيت وشهدت » وما الى ذلك من الالفاظ الدالة على الرؤية ويصف لك بعض المشاهد لا تخيلا بل كما هى كائنة . مثال ذلك بعض رسائل بعث بها من فرنسا وفيها يصف مناظر البلدان ، ومقالات عن روايات شهد تمثيلها ولم يقتصر فى كلامه عنها على تناول القصة بل جاوز هذا الى التمثيل والاداء ، ومما يؤكد هذا التعدد ايضاً ان لاحد هؤلاء الدكاترة — فانهم على ما يبدوا لى كثر — ابناء يسميهم اسماء افرنجية ، وان الصحف المحفوظة فى دار الكتب مختلفة فبعضها يقول الشيخ طه حسين والبعض يذكر الدكتور طه وواحدة تزعمه استاذاً فى الجامعة واخرى صحفياً ، ومعروف ان قوانين ذلك العصر لا تجيز ان يكون المرء موظفاً فى جامعة اميرية وصحفياً فى الوقت عينه . واحد هؤلاء الدكاترة كان مولعاً باللاتينية واليونانية وكان يلح على وزارة المعارف ان تدرسهما فى المدارس الثانوية ولا يكاد يتفق ذلك مع الصبغة الأزهرية الأولى . اضف إلى ذلك ان « الشيخ طه حسين » كان ذا لحية وان دكتور الجامعة او الصحفى كان افندياً حليقاً ، فالأمر كما ترى لا يعـدو احدى اثنتين : ان يكون هناك أشخاص عديدون بهذا الاسم ، وهو غير محتمل ، او ان يكون هذا الاسم مستعاراً وهو الأرجح » .

* * *

وبعد فكيف يرى القراء هذا المنطق ؟ اليس مهلهلا واهن الأركان متداعي البنيـان ؟ نعم هو كذلك بلا نزاع ! ولكنه ليس اوهى من منطق الدكتور فى كلامه عن المجنون . ولقد أردنا ان نثبت بهذا التطبيق انه ما هكذا يكتب التاريخ

ولا على هذا النحو يكون « التعمق فى البحث والالحاح فى التحقيق العلمى » وانه إذا كان مجرد التضارب فى الروايات والعجز عن التوفيق بينها يكفيان لمحو رجل من الوجود فقد صار ذلك سبيلا إلى انكار كل شىء

ولقد تعمدنا فيما اوردنا ان نسوق اشياء من هنا وهنا وان نهمل الصلات الكائنة بينها لأن كثيراً من حلقات السلسلة يسقط مع الزمن ولأن هذا الأرجح هو كل ما يبقى معروفاً عن المترجم له بعد قرن او قرون وهل فى تراجم العرب مثلا اكثر من هذا ؟ هل يعرف احدنا عن شاعر اموى او جاهلى ما هو اوفى او اشد اتساقاً مما اوردنا من حياة الدكتور ؟ كلا ! فاذا كان الدكتور طه يبيح لنفسه ان ينكر وجود المجنون اعتماداً على التضارب فى الروايات ونقصها وتشويهها فقد ضاع الدكتور نفسه والله ؟ وشبيه بهذا ان يختلف شهود حادثة فتنكر وقوعها

نعود الى الدكتور طه حسين لنُحييه بعد ان نكرناه ولنقول كلمة فى التفاتات ذهنه واتجاهات خواطره ، كان حقها التقديم ولأمر ما تأخرت ، ولقد بينا من قبل أن المرء يترجم عن نفسه ويكشف عن دخائلها ويعرض على الناس جوانبها فى كل ما يكتب ، قصد الى ذلك أم لم يقصد ، ولعل العمد مفسدة ، وأتم ما يكون الكلام حين ينطلق على وجهه فى غير تكلف ، ومن الذى وسعه أن يقف على مستسر نفسه ويحيط بما انطوت عليه من مضمراتها ؟ هذا ، ولو لم يكن من ذاك إلا أن لكل امرىء اسلوبه فى الكتابة وفى الطريقة التى يتناول بها موضوعه والجهة التى يطرقه منها لكان ذلك حسبنا .

وقد لفتنى من الدكتور في كتابيه : « حديث الأربعاء » — وهو مما وضع — و « قصص تمثيلية » — وهى ملخصة — ان له ولعاً بتعقب الزناة والفساق والفجرة والزنادقة . وقد ينكر القارىء أن أدخل القصص التمثيلية فى هذا الحساب ، ويقول انها ليست له وان كل ماله فيها انه ساق خلاصة وجيزة لها . وهو اعتراض مدفوع لأن الاختيار يدل على عقل المرء ويشى بهواه كالابتكار سواء بسواء وانما يختار المرء ما يوافقه ويرضاه ويحمله عليه اتجاه فكره حتى لا يسعه أن يتخطاه . ولست بمازح حين انبه الى ذلك . وهاهو ذا حديث الأربعاء ماذا فيه ؟ فيه كلام طويل عن العصر العباسى ، وللعصر العباسى وجوه شتى ، وفى وسعك ان تكتب

عنه من عدة جهات وأن تتناول فلسفته او علمه او شعره ، وجده او هزله . ولكن الدكتور طه يدع كل جانب سوى الهزل والمجون ويروح يزعم لك انه عصر مجون ودعارة واباحة متغلغلة الى كل فرع من فروع الحياة . فلماذا ؟ لأية علة يغضى عن الجوانب الاخرى لذلك العهد ، بل قل لماذا لايرى فى غير الماجنين والخليعين صورة منه ؟ ولست أفترى عليه فانه القائل فى الصفحة السابعة والعشرين من كتابه ، ادرس هذا العصر درساً جيداً واقرأ بنوع خاص شعر الشعراء وما كان يجرى فى مجامعهم من حديث تدهشك ظاهرة غريبة ، هى ظاهرة الاباحة والاسراف فى حرية الفكر وكثرة الازدراء لكل قديم سواء اكان هذا القديم ديناً ام خلقاً ام سياسة ام ادباً . فقد ظهرت الزندقة وانتشرت انتشاراً فاحشاً اضطر الخلفاء من بنى العباس الى ان يبطشوا بالشعراء والكتاب لأنهم اتهموا بهذه الزندقة وظهر ازدراء الأدب العربى القديم والعادات العربية القديمة والسياسة العربية القديمة بل ظهر ازدراء الأمة العربية نفسها وتفضيل الأمة الفارسية عليها ، وكانت مجالس الشعراء والكتاب والوزراء مظهراً لهذا كله . وليس يعنينا أن تكون النهضة السياسية الفارسية وحرصها على الانتقام من العرب والاستئثار دونهم بالسلطان مصدر هذا التغير وانما الذى يعنينا ان هذا التغير قد وجد وقوى حتى ظهر فى الشعر ظهوراً جعل انكاره مستحيلاً .

ولم يكف الدكتور أن يعمد الى طائفة معينة من شعراء العباسيين وأن يرسم من سيرتهم صورة يزعمها صورة العصر بل هو ينكر ان غير هؤلاء من العلماء أو الشعراء يمثل العهد العباسى : واقرأ له قوله فى صفحة ٥٠ من هذا الكتاب

« . . . فقد بينا فى ذلك الحديث ان هؤلاء الشعراء كانوا يمثلون عصرهم حقاً وكانوا أشد له تمثيلاً وأصدق لحياته تصويراً من الفقهاء والمحدثين وأصحاب الكلام وان هؤلاء العلماء على ارتفاع أقدارهم العلمية ومنازلهم الاجتماعية والسياسية وعلى ان كثيراً منهم كان ورعاً مخلصاً طيب السيرة لم يأمنوا أن يكون من بينهم من شك

كما شك الشعراء ولها ، كما لها الشعراء ، واستمتع بلذات الحياة « فى سره » كما استمتع بها الشعراء فى جهرهم »

وهل يقف الدكتور هنا ويقنع بهذا القدر ؟ كلا يا سيدى ! بل يجرى الى آخر الشوط ويقول فى الصفحة التاسعة والثلاثين من كتابه « خسرت الأخلاق من هذا التطور وربح الأدب فلم يعرف العرب عصراً كثر فيه المجون وأتقن الشعراء التصرف فى فنونه وألوانه كهذا العصر ثم كان من كثرة المجون ، أو بعبارة أصح ، كان من فساد الخلق فى ذلك العصر والعصور التى وليته أن ظهر فن جديد من الغزل لم يكن معروفاً فى الجاهلية ولا فى صدر الاسلام ولا فى أيام بنى امية وانما هو أثر من آثار الحضارة العباسية ، هو أثر أنشأته هذه الحضارة الفارسية عندما خالطت العرب أو عندما انتقل العرب اليها فاستقر سلطانهم فى بغداد ، وهذا الفن الجديد هو الغزل بالغلمان الذى سنحدثك عن خصائصه فى غير هذا الفصل »

واذا سمعت رجلاً يقول ان الاخلاق فسدت وخسرت وان الأدب ربح من وراء ذلك أفلا ينهض لك العذر اذا قلت انه ينفح عن هذا الفساد ويسوغ هذه الخسارة ؟ ؟ نعم بلا ريب ، وانت تحس من كلامه الرضى والارتياح ، ومن الذى لايشعر بذلك حين يقرأ قوله فى عقب ما سقنا لك « وانما الذى يعنينا الآن ان نلاحظه ان هؤلاء الناس الذين وصفنا لك ما وصلوا اليه من شك فى كل شىء وعبث بكل شىء واسراف فى المجون واللهو كانوا يجتمعون ، ويجتمعون كثيراً اكثر مما كان يجتمع أسلافهم ، وكانت اجتماعاتهم ناعمة غضة فيها اللهو وفيها الترف . كانوا لا يجتمعون إلا على لذة ، إلا على كأس تدار أو اثم يقترف وكانت اللذة والآثام حديثهم اذا اجتمعوا ، يتحدثون فيها شعراً ونثرا ، وكان الدين واللغة والفلسفة حديثهم أيضاً ولم تكن اجتماعاتهم تخلو دائماً من النساء فقد كان

الاماء الظريفات يأخذن منها بنصيب عظيم وكانوا يجتمعون فى الحانات والأديرة وفى بيوت الامراء والوزراء وفى بيوتهم الخاصة فيلذون ويتحدثون فأنت تستطيع أن تتنبأ بمقدار ما كان لأحاديثهم هذه من أثر عظيم فى الأدب العـــربى والعقل العربي ، كانت هذه الأحاديث عذبة غير متكلفة ولا ثقيلة الروح . كانت تصـدر عنهم عفواً فتمثل عقولهم وشـــعورهم وقوة حرصهم على اللذات وشدة شغفهم بالجديد أحسن تمثيل » اهـ ص ٤٠

ثم مضى يورد سير أبى نواس ومن اليـه من مثل الوليد بن يزيد ومطيع ابن اياس وحماد عجرد والحسين بن الضحاك ووالبه ابن الحباب وأبان ومروان ابن أبى حفصـة ويقول فى بيان الحكمة فى ذلك انه لايريد أن يكتفي بالقول « بأن القرن الثانى للهجرة على كثرة من عاش فيه من الفقهاء والزهاد واصحاب الشك والمشغوفين بالجد انما كان عصر شك ومجون وعصر افتتان والحاد عن الأخلاق المألوفة والعادات الموروثة والدين أيضاً . . . وانما اريد ان اشخص حياة هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون تشخيصاً لايجعـــل الى الشك فيها سبيلا ثم أريد أن أبين ان هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون ، ان سخط عليهم نفر قليل من الفقهاء واصحاب الزهد فقد كان الناس جميعاً على اختـلاف طبقاتهم وأهوائهم ومنازعهـم يحبونهم ويميلون اليهم ويتفكهون بمـــا يوصفون به من ظرف وما يروى عنهم من هزل ومجون واذا كان هؤلاء الشعراء واصحابهم من حرية الرأى ومن الاسراف فى حب اللذة والتهالك عليها سراً وجهراً بهذا الحد . . . واذا كان الناس بهم معجبين وعنهم راضين ، اقول : اذا كان الأمر على هذا النحو فليس عندى شك فى ان هذا العصر الذى عاش فيه هؤلاء الشعراء وهؤلاء الناس الذين كانوا يعجبون بهم لم يكن عصر ايمان ويقين فى جملته وانما كان عصر شك واستخفاف وعصر مجون واستهتار باللذات » اهـ ص ١٨٤

وحسبنا هذه المقتطفات التى تعمدنا الاستكثار منها لينتفى كل شك فى ان الدكتور يلح فى اثبات مايذهب اليه وان هـــذا الرأى الذى عنّ له وعالج اثباته مستغرق لذهنه وانه يصرفه عن اجالة الفكر فى كل جانب آخر من جوانب الحياة فى ذلك العصر .

ولا يسمح لنا مانقصد الى تبيينه بمناقشة الدكتور فى رأيه لئلا يختلط الامر علينا وعلى القراء ونكتفى بملاحظة واحدة هى انه مامن عصر يمكن ان يكون له جانب واحد كما يريد ان يصور لنا العصر العباسى . وانه لم يخل زمن قديم او حديث من مثل مايصف الدكتور ، ولو ان كاتباً تناول عصرنا الحاضر لألفى مجال الكلام ذا سعة على نحو مافعل الدكتور ، ولكنه لايكون صادقاً ولا دقيقاً اذا ذهب يزعم ان حياتنا الحاضرة قائمة على الفسق والفجور والدعارة والاباحة والزندقة والالحاد من أجل ان الشعراء والكتاب وانا منهم ولا فخر - ذكروا الخمر وتغزلوا وتشببوا وان الناس يتفكهون فى مجالسهم ويرفهون عن نفوسهم بالتلهى والمجانة أحياناً وان ذلك يعجب الفارغين ويروقهم

وبعد ذلك نعود إلى ما كنا فيـــه وننتقل الى قصص الدكتور ، ولنبدأ بقوله عنها . فأنا أعترف بأنى لا أتخير هذه القصص عفواً وإنما أتخير منها بنوع خاص ما من شأنه أن يهز العاطفة ، ويلذ العقل ، أو يدعو إلى العناية والتفكير ، فليس فى الأمر مجال للتأول والتمحل والاحالة على الاتفاق والمصادفات فان العمد هنا معترف به . ومن العسير أن نلخص هذه القصص الكثيرة فى أسطر قليلة . هـذا مطلب لاسبيل إليه . وعلى أنها قصص متداولة ، فحسبنا أن نقول ، دون أن نخشى اعتراضاً ، أنه ما من قصة منها إلا وهى تنطوى على نوع أو أنواع من «الخيانات» أو مما يسميه الدكتور «الشر والنكر» . ويقول الدكتور أنه إنما كتبها ، وجمعها ،

ونشرها ،لأنه يريد أن يطلع قراء اللغة العربية ، على نحو من أنحاء الأدب الغربى ، ولأنه يرغب ، أن يكون بهذه القصص وما فيها من الآراء الفلسفية والمذاهب الفنية المختلفة أثر فى نفوس الأدباء والذين يعنون منهم بالتمثيل العربى خاصة يحملهم على أن يعنوا بهذا الفن الناشىء فى أدبنا عناية ترفع شأنه وتجعله خصباً مفيداً ،

وللقارىء أن يسأل : لماذا لم يؤثر الدكتور ، نحواً ، آخر من ، انحاء ، الأدب الغربى ، وليس هذا كل ما فيه ولا هو خيره ؟؟ لماذا عنى على وجه الخصوص بقصص الزناة والزوانى وبحكايات الجهاد — كما يقول هو — ، بين العواطف ، والشعور من جهة ، وبين العقل من جهة أخرى . بين العواطف والشعور الفردية من ناحية وبين القانون والأوضاع الاجتماعية من ناحية أخرى . بين العواطف وبين الواجب ، وبين العقل وبين الدين ، ثم بين القانون وبين الدين أيضاً . ؟ ؟

ألا ترى أن صنيعه فى اختيار هذه القصص كصنيعه فى اختيار من كتب عنهم من العباسيين ؟ ؟ فكما انه ترك أبا تمام والبحترى والشريف ومهياراً والمتنبى والمعرى من فحولة شعراء العرب وفضلائهم ووقع على أهل المجون والخلاعة والاستهتاك ، كذلك لم ينتق من كنوز الأدب الغربى إلا هذه القصص الحافلة بضروب ، الآثام والمنكرات ، حتى حين يلخص قصة دانمركية لا تكون هذه القصة إلا من هذا النوع .وهو يصف كل قصة يلخصها بأنها ، لذيذة ، وبأنها ، ممتعة ، وقد يعتذر لصاحبها بأنها ، ليست شيئاً اخترعه اختراعاً وإنما هى شىء طبعى يقع كثيراً ، ويسأل أحياناً كالذى يريد أن يسوّغ هذا الشر والمنكر ، من الذى يستطيع أن يوفق بين نفسه وبين واجبه حقاً ؟ ، يقرر طوراً أن الحب فى هذه القصة ، حب علماء ، ، ويهون عليك ما فى أخرى بأن واضعها ، إذا كان يمثل أشنع الرذائل وأقبحها ، وأبشع مظهر للطبيعة الانسانية ، فانه ، اذا بلغ بهذه الرذائل أقصى مايمكن أن يبلغ بها من الشدة والقبح استخلص منها الخير والفضيلة وأظهر

لك أن الانسان قد يكون شريراً ، وان حياته قد تمتلىء بالآثام والمنكرات . ولكن فى هذه الحياة أو فى هـــذه الطبيعة الانسانية قبساً من الخير ، لا تكاد تختصم الرذائل وخصال الشر حتى يتولد هذا القبس من اختصامها ، فما أسرع ما ينبعث منه ضوء هادىء مريح يبدد هذه الظلمات ويمحو هذه الآثام ، وإذا النفس الانسانية طاهرة قد فطرت على الطهر ، وخيّرة قد برئت على الخير ،

ونحسب الآن أن نزعة الدكتور قد صارت ملموسة باليد ، فهل لهـا تعليل ؟ هل فى وسع الكاتب منا أن يبين لماذا كان الأمر كذلك والحال على ما وصفنا للقرا. ؟ نعم .

والعلة ظاهرة والكلام حاضر .

(١)

ليس الأعمى كالبصير . هذه فيما نظن ، قضية مبرمة . ولسنا نعنى أن أحدهما دون الآخر أو أفضلُ منه ، فليس المقام مقام مفاضلة ، ولكننا نعنى أنهما مختلفان وهل يستوى أن يكون أو لا يكون للمرء فى وجهه عينان ؟ أليس لهذه الجارحة عمل يمتنع إذا تعطلت ؟ ألا يُحدث كف البصر تأثيراً فى مزاج الانسان وفى تفكيره واحساسه بالحياة والناس ، وغير ذلك مما لا يسعنا حصره ؟ نعم . وان الأمر لأوضح من أن يحتمل الخلاف . وسنتناول فى هذا المقال وجهاً من وجوه الاختلاف العديدة لعل ذلك يجلو ما أشرنا إليه فى الفصل السابق انجازاً لوعدنا واتماماً لكلامنا .

الغريزة النوعية من أقوى غرائز الانسان ، ومظهرها الحب ، كما هو معروف ، والحب — كما لا نحتاج أن نبين — هو أداة التنظيم الكبرى لحياة الناس ، والقوة الدافعة إلى تحسين النوع والحيلولة دون انحطاطه . وليس هنا محل الكلام فى الحب ولكن هنا موضع التنبيه إلى أن العين أداته الأولى ، والنظر حاسة «اجتماعية» ليس أعون منها على الاحساس بالجمال ومضاعفة هذا الاحساس وتقويته

ومن هنا عجب الناس لبشار بن برد كيف يعشق امرأة «معينة» وهو ضرير ، فسألوه فى ذلك ، أو أحسَّ هو ان الأمر يحتاج الى إيضاح وتفسير ، فذكره فى شعره . فكان مما قاله :

يا قوم اذنى لبعض الحىّ عاشقة والاذن تعشق قبل العين ، أحيانا »
قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم الاذن كالعين توفى القلب ما كانا

وقد أحسن الاحتياط فى قوله « أحياناً » فما تستطيع الأذن أن تقوم مقام العين أو تسد اختلالها ، ولقد صدق ابن الرومى حين قال :

هل العين بعـــد السمع تكفى مكانه أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى ؟؟

ولكل منهما عمل . وتأمل بيتىّ بشار اللذين سقناهما لك وانظر كيف روى عن الناس انهم قالوا له انه « يهذى » بمن لا يرى . وما أرى أصلح من هـذا اللفظ ولا أحق بهـذا الموضع . وهل هو إلا ضرب من الهذيان الصريح مهما أوّلته وكيفما خرجته ؟ ولقد احتاج أن يكرر الرد والاحتجاج لنفسه ،فقال :

وكاعب قالت لأترابها يا قوم ما أعجب هذا الضرير !
هل يعشق الانسان من لا يرى فقلت والدمع بعينى غزير
ان تكُ عينى لا ترى وجهها فانها قد صُوّرت فى الضمير

وما نشك فى أنها صورة ملتاثة ان صح أن من الممكن أن تتمثل لضمير الأعمى صورة ما ، أو يجاوز الأمر معه الاحساسَ العـام . وعلى أى شىء تراه يقيس ؟ ومن أى شىء يؤلف هذه الصورة ؟ وقوله :

ان سليمى ، والله يكلؤها كالسكر تزداده على السكر
بلغت عنها شكلاً فأعجبنى والسمع يكفيك غيبة البصر

وقوله :

عجبتْ فطمة من نعتى لهـا أيجيد النعت مكفوف البصر؟

وقوله :

يزهدنى فى حب عبدة معشر قلوبهم فيهـا مخالفـــة قلبى
فقلت دعوا قلبى وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب
وما تبصر العينان فى موضع الهوى ولا تسمع الأذنان إلا من القلب

ولأمر ما عالج هذا المعنى فى قصائد عدة ، ولم يجتزىء بالاشارة اليه مرة . والعين باب القلب ، كما يقول البحترى

وما كان حظ العين فى ذاك مذهبي ولكن رأيت العين باباً إلى القلب

والجمال منظر ، ومعان ، وتعبير . والعين أقدر من السمع واللمس على افادة الاستمتاع به . إذ كانت هى الطريق الأكبر للالتفات اليه والشعور به والاحاطة بمعانيه . ولأنها هى المعين على تأليف الصور الذهنية . وهى صور تتألف من أشتات أخرى علقت بالذاكرة وحصلت بالنظر . وبحسبك أن تقرأ قصيدة ابن الرومى فى وحيد المغنية وكان بها مشغوفاً :

غادة زانها من الغصن قد ومن الظبي مقلتان وجيد
وزهاها من فرعها ومن الخد ين ذاك السواد والتوريد
فهى برد بخدّها وسلام وهي للعاشقين جهد جهيد
مالما تصطليه من وجنتيها غير ترشاف ريقها تبريد
وغرير بحسنها قال صفها قلت : أمران ، بيّن ، وشديد
يسهل القول انها أحسن الأشيا ء ظراً ، ويصعب التحديد
تتجلى للناظرين اليها فشقىّ بحسنها وسعيد
ظبية تسكن القلوب وترعا ها وقمرية لها تغريد
تتغنى كأنها لا تغنى من سكون الاوصال وهى تجيد
لا تراها هناك تجحظ عينٌ لك منها ، ولا يدر وريد
من هدو وليس فيه انقطاع وسجو وما به تبليد
مد فى شأو صوتها نفسٌ كا ف كأنفاس عاشقيها مديد
وأرق الدلال والغنج منه وبراه الشجى فكاد يبيد
فتراه يموت طوراً ويحيا مستلذ بسيطه والنشيد

فيه وشيٌ وفيه حلى من النغم ... مصوغ يختال فيه الفصيد
طاب فوها وما ترجع فيه ... كل شيء لها بذاك شهيد
وحسان عرضن لى ، قلت مهلاً ... عن وحيد ، فحقها التوحيد
حسنها فى العيون حسن جديد ... فلها فى القلوب حب جديد
ونصيح يلومنى فى هواها ... ضل عنه التوفيق والتسديد
لو رأى من يلوم فيه لأضحى ... وهو لى المستريث والمستزيد
ضلة للفؤاد يحنو عليها ... وهي تزهو حياته وتكيد
سحرته بمقلتيها فأضحت ... عنده والذميم منها حميد
خلقت فتنة غناء وحسناً ... ما لها فيهما جميعاً نديد
فهى نعمى يميد منها كبير ... وهى بلوى يشيب منها وليد
لى حيث انصرفت منها رفيق ... من هواها ، وحيث حلت قعيد
عن يمينى وعن شمالى وقدا ... مى وخلفى فأين عنه أحيد
سد شيطانُ حبها كلَّ فج ... ان شيطان حبها لمريد
ليت شعرى اذا أدام اليها ... كرةَ الطرف مبدئٌ ومعيد
أهي شيء لا تسأم العين منه ... أم لها كل ساعة تجديد
بل هى العيش لا يزال متى استعر ... ض يملى غرائباً ويفيد
منظر ، مسمع ، معان من اللهو ، ... عتاد لما يحب عتيد : الخ الخ

وقد أطلنا الاقتباس لانا لا نعرف قصيدة أخرى فى لغة العرب — وقد كدنا نقول ، أو فى سواها من آداب الأمم الاخرى — هى أجمع من هذه لمعانى الحب والجمال ، ولأن ابن الرومى تناول فيها المرئىّ والمسموع ، ولقد يذكر الكفيف الغصن والظبي وما اليهما مما يشبه به شعراء العرب ، ولكن هذا منه لا يكون إلا تقليداً وعلى السماع وبمقدار ما اشربت نفسه من روح اللغة وأساليب التعبير فيها ، ومن

غير أن يكون ذلك صادراً عن صورة فى الضمير وأى صورة فى ظنك يمكن أن تكون قد حصلت فى نفس بشار وهو يقول :

وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا ؟

لاصورة على الاطلاق ! وكل ما هنالك مما دفعه الى هذا التشبيه هو نسيم الرياض المنعش للجسم المحيى للنفس . وقد يتناول المكفوف الصوتَ ووقعه ، ولكن الهيئة والشكل يفوتانه ، ولا يسعه أن يحضر بما يسمع ما يحضره البصير ويتمثله من الصور كما فعل ابن الرومى فى وصفه لغناء وحيد فقد تراه يتعلق بهيئتها وسكون أوصالها إذ تغنى واحتفاظها بجمال شكلها فلا عين تجحظ كالوارمة ولا وريد يدر ويمتلىء بالدم وينتفخ ويشوه شكل الجيد وانسجامه . وانظر كيف جعل لغنائها وشياً وحلياً ، مصوغاً ، لاساذجاً لم يعمل فيه الفن ، وجعل الشعر ، يختال ، فى هذا الحلى ، وكيف مثل لك فسحة الخلو وفراغ البال بالقياس الى ما صار اليه من أخذ الحب عليه بالاسداد ، وذلك بقوله ، سد شيطان حبها كل فج ، وكيف نبه الى ما يمليه النظر ويفيده من معانى الجمال بقوله ، ألها كل ساعة تجديد ؟ ، وتشبيهه اياها بالعيش الذى لايزال يعرض الغرائب

وما لنا نقول ان بشاراً اضطر أن يعلل عشقه للنساء بأعيانهن وتشبيبه بهن ؟ مابشار هذا ؟ انه ليس سوى فرد قد لايصح اتخاذه قاعدة ولكن تأمل أمثال الامم وأساطيرها فانها خلاصة صادقة لتجاريبها وغرائزها . ومن الأمثال التى نجدها فى كل لغة أن الحب أعمى . نعم . ولقد صور القدماء ، كوبيد ، معصوب العينين . وليس أحذق من هذا الطفل مع ذلك ولا أسد ساعداً ولا أحكم ، وكأنما أرادوا أن يقولوا انه لايرى مالا يحب بل أرادوا أن ينبهوا الى أن كوبيد هذا كله عيون ولولا ذلك ما عصبوها فلفتونا اليها ودلونا عليها . ولو شئنا لاجتزأنا بهذا من أساطير القدماء ، ولكن بنا حاجة الى أسطورة أخرى . تلك أن فينوس أو الزهرة كانت فى بادىء الأمر ربة الربيع وبساتين الزهر ، ثم جعلوها ربة الجمال . وفى

ذلك مالا يخفى من الشعور الباطنى بالعلاقة القوية بين الحب والطبيعة فى عيدها وفى خرافاتهم أن الزهرة هذه مخلوقة من زبد البحر ، ومن حقها أن تولد منه .. فياما أفطن القدماء وأهدى غرائزهم ! ذلك ان المحدود الذى يقاس طولاً وعرضاً لايروقنا ، ولايقع من نفوسنا كما يستولى على هوانا ويسحرنا ما تتدفق فيه الحياة . والجمال ليس شكلاً فحسب ، بل هو أيضاً تعبير ولحظة انتقال كأنما يريد الشكل المجتلى أن يتدفق فى أشكال أخرى ، وكل ثبات أو تكويم أو ركوز أو حصر مفسدة كما تحس ذلك من الأنف الضخم أو الظهر المحدودب . ومن هنا كان الانسان أجمل مافى الطبيعة . ومن الوجوه ما يموج فيه تعبير النفس أو حركة الفكر حتى لتكاد تتخطى العين معارفه وتخطئها ولا تراها !

وللعيون نصف الجمال ، وهى مدار السحر ومبعث الفتنة لأنها أنطق الجوارح وأقدرها على التعبير ، وليس من المصادفات أن ولع الشعراء بذكرها ورمزوا بها فى كثير من الأحيان الى الجمال وأطلقوا هذا الجزء على الكل ، كما ترى مثلاً من قول المتنبى :

عزيز أسى من داؤه الحدق النجل عياء به مات المحبون من قبل

فما يعنى الاحداق على وجه التخصيص ، وانما هو من قبيل ما ذكرنا . وليس فى وسع المكفوف أن يحس الجمال كما يحسه البصير أو يتأثر به مثله ، لأنه ليس محروماً من منظره وحده بل من أكثر معانيه كذلك ، ومما يتصل به عن قرب أو بعد ، ومن الطبيعة أيضاً . وقد حجب عنه كل ما يمكن أن يقيس به وأحر بأن لايكون عنده فرق يذكر بين النساء ، وأن تكون كل امرأة متسربة فى الجنس ، والاحساس بها احساساً جنسياً عاماً ، وأن تكون النساء كلهن كأنما أفرغن فى قالب عام ، وقيمهن واحدة من حيث التناسل ، وأن لا تثير الغريزة النوعية الا رغبة عامة فى الانثى . لاترتقى (أى الرغبة) الى درجة التميز ولا تبلغ أسمى

منازله لانعدام ما يعين عليه . وفى وسعنا أن نقول مع قليل من التجوز ان الفرق بين المكفوف والبصير من هذه الناحية، كالفرق بين الشعوب الساذجة التى لاتزال على الفطرة ، والشعوب التى ارتفعت عن هذا المستوى وصار التميز الفردى فيها حاداً أو بارزاً مؤكداً — تلك تكون الغريزة النوعية عندها عبارة عن رغبة عامة من الذكر فى الانثى ومن الانثى فى الذكر ، وهذه تتوخى التعيين والاختيار. وكذلك الكفيف تستوى عنده امرأة وامرأة ، وهو اذا اختار وميز لا يكون ذلك مرجعه إلا إلى أسباب لا نخطىء جداً اذا قلنا أنها سطحية أو عارضة بعد أن لم يبق له من الأدوات سوى السمع واللمس وما أقل غناءهما وأشد ضلالهما

٢

المرأة بين بشار وأبى العلاء

السمع واللمس — والشم أيضاً — كل ما للمكفوف من وسائط الاحساس بالجمال ، وهى ، كما بينا ، أقل من النظر غناء ، لأن العين هى الأداة الكبرى. وهى أنفس الجوارح وأوثق الحواس اتصالاً بالعقل حتى لترى أكثر المجازات فى هذا الباب مستمدة من حركاتها واحساساتها ، والعقل عنها أفهم وبها أقوى وأقدر ، وما يسع الكفيف أن يفهم الجمال أو يحسه أو يتأثر به كالبصير ، والمرأة عنده فى الأعم أنثى يصبو جسد الرجل إلى جسدها ، وأداة يرضى بها غريزته . وهو مهما بلغ من السمو يظل إحساسه بالمرأة أدنى إلى الطبيعة الحيوانية منه إلى المعانى النفسية . وسنورد لك أمثلة من شاعرين متباينين أشد التباين : بشار والمعرى . وكان أولهما حيواناً والثانى إنساناً ، وكان بشار إن فرغ من التشبب بالنساء ، أو على الأصح من وصف ما يشتاق اليه منهن ويطلبه عندهن من اللذات ، لم يفرغ من ذكر فحولته ، وتنزيه فهو أبداً حيوان حين يذكر نفسه وحين يذكر المرأة . فمن ذلك ما حكوه من أنه علق امرأة وراسلها يسألها أن تواصله فقالت لرسوله

« أو لك فىّ وأنت أعمى لا ترانى فتعرف حسنى ومقداره ، وأنت قبيح الوجه فلا حظ لى فيك ؟ فليت شعرى لأى شىء تطلب وصال مثلى ؟ » فأدى الرسول الرسالة . فقال بشار عد اليها فقل لها — ونحن نمسك عن إيراد الأبيات لفرط ما فيها من الفحش ، وحسب القارىء أن يعمل انه أهمل كل ما يمكن أن يتفاضل به الرجال ولم ينظر إلا إلى الجانب الحيوانى الصريح الذى يتساوى عنده الناس والبهائم ، وأخلق بالبهائم أن ترجح على الانسان من هذه الناحية ، وحتى حين يتخيل حبيبته ، لا يخرج بها عن دائرة الحواس ، ومن ذلك قوله فى عبدة

أعددت لى عتباً بحبكمو ... يا عبد طال بحبكم عتبى
ولقد تعرض لى خيالكمو ... فى القرط والخلخال والقلب
فشربت غير مباشر حرجاً ... برضاب أشنب بارد عذب

والمرأة عنده أنثى تُشتهى وتنال ولا تستعصى على الطالب

قاس الهموم تنل بها نجحاً ... والليل ، إن وراءه صبحا
لا يوئسنك من مخبأة ... قولٌ تغلظه وان جرحا
عسر النساء إلى مياسرة ... والصعب يمكن بعد ما جمحا

وهو القائل أيضاً :

لا أبالى من ضن عنى بوصل ... إن قضى الله منه لى يوم جود

وكان يعمل بما يعلم ، وحكايته مع أمامة مشهورة . قالوا كان يبعث بغلامه اليها فتتمنع فلما أضجرها بالحاحه عرفت زوجها ، فقال لها أجيبيه وعديه أن يجىء إلى هنا ، ففعلت وجاء بشار مع امرأة أنفذتها اليه فدخل وزوجها جالس وهو (بشار) لا يعلم فجعل بشار يحادثها ثم قال

امامة قد وصفت لنا بحسن ... وانا لا نراك فألمسينا

فأخذت يده ودفعتها الى زوجها ففزع بشار ووثب ؟ ! ومن قوله

قال ريم مرعث فاتن الطرف والنظر
لست والله مدركى قلت : أو يغلب القدر

وله رأى فى شعر النساء يوافق تصويره لهن قال : ما من شعر تقوله امرأة ألا وفيه سمة الخوثة : ولبشار حكاية ليس أنم منها على انحصار الاحساس بالمرأة فى الرغبة الحيوانية وانتفاء الاهتمام بما وراء ذلك والعجز عن ادراكه ، ولكننا مع الأسف لا نستطيع أن نسوقها لشناعتها فليبحث عنها من شاء فى أخباره المبعثرة أو فيما جمع له الأديب احمد افندى القرنى ونوجز فنقول ان بشاراً لم يكن ينظر إلا إلى الأنوثة فى المرأة والفحولة فى الرجل ، وانه لم يعرفها سوى متاع يجس ويشم ويستمع اليه

أما أبو العلاء فقد كان وقوراً ، محتشماً ، متشائماً ، رافضاً للحياة . مزدرياً للمرأة. وهى (أى المرأة) عنده لا تُضمن عفتها ، وأقل ما تجنيه ، التبرج . ومن الواجب أن يداريها الرجل الذى يعايشها ، ويسترضيها ، ويتقى غضبها ويراقبها ، فكثيراً ما تظهر الغيرة على بعلها وتسود عيشه من أجل ذلك بينما هى تسقى الخليل ريقها !

لعمرك ما غادرت مطلع هضبة من الفكر إلا وارتقيت هضابها
أقل الذى تجنى الغوانى تبرج يرى العين منها حليها وخضابها
فان أنت عاشرت الكعاب فصادها وحاول رضاها واحذرن غضابها
فكم بكرت تسقى الأمر حليلها من الغار ، إذ تسقى الخليل رضابها
وان حبال العيش ما علقت بها يد الحى إلا وهى تخشى انقضابها

ويحول سخطه على الحياة ، إليها ، ويصب نقمته على رأسها ، ويقلب ما يكبحه من اشتهاء نفسه لها ورغبة جسمه فيها ، فيجعله تهالكاً منها على اللذات واستهتاراً فى إرضاء الشهوات ، ويسلبها كل ما عدا ذلك ولا يراها إلا أداة نسل ، ومطية شهوة ، ذلول ، فهى عنده حية سامة

وإنما الخود فى مساربها كربة السم فى تسربها

وما فضل النساء ؟ ولاية غاية يطلبن الرجل ؟ أليس للنسل ؟

صحبنك فاستفدت بهن ولداً أصابك من أذاتك بالسمات
ومن رزق البنين فغير ناء بذلك عن نوائب مقتمات
فمن ثكل يهاب ومن عقوق وأرزاء يجئن مصممات
وان تعط الاناث فأى بؤس تبين فى وجوه مقسمات
يردن بعولة ويردن خلياً ويلقين الخطوب ملومات
ولسن بدافعات يوم حرب ولا فى غارة متغشمات
وقد يفقدن أزواجاً كراماً فيا للنسوة المتأيمات

وما النساء عنده إلا

فوارس فتنة أعلام غى لقينك بالأساور معلمات

ولا يغرنك عكوفهن على المصلى

وليس عكوفهن على المصلى أماناً من غوارر مجرمات

والمغزل أولى بهن من القلم

ولا تحمد حسانك ان توافت بأيد للسطور مقومات
فحمل مغازل النسوان أولى بهن من اليراع متلمات

وليكن أخذهن التلاوة عن عجوز مهتمة

ليأخذن التلاوة عن عجوز من اللائى فغرن مهتمات
يسبحن الملك بكل جنح ويركعن الضحى متأثمات
فما عيب على الفتيات لحن إذا قلن المراد مترجمات

وإذا احتاج الأمر لمعلم فينبغى أن لا تدنو الفتاة حتى ولا من رجل ضرير إلا أن يكون هرماً هماً مرتعش اليدين أبيض اللمة

ولا يدنين من رجل ضرير يلقنهن آيا محكمات
سوى من كان مرتعشاً يداه ولمته من المتثغمات

وخير للشيخ الفقير أن لا يتزوج متنعمة ، فأن الفقر والشيخوخة بابان إلى العظائم ، والشيب مغتفر مع الغنى إذا كانت ، قوى الرجل موفورة ، وفى زوجة واحدة كفاية .

ولا يتأهلن شيخ مقل بمعصرة من المتنعمات
فأن الفقر عيب ان أضيفت إليه السن جاء بمعظمات
ولكن عرس ذلك بنت دهر تجنبت الوجوه محممات
ويغتفر الغنى وخطاً برأس إذا كانت قواك مسلمات
وواحدة كفتك فلا تجاوز إلى أخرى تجىء بمؤلمات

ويختم هذه النصائح بأنها من خبير مجرب شفيق

فهذا قول مختبر شفيق ونصح للحياة وللممات

والرجال لا يؤتمنون على النساء

وأمن على المال الرجالَ ولا تأمنهمو أبداً على الخرد

وإذا بلغ الغلام العاشرة فاحجب النساء عنه ولا تدخله عليهن فأنهن حبال غى بهن يضيع الشرف

إذا بلغ الوليد لديك عشراً فلا يدخل على الحرم الوليد
فأن خالفتنى وأضعت نصحى فأنت ، وان رزقت حجى ، بليد
إلا أن النساء حبال غى بهن يضيع الشرف التليد

واضرب على المرأة فأن ارخاء العنان لها يغريها بركوب ما لا يحمد

شر على المرأة من حمامها ارسالك الفاضل من زمامها
ومشيها تضرب فى أكمامها تفوح ريا الطيب من أمامها

زائرة المسجد فى ألمامها تأتم ، والخيبة فى ائتمامها
بأجدل ما عف عن كمامها أعاذها الخالق من أمامها
وريقها الشروب فى صمامها سمام أفعى بان من سمامها
ان نزلت عصماء من سمامها فلا سقاها الطل من غمامها
إذا احتوى الريم على رمامها لزومها البيت مع اهتمامها
حتى يجيبها الوفد من حمامها وحملها المغزل فى اتمامها
أوفى بما تعقد من زمامها

وأخف ما وصفها به انها خيالات ولعبة .

وما الغوانى الغوادى فى ملاعبها إلا خيالات وقد أشبهت لعباً

وانتقل الآن من شعره إلى نثره ، ومن كلامه فى الدنيا وأوصابها ومتاعبها إلى تخيله للآخرة ونعيمها الخالص الخالد ، وتأمل وصفه للحور العين ، وهن على ضربين : ضرب خلقه الله فى الجنة لم يعرف غيرها ، وضرب نقله الله من الدار العاجلة لما عمل من الأعمال الصالحة . وهو يجعل ابن القارح يلتقى باثنتين من الضرب الثانى ، ويقبل على كل واحدة منهما يترشف رضابها فيهيجه ذلك إلى ما به ويقول ، ان امرء القيس لمسكين مسكين تحترق عظامه فى السعير وأنا أتمثل بقوله

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر
يعل به برد أنيابها إذا غرد الطائر المستحر

فتستغرق إحداهما ضحكاً فيقول مم تضحكين ؟ فتقول فرحاً بتفضل الله ! أتدرى من أنا ؟ . . . إنى كنت فى الدار العاجلة أعرف بحمدونة وأسكن فى باب العراق بحلب وأبى صاحب رحى وتزوجنى رجل يبيع السقط فطلقنى لرائحة كرهها من فىّ ، وكنت من أقبح نساء حلب فلما عرفت ذلك زهدت فى الدنيا

وتوفرت على العبادة وأكلت من مغزلى ومردنى فصيرنى ذلك الى ماترى ، وتقول الأخرى « اننى كنت توفيق السوداء التى كانت تخدم فى دار العلم ببغداد على زمان أبى منصور محمد أبى على الخازن وكنت أخرج الكتب إلى النساخ » . ودع مافى هذا الموقف من التهكم . واجعل بالك إلى اقباله الشديد على ترشف الرضاب وشرهه فى ذلك والى صرخته « ان امرء القيس لمسكين مسكين » وتكريره هذا اللفظ وما يشعرك به ذلك من تحرق الرجل الذى يكبح نفسه حتى إذا أمكنته الفرصة اندفع كالمنفجر . ولا تنس تعلقه بالرضاب ورائحة الفم واختصاصه ذلك بالذكر

أما الحور التى خلقها الله فى الجنة ولا تعرف الدنيا فتخرج لابن القارح من سفرجلة أو رمانة ، جارية « حوراء عيناء فيسجد لله اعظاماً ويخطر فى نفسه وهو ساجد ان تلك الجارية ، على حسنها ، ضاوية (نحيفة) فيرفع رأسه من السجود وقد صار من ورائها ردف يضاهى كثبان (تل) !! عالج فيُهال من قدرة الله ويقول « يارازق المشرقة سناها ومبلغ السائلة مناها والذى فعل ما أعجز وهال ، ودعا إلى الحلم الجهال ، أسألك أن تقصر بوص هذه الحورية » فيقال له أنت مخير فى تكوين هذه الحورية كما تشاء فيقتصر من ذلك على الارادة » وهنا أيضاً تهكم ولكنه مشوب بما لا يخلو من دلالة على التفات إلى الجسد والى مواضع معينة منه التفاتاً كان المعرى يزجر نفسه عنه فى حياته احتشاماً ونقمة

فهو يسيء بها الظن كبشار ، ولا يرى لها عفة يحفظها عليها دين أو تأديب ، ولا يعتدها إلا ملهاة وغواية ، ولا ينظر إلى ماوراء أنوثتها وخورها وضعفها ، وان كان مزاجه قد ذهب به مذهباً خلاف مذهب بشار ، والنظرتان متفقتان فى النهاية وصادرتان عن أصل واحد ، وان كانتا مرسلتين من نافذتين متباعدتين . وانك لتحس مرارة الحرمان وألم الاضطرار الى الكف عن التماس الملاذ ، فى شعر أبى

العلاء ، كما يطالعك من شعر بشار حيوانية التسور الى اللذائذ الحسية . وهو فرق أوجده اختلاف المزاج وتفاوت العقل . والعمى فى كلا الرجلين علة أولى . وقد كان ابو العلاء شديد الاحساس بعماه وانّ له لهذا البيت :

اذا مر أعمى فارحمـــوه وأيقنوا — وان لم تكفوا — ان كلـكم أعمى

وهو حسب المتأمل ولو لم يكن له غيره لكفى

كذلك الدكتور طه حسين لا يرى الدنيا فلا يعرف عن الجمال إلا انه أنثى يشتهيها الذكور ويصبو اليها الرجال ، وهو بطبعه مفراح وقد أقبلت عليه الدنيا ومالأه الحظ فلم يجد التشاؤم مرعى له فى نفسه ، ولكنه يؤثر الوقار ويميل إلى تقيّل المعرى والاقتباس به فيكبح نفسه ويردها على مكروهها غير أن مالا يظهر فى سلوكه الذى يتوخى فيه الاحتشام ، يظهر فى كتابته وفى التفاتات ذهنه كما بيّنا . فلا عجب اذا رأيناه كلفاً بتناول المجان وأهل الخلاعة من شعراء العرب وتلخيص القصص التى تدور على الخيانات وما اليها وتسـويغ ذلك والاعتذار له . حتى لكأنما يحاول أن يقول بلسان غيره ما تلج به الرغبة فى الكشف عنه والافضاء به من مكنونات نفسه

ليـــلة

بين الصحراء والمقابر

هى ليلة حالكة متراكبة الظلمة ، وفى الصدر ضيق ، فأين عن صحرائى أعداى؟ — صحرائى التى لا يلقط الطير فيها حباً ، ولا يجاوب فى خرابها قلب قلباً ، ولا يغيرها صيف ولا شتاء ، ولا يدوم عليها الا العفاء ؟ — كذلك كانت قديماً ، وكذلك أبقاها الله لى ! ولكم توهمتها وأنا أضرب فيها ، وأطوف فى فيافيها — وجهاً مستعاراً يبدو فيه « الوجه الأعظم » متقنعاً ! ولكم وقفت أدق رملها بقدمى وأخص فيه بعصاى وأدمدم كالذى يريد أن يرقيها بالعزائم ليشفيها من هذا السحر الذى ضُرب عليها وألزمها هذا المحل ! ولقد أعجب فى الليالى القمراء كيف لا تحسر وتنفض عنها هذه الرمال وتبرز للقمر الذى يناجيها ضوءه وينام على صدرها المتموج ، فى مثل وشى الرياض تنفح روحاً وريحاناً ، ويتداعى الطير على ايكها اعلاناً ، وتتهدل أغصانها فتسمو « وتمس الأرض أحياناً » ؟! ولكنى أتكلم كانما هي قد رزقت الحس والارادة !

* * *

وقالت الرمال لى وأنا أقتلع منها رجلى اقتلاعاً اذ أخبط فى الصحراء والريح تجذب أطراف الرداء : « بودى لو تماسكت حباتى ، وثبتت ذراتى ، ولانت مواطئ لقدميك ، ولكنى مثلك لا حيلة لى فيما قضى به ! »

وهتف بى هاتف من جانب سمائها التى عفت الظلمة آى الهدى منها :

« ليتنى أستطيع أن أسدد خطاك ، وأنير لك الطريق الذى تغوص فيه قدماك وأريك غايتك قبل مذهبك ، ولكن لنا آيينا (١) لا نملك خلافه ، وقانوناً لا نستطيع تأويله واعتسافه ، وما نحن وأنت إلا سواء ، وهل نراك تملك من أمرك كثيراً أو قليلاً ؟ »

قلت : « كلا ! »

وانجابت طبقة من الظلمات المخيمة على الصدر وخلصت أنفاسى قليلاً

* * *

وهبت الريح بى كالمجنونة ، فعدت وكأنى أمشى على ماء لجى يعلو ويهبط ، وسفت الرمال فى وجهى حيثما أدرته كأنما أرادت الحياة أن ترجمنى ، وتسابقت زمازمها الى أذنى فوقفت مكاني لا أريمه وأغمضت عينى وقلت لنفسى : ماذا يصنع العود النابت فى الخلاء هبت به مثل هذه الرياح الهوجاء ؟ يلين أو ينقصف ! فملت الى الأرض حتى سكنت الثورة وهدأت الفورة وجعلت أفكر فى هذه الحياة الغريبة التى يمتزج فيها الصراخ بالغناء ، ويختلط بها الألم والطرب ، وأقول لاشك أن الحياة عمياء صماء فليتها توهب البصر هنيهة لترى هذا الخليط من الحسن والقبح والخير والشر . ويا ليت من يدرى ماذا تصنع اذن ! أترى يثور بها الخجل فتعصف بكل شىء وتمحوه أم تأخذ فى إصلاحه وعلاجه فى صبر وأناة ؟ أما لو كنت أنا الحياة لتناولت ما أخرجت كفاى من طينة الأرض المحدودة ودككته وحطمته ثم ذروته لهذه الرياح !

فهمست فى أذنى الرياح : ما الحسن والقبح ؟ وما الحزن والسرور ؟ وما الخير والشر ؟ وما الاحساس والعقل ، والخصب والجدب ؟ والصحة والسقم ، واليأس والأمل ، والبكاء والضحك ؟ »

---

(١) الايين القانون

فرفعت رأسى حائراً وأدرت عينى واجماً ثم أطرقت مفحماً ثم نهضت أمشى ! ودلفت بى رجلاى الى المقابر فتخللتها الى جدث فيه شطر من ماضيّ ، وقعدت وأسندت ظهرى الى حجارته وأنا أقول لنفسى « الموت على الأقل راحة ، فليت الحادى يعجل بنا ! فقد سئمت الحياة وملت النظر الى وجهها الملطخ وثوبها المرقع . واشتقت أن أرقد هنا الى جانب . . . »

فخلص الىّ صوت من جانب القبر أن « لا ! »

قلت كيف لا ؟ واستدرت حتى واجهت أصواء القبر .

قال الصوت : لا على التحقيق ! ان لى هنا سنوات لا أعلم عددها ، ولعلها أقل مما توهمنى وحشة الوحدة التى تطيل أيامى التى صارت كلها ليالى ، أو لعلها كثيرة فما أدرى وقد حُجبت عنى الدنيا . ولو كان المرء يموت مرة واحدة لقلت لك صدقت . ولكنه يموت مرة كلما نسيه واحدٌ من الأحياء ! ويشتمل عليه الفناء شيئاً فشيئاً . وأنت — على الأقل — تذكرنى ، فأبقى بذكراك ، فلا تسلمنى الى العفاء بموتك . ولسنا نألم الرقاد هنا ، وان كانت ظهورنا توجعنا أحياناً من طوله ، ولكنما نألم فتور الذكرى عنا واشفاءنا على التلف الأخير ، وههنا فى قبرى — فى حجرة أخرى — جدٌّ أعلى لى ، مسكين مسكين قد استوفى ميتاته جميعاً ولم يبق منه شىء . وليت اذكاريه ينفعه ! اذن لرددتُ اليه بعض الوجود ولكن هيهات ! انما يجدى الذكر ممن فوقها دون من هم فى جوفها مثلنا »

قلت « ولكن اذا تعلقتُ بالحيـــاة فلا معدى عن إجابة دواعيها أفلا يسوءكِ ذلك ؟ »

قال الصوت : « كلا ! سيان عندى أن تنى لى ولا تنى ، ومن العبث أن تتكلف لى الحفاظ فانى بعد ان مت لا يسعنى أن أوليك الشكر الذى تستحقه أو تنتظره ،

ولا ألتفت الى وفائك أو غدرك ، وانى لأدرى فوق هذا ، انك لا تذكرنى لذاتى بل لما طابت به نفسك على عهدى ، فافعل ما بدالك ولا تعنّ نفسك بى من هذه الناحية ، ولكن أبق لى رقعةً صغـــيرة فى زاوية من ذاكرتك أُفيد بها عذوبةَ البقاء ،

قلت : فاذا نسيتك كغيرى ؟

قال الصوت : اذا نسيت ؟ آه ! ولكن مالنا وما لم يقع ؟ دع هذا الى أوانه ، وعسى أن يكون بعيداً !

قلت : حسن سأحيا من أجلك ، وأتقى المهالك اكراماً لك وضناً بك أن تلحق الأموات جداً !

قال الصوت : اتفقنا . فالى الملتقى !

فسرت فى جسدى رعدة خفيفة لم يسرنى أن تقول « الى الملتقى » ! ونهضت عن القبر ممتلئاً رغبة فى الحياة ، وضناً بها وحرصاً عليها ، وعدت أدراجى الى دارى خفيفاً كأنما حططت عن كاهلى وقراً . وجعلت أقول فى الطريق : « نعم سأحيا من أجلها ! »

ولما أدرت المفتاح فى الباب همس فى اذنى الشيطان اللعين « تقول من أجل من ؟ ؟ » وقهقه ! ! فغاظنى ذلك فأشحت بوجهى وأسرعت فدخلت وأغلقت الباب فى وجهه ! ! ثم صنعت هذه الأبيات وألقيتها اليه من النافذة

* * *

﴿ هاتف من جانب القبر ﴾

جمالَك ! لا تأسف على ولا تأسى ... فانى تحت الأرض لا أحفل الحبسا
طوانى الردى عن ناظريك فجاءة ... وما كان ظنى قط أن أسكن الرمسا

أرانى الصبى ، شمسى ، بعيداً مغيبُها ... فسرعان ما ولى النهارُ وما أمسى !
وكنت سرور العين والأنف والحشى ... فقد صرتُ أوذى العين والأنف والنفسا
فدع عنك ذكرى انه ليس نافعى ... وسيان عندى أن تنى لىَ أو تنسى
ولا تتجشم لى الحفاظَ فاننى ... وقدمت ، لا أوليك شكراً ولا حسا
وأدخل إليك الشمسَ من كل كوة ... فما يتملى العيشَ من يحجب الشمسا
ستسليك عنى كلُّ زهراء ناهد ... وان بقيت ذكراى تهمس بى همسا
فما أنت بالباكى علىّ وانما ... على فقدِ ماقد كنتَ طبتَ به نفسا !

من رأى أفلاطون ، فيما وضع على لسان أستاذه سقراط ، ان الحكاية تنشىء العادة . قال « أو لم تشاهد أن الحكاية ، سواء أكانت تقليداً للحركات البدنية أو نبرات الأصوات أو أساليب التفكير ، إذا واظب عليها المرء منذ الحداثة ، تحور عادة وطبيعة ثانية ؟ »

وكانت أدوار النساء فى ذلك العصر يؤديها الرجال فعاب سقراط ذلك وزجر الشبان الشرفاء عن « محاكاة » المرأة ، فتاة كانت أو عجوزاً وسواء أكانت تتنقص رجلاً أم تتمرد على الآلهة أو تكابد المصائب والآلام والأوجاع . وهم (أى الشبان) أحق بأن يُردعوا عن تقليد امرأة تعانى مرضاً أو حباً أو وضعاً »

وأما أدوار الرجال فليس يجوز فى رأى سقراط لممثلها تقليد الأرقاء أو الجبناء أو غيرهم من الناس « حين يشتم بعضهم بعضاً أو يركبه بالمجون أو حين ينطقون بالبذاء والفحش أو يقترفون من المعايب فيما بينهم أو ضد غيرهم ما اعتاده أمثالهم بالقول أو بالفعل . ومن رأيى أيضاً أنه لا ينبغى لنا أن نعودهم أن يحاكوا المجانين فى كلامهم أو أفعالهم لأنه إذا كان من الصواب ألا تنقصهم الدراية بالمجانين والأشرار من الرجال والنساء فليس من الرأى أن يقتدوا بهم أو يقلدوهم »

* * *

هذه خلاصة وجيزة لرأى سقراط ، أو أفلاطون تلميذه على الأصح ، فيما

تجوز وما لا تجوز محاكاته ، وما يحسن أن ينهى الشبان عن تمثيله ويزجروا عن تقليده ، والعلاج عنده أن تكون الرواية مزيجاً من التمثيل والقصص ، وأن يقتصر التمثيل على الأدوار التى تنطوى على النبل والسمو وما هو من ذلك بسبيل ، ويذهب القصص بالأدوار الوضيعة ، وواضح من ذلك أنه يرى أن لتمثيل الدور مرة بعد أخرى أثراً فى نفس من يؤديه . وليس يعنينا هنا علاجه الذى وصف ليصون للجماعة فضائل نفوسها وليوقيها أسواء التمثيل مع استبقاء ما يسعه استبقاؤه من مزاياه المستفادة من الحكاية ومن الشعر فيه ، فانها طريقة للتوفيق لا سبيل إليها فى هذا العصر الذى لا شك أن نطاق التعاطف الانسانى فيه أوسع وأرحب منه فى عصر أفلاطون ولقد كانت عناية أفلاطون بتربية ما نسميه الآن (السوبرمان) ومن أجل هذا كان يجب أن يوقيه ما يخشى أن يفسد عليه صورته التى رسمها له فى خاطره . وما عن قلة اجلال لافلاطون أن نعجب (لسوبرمان) لا يخرج إلى الدنيا إلا فى مثل صوب النبات أو فى بيوت من الزجاج ترد عنه عادية الرياح والقر والأمطار !! وماذا عسى أن يبلغ من مناعته ومن الجلد والقدرة على احتمال الحياة ومغالبة صروفها وفتنها وبوائقها

* * *

وما لهذا نكتب . وإنما الذى نريد أن نقوله هو أنه لا يخالجنا شك فى أن للتمثيل أثره القوى فى نفوس أهله رجالاً كانوا أو نساءً ، ومعلوم انه ليس كل ممثل بصالح لكل دور ، وأن بعض الأدوار هى فى أيدى بعض الممثلين أنجح ، ونحسب أن مما هو فى حكم البديهى أن الصفات البدنية وحدها — من طول أو قصر ، وضآلة أو جسامة ، ووسامة أو دمامة وسائر ما يجرى هذا المجرى مما يتعلق بالصوت والنظر — ليست كل ما يتطلبه أداء الأدوار المختلفة ، بل ان القدرة على استعارة الشخصية الروائية وافراغها على النفس والجسم ، تستدعى

استعداداً وتحتاج الى وجود مقدار من التناسب ودرجة من التطابق .) وليس معنى ذلك أن دور الخسيس لا يجيد أداءه إلا الخسيس من الناس بطبعه وفطرته ولكن معناه أن أصلح الممثلين له أقدرهم على فهمه وعلى الاحاطة بجوانبه وعلى سهولة التسرب فيه .) ومن هنا يسعك أن تقول انه ما من ضرب من التمثيل يوفق المرء فى أدائه إلا وثم مقدار من التقارب بين هذا الضرب وبين لابسه .

* * *

وما أظن بالممثلين الذين قد يطلعون على هذا الفصل الا أن بعضهم سيحمى من ذلك أنفه وينزو فى رأسه الغضب على والمقت لي ، وما أحب أن يسوء أحداً كلام لي فى هزل أو جد ، ولكن من العسير على أن أصدق ان امرءاً يحسن مالم يركب فى طبعه ذرة من الاستعداد له ، وقد يعزى هؤلاء ويكسر سورة غضبهم أن أقول لهم ان الناس فى الاستعداد للخير والشر متقاربون على كثرة مايتفاوتون واننا جميعاً من طينة الأرض ، وأين عن طينتنا نعدى ؟ ، كما يتساءل ابن الرومى ، ان كان مثل هذا الهراء البديهي يعزى نفساً أو يطفىء غضباً !

كذلك من العسير أن أصدق أن يظل الممثل يستعير نوعاً من الشخصيات معيناً وأن يفعل ذلك شهراً بعد شهر وعاماً فى أثر عام وأن يخرج بعد ذلك كما دخل . وألا يكون من آثار ذلك توكيد بعض الخصائص فيه أو بروز بعض السمات ، عرفت فيمن عرفت من الممثلين المرحوم احمد فهيم افندى وكان ذلك فى أخريات أيامه فلفتنى فيه من صوته وهيئته اذ يمشى أو يقف أو يلتفت أو يحدق ببصره مشابه مما يؤدى على المسرح من أدوار الملوك والنصحاء الأمناء المخلصين ومن الى هؤلاء . وكثيراً ما تمنيت لو أنى كنت عرفته - رحمة الله عليه - قبل أن يبلغ أثر التمثيل فيه هذا المبلغ . وعلى ان من التعسف أن يلجئنا ما نقدر

أن يلقانا به بعض القراء من انكار الدهشة — لا التفكير — الى سوق الأمثلة الفردية وهى مما لايدخل فى الطول أن يسوق الكاتب منها الكفاية

وبحسبنا وبحسب القراء أن نرتد جميعاً الى الأصل ، وهو « الايحاء » ولا يتسع المقام هنا للاسهاب فى بيان وقع النفس فى النفس ولكننا ، إيضاحاً لغرضنا نقول ، ان كل حركة باعثها الارادة وان الارادة تفضى ببواعثها على الحركة الى الجهود المدركة للفكر أو لغير المدركة من الجانب الاحساسى . فاذا كان مصدر هذه الجهود التى تغرى الارادة بالنشاط ليس ذهن الفرد نفسه بل ذهن أجنبى عنه وبعبارة أخرى اذا صارت ارادة المرء طوع رأى سواه أو عاطفته فان ما يصدر عن أولها يكون موحى به اليه ، وقد فسر نورداو هذا الاعداء فى فصل طويل ممتع سبق به كلّ علماء النفس ويلخص رأيه أو نظريته فى أن « الايحاء هو نقل الحركات الذرية من ذهن الى ذهن على النحو الذى تنتقل به اختلاجات سلك الى سلك غيره بجواره ، أو كما يفضى قضيب الحديد المحمى الى آخر بارد بحركات ذراته ولما كانت كل الآراء والخواطر تنطوى على حركات لذرات الذهن فان مما يستتبعه نقل حركات الذرات أن تنتقل الآراء والخواطر معها »

وأظهر مايكون ذلك فى التنويم المغناطيسى . فان المنوِّم يستطيع مثلاً أن يقول للنائم « غداً صباحاً فى الساعة الثامنة ستمضى الى منزل فلان بشارع كذا وتضربه بسكين مطبخ تحملها معك » وهو مثل متطرف ضربه نورداو لمثل ماصحت التجربة فيه . قال : « ثم يفيق المنوَّم ويمضى الى سبيله وهو لا يعى شيئاً مما جرى حوله فى نومه ، وقد لا تكون له معرفة مابفلان هذا ، ولعله أيضاً لم يمش قط بشارع كذا ، وعسى أن لا يكون قد آذى فى حياته ذبابة . ولكنه فى صباح اليوم التالى يتناول سكين المطبخ — وقد يسرقها إذا كان لا بد من ذلك للحصول عليها — ويذهب إلى شارع كذا ويقرع باب فلان هذا فى الساعة الثامنة تماماً ويوشك أن يضربه لولا أن فلاناً يكون قد أنذر من قبل بالتجربة وأحيط بها خبراً فاتخذ لها ماينبغى من الحيطة »

وقد قلنا أن هـذا مثل فيه شيء من التطرف لأن الثابت أن الايحاء لا يبلغ هـذا المبلغ من القوة إلا فى المرضى دون الأصحاء ، وفى الضعفاء دون الأقوياء . وواضح من هـــذا المثل أنه لكى يتخذ الذهن لنفسه حركات ذهن آخر ويعدى بآرائه وعواطفه وبواعث إرادته يجب ألا يكون هو مجالاً لحركات من ضرب آخر قوية أو أقوى من تلك التى يراد نقلها والاعداء بهـا وبعبارة أخرى ينبغى ألا يكون مجداً فى التفكير ومثال ذلك السلك المهتز الذى أشار إليـه نورداو ، لا يثير فى سلك آخر مثل اهتزازاته إلا إذا كان هـذا الآخر ساكناً أو ضعيف الاختلاجات . فعلى قدر ضعف الذهن يكون تأثره بحركات ذهن غيره . وعلى قدر قوته ونشاطه تكون مقاومته . على أن حركات أذهان عدة — ولو كانت ضعيفة — إذا اجتمعت وتجاوبت باحساس واحد قد تكون أقوي من حركات ذهن واحد قوى ، ومن هنا كان تأثير الجماعة المحتشدة فى الفرد وحملها إياه على تيارها على الرغم من مغالبته لفعلها فى نفسه ، ومن هنا أيضاً تكون ضيعة العقول القوية فى المجالس النيابية وأشباهها إذا زخرت نفوس الأكثرية بعباب إحساس واحد أو متقارب

والتمثيل حين ترجعه إلى الأصل ، استيحاء لمـا يدل عليه الكلام ، وقوامه إخلاء الذهن ممـا يشغله فى العادة واحلال الحالة النفسية التى يراد استعارتها محله أو بعبارة أخرى إنامة العواطف والخوالج والآراء الشخصية على قدر ما يستطيع المرء أن يفعل ذلك والاعتياض منها آراء وعواطف وخوالج أخرى ، وتمكين هذه المستعارات من استغراق النفس باخلاء المجال لهـا ، وهـذه أصلح الحالات النفسية للايحاء ، وهى قريبة شبه بحالة النائم نوماً مغناطيسياً حين يكون الجهاز العصبى بحيث لا تؤدى ذرات الذهن من الحركات إلا أضعفها وحين تكون من أجل ذلك غير مستقرة التوازن فيسهل بأيسر باعث دفعُها إلى حركة يعينها نوع

الباعث وقوته . فالممثل الذى يؤدى الدور مرة بعد أخرى يقع تحت تأثير الشخصية التى يستعيرها بضع ساعات كل ليلة ويكون استعداده لتقبل الايحاء منها أقوى على التكرار كما يكون النائم أشد خضوعاً وأعظم طواعية فى يد منومه على الاعادة

وليس من الضرورى أن يكون المرء أخبر الناس بنفسه وأقلهم خديعة فى أمرها ولولا ذلك لكان الممثلون أنفسهم أقدر على بيان الأثر الذى تخلفه أدوارهم التى يؤدونها وأعرف بمداه . ولكن المرء أسرع فى العادة إلى إنكار الايحاء لتوهمه فى أول الخاطر ان الاقرار به يغض منه وإن كان متبادلاً شائعاً وكان فعله ظاهراً فى التوافه والصغائر ظهوره فى الأمور الجسيمة ! وكيف تفسر عدوى التؤباء وكون كثرة المؤاكلين أشحذ لشهوة الطعام ، وما إلى ذلك إذا لم تفسره بالايحاء

من أمتع ما مر بى فى هذه الحياة ، التى لا أراها ممتعة ولا أحب أن تطول أو تتكرر ، ليلة قضيتها بين شراب وسماع . فأما الشراب فلعل القارىء أدرى به وأخبر ! وأما السماع فقلّ من شجى به كما شجيت فى ليلتى تلك ! إيْ والله ! وما زلت إلى الساعة ، كلما خلوت بنفسى ، أغمض عينى وأتسمع وأحاول أن أبتعث ذلك الصوت البديع الذى هاجنى إلى ما بى كما لم يهجنى صوت سواه ! وقد أَعْجَبُ لما يُصَبُّ فى الأذن أين يذهب ؟ وربما أثارنى هذا العجز عن إحياء صوت بأكثر من تصوره فى ضمير الفؤاد ، وقد أغالى فى إكبار هذه الثروة الصوتية وأتمنى لو رزقت شيئاً منها بكل مالى — لو أن لى شيئاً ! — ثم أعود فأسخر من نفسى وأضحك من أمنية يستخفنى الى انشائها الطرب العارض . ثم أسخر من سخرى وأقول لنفسى فى حدة « أوَ لا يسر الاسكندرَ وقيصرَ وسليمانَ أن ينزلوا لمثلى عن نصف ما أحرزوا من مجد لو أنه وسعنى أن أخول كلاً منهم مما أضفى الله علىّ من الحياة على ما فيها ، ليلةً واحدة كهذه التى نعمت فيها ؟ ؟ » نعم ! ولكنهم قد شملهم ظلام أوركوس على حين أحيا وأطرب ! وما أدرانى أنهم نعموا بمثل هذا الصوت ؟ ؟ أمن أجل أنهم كانوا ملوكاً أو أقوى وكان لهم سلطان وبأس وبطش ، يلزم أن يكونوا قد سعدوا بغناء كهذا ، يخف منه حليم

« راجح حلمه ، ويُغْوِي رشيد » ؟ ؟

* * *

وكانت السماء قد جاد الأرض منها هاضبٌ ثم أقلعت وصفا الجو ورق النسيم. فنهضنا إلى مائدة مدت تحت أعين النجوم المتلاحة، ودرنا عليها نأكل ونشرب ما لا يحسب الحاسب. وأرسل كل منا نفسه على سجيتها وورد من صاحبه « غيرَ المكدر المطروق » وانبسط اليه غير باخس واجباً، ثم أخذنا مجالسنا للسماع وآذاننا العود « بالاحسان إيذان صادق الخبر » وأطفنا ببكر من الألحان لم يُفضَّ لها خاتم من قبل ، ثم رضينا من منظر بمسمع وانطفأ النور ، وهفت إلى أسماعنا الأنغام من وراء ستور الظلام

واهاً لذاك الغناء من طبق ... على جميع القلوب مقتدر (١)
يملأ روحاً فؤاد سامعه ... ويصطلى حره من القرر
كأنه قالب لكل هوى ... فكله والمنى على قدر
لا خير فى غيره ، وهل أَمَمٌ ... من شارب الراح شارب السكر؟

وكأنى لم أكن أسمع بل أُسقَى من رحيق الجنان ، وكأنه لم يكن غناء مصوغاً من شجى القلوب بل من شعاع العقول ، فلم تطر قلوبنا وحدها بل لحقت بها عقولنا ، ومضى الصوت على دلّه بتوحده يجيش نفوسنا ويعصف بسكونها ويزخر أمواجها ويستثير كوامنها ويرسم على الوجوه آثارها ، وغبت عن حاضرى برهة كَرَرْتُ فيها — ولا أدرى كيف ؟ الى لحظة من الماضى المغيَّب الذى استقر فى زاوية مظلمة من الذاكرة ، فأبصرتنى واقفاً مرة أخرى استودع الله لى أحب الناس إلىّ وأعزهم علىّ وقد امتدت الكفان وتضاغتا عن أحنى عاطفة وأوجع احساس، وتدانى الوجهان ، واختلجت الشفاه وهمت بالتلاقى فى قبلة حارة طويلة ، ثم

---

(١) الابيات لابن الرومى

تباعدت فى فزع كأنما كانت ترقبنا عين ، ولا رقيب هناك ، وثبت انسان العين بعد أن حُرمناها قبلة فيها برد العاطفة المضطرمة ، وازدجرت عنها الشفاه ازدجاراً أضاف الى ألم الحرمان سخر القدر !

وتشبثت هذه الصورة بالارتسام امام عينى وأنا أصغى إلى ذلك الغناء الساحر الذى يسمو الى السامعيه مبارزاً ويستكبر أن يعتصم بمساعد فيخفت حتى العود ، ويأبى أن يضاعف تأثيره بالنظر فيضوى حسن الوجه الى الظلام !

وهكذا أمتعنا "عبد الوهاب" بغبطته فى ليلة كانت كلها سحراً . وردنى بعدها بغير ذى أذن الى كل نغمة من سواه ، وغير ذى صَور إلا إلى فتنة من هوى فنّه وشجاه ، ولولا أن يعد ذلك جحوداً ولؤماً لتجاوزت عن ذكر اسمه فانه أحلى عندى وأوقع فى نفسى أن أجرد غناءه من صورته الآدمية على حسنها النرجسى ، وأن أتصوره أبداً هوى سابحاً وروحاً هائماً وصوتاً هافياً يُشرب بالأذن صرفاً ولا تُشغل العين بمونق زهره ، ويستريح الفؤاد الى نسيمه ويتخلى من الشجى بحب مجتهره ، ويأنس الصدر الى هديله ، وينجو بالقلب من حوره . فعسير على طين ابن آدم أن يُجشم احتمال الفتنتين جميعاً .

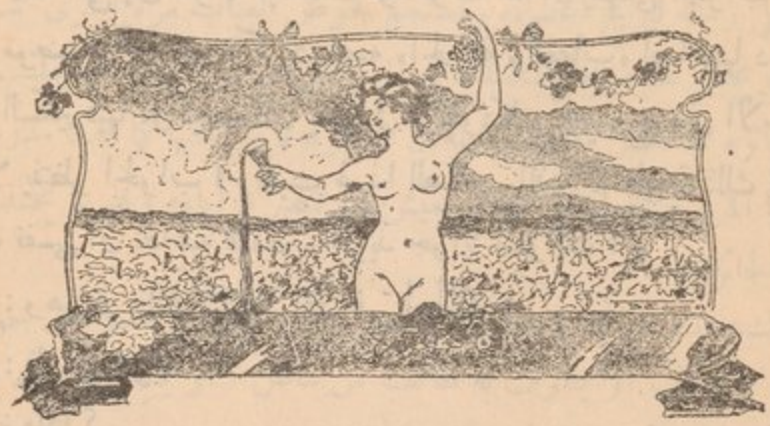

زارنى مرة رجل كالعصفور ! ولست أعنى أنه صغير فى رأى العين أو العقل ، ولكننا أعنى أنه فى حديثه كالفزع ، لا يكاد يواقع موضوعاً حتى يتركه الى غيره ويثب عنه الى سواه ، . . وسألنى فجأة ، وبلا مناسبة تقتضى ذلك : « ماهو أحسن تعريف للكاتب ؟ » ومن عادتى حين أجالسه أن أنظر الى شفتيه دون سائر وجهه ، وما رأيته قط يهم أن يدير لسانه فى فجرة فمه الا توقعت أن يبدهنى بجديد ، ففى مجلسه امتاع التنقل ، وفى حديثه لذة المفاجأة . ولكنه يتعب الجليس بما يكلفه من الجهد فى التماس الصلة التى فى ذهنه بين المسائل التى ليس بينها ، فى الظاهر ، أوهى علاقة . . فلما ألقى إلى سؤاله ابتسمت ودعوت الله أن يلهمنى الجواب قبل أن يطير الى موضوع آخر ! وذكرت قصة « الجريمة والعقاب » لصاحبها دستيوفسكى ووصف السكير فيها ، وكيف كان يعب فى « القودكا » ثم يروح ينثر الأسئلة شمالاً ويميناً ولا ينتظر الجواب ! وعجبت لهذا الصاحى الذى له طبيعة ذلك السكران ! واشتاقت نفسى أن أداعبه فقلت « أتريد جواباً لسؤالك ؟ »

قال : وهل فى ذلك شك ؟ إذن فيمَ أسألك ؟

قلت : فان لى شرطاً . .

قال : ماذا ؟

قلت : أن لا تطالبنى بايضاح .

فأطرق قليلا ثم رفع الى وجهاً كالدرهم المسيح ، ونظر إلي بعينين مظلمتين كالكهفين وقال بلهجة المستسلم الى قضاء الله وقدَره « قبلت . . »

فقلت ، وتكلفت الصمت والوقار والجد ، وزويت مابين عيني ، وغرزت عنق بين كتفي ، كأنما أوشك أن أفضي اليه بخبر ضخم ، أو أنطق بحكم ، : الكاتب ، ياسيدى ، هو الذى لايكون وحده حين يكونّ وحده » ! !

فملق مبهوتاً ، ثم هز رأسه يمنة ويسرة ، ونهض عن كرسيه ومد إلي يده في صمت ، ومضى عني حاسباً أني أسخر منه ! وقد انقضت سنوات طويلات ، ولكن صاحبنا لا يلقاني بعدها الا صامتاً ، ولا يناولني يده الا مطرقاً ، ولا يغتفر لي هذه الدعابة الخفيفة التي ركبته بها قديماً !

كان هذا منذ سنين كما قلت ، ولا أدرى ماذا أذكرنيه الآن . غير أني لا أرى اليوم فيما قلت له حينئذ شيئاً من الهزل ولا أعدّ كلمتي تلك التي أسخطته الا جداً صرفاً ، وان لم أكن أعني ما أعني الآن ، فقد صارت الدنيا في نظري مدرسة حقيقية ، سوى انها سخيفة ! يتلقى المرء دروسه فيها حين يكون بين الناس سابحاً معهم على متن الحياة يصارع أمواجها ويغالب أثباجها ، حتى اذا كرّ الى الشاطىء وارتمى على رماله ليريح أعضاءه ويستجم لخوض العباب مرة أخرى شرع يفكر فيما لقيه ، ويجيل نظره فيه كالتلميذ ، بعد اذ ينصرف عن المدرسة ، يقلّب صفحات كتبه ودفاتره ليستظهر مافيها ويثبته في ذاكرته ، ولكنها كما قلت مدرسة سخيفة يقضي فيها المرء حياته ليتعلم كيف يعيش ، وتتصرّم أيامه وهو لم يحذق الدرس ولم يفز بالجائزة !

ولا شك عندي في أنه لاخير فيمن يحس ، حين يكون وحده ، أن حوله فراغاً . ألا يهتف به هاتف أو يطوف به طائف من ماض ؟ أو ينجم في سماء نفسه نجم من أمل أو فكرة أو خاطر أو خيال ؟ ؟ انه إذن ليس سوى طفل كبير ، كل حيويته في أعضائه . فلندعه يبحث عن ترب له يلاعبه !

كان « بيكون » رحمه الله ، أو صنع به ما شاء ، يقول « ان بعض العقول ملائم لما يمكن إرساله دفعة واحدة أو فى زمن وجيز ، والبعض يخلق مناسباً لما يبدأ بعيداً ولا يُنال الا بالسعى الطويل » والطراز الأول هو طراز المحدثين والخطباء ، والثانى نمط الكتاب . ولقد سمعت فى حياتى خطباء كثيرين لا يزال بعضهم ينعم بالحياة وبحنجرته ، ولكن أقوالهم وأعلامهم لساناً وأبلغهم تأثيراً كان كالطبول التى قالت القردة عنها فيما روى ابن المقنع فى كليلة ودمنة « لعل أفشل الأشياء أضخمها صوتاً » ، وكان يخيل لي إذ أسمعه يخطب الجماهير كأن فى وجهه زوبعة ثائرة أو بركاناً فائراً ، وكأنه حين كان ينهض ليتكلم « بلاس » الذى حدثتنا الأساطير أنه خرج من رأس « جوبيتر » شاكياً مستعداً تام السلاح . وكان كلما مضى فى كلامه يعلو ويبهر كالنار المندلعة ، ويمنع السامعين ، لا بالحجة والبرهان ، بل بقوة انتفاء شكه فى نفسه ، وكان يجزم ولا يتردد ، ويبت ولا يتلعثم ، ويقرر ولا يناقش ، ويعد ما شاء أقضية مفروغاً منها ومسلماً بها ، وينزع المقاومة بكلمة أو نظرة أو ايماءة أو ابتسامة أو دقّة على المنضدة ، وكانما كانت لألفاظه وهو يطلقها أظافر وأنياب حداد تمزق الظلم الذى قام متمرداً عليه وتبعثر أشلاءه للوحوش والكلاب ، واذا ذكر بلاده وفجائعها خلته « أنطونيوس » واقفاً على جثة « قيصر » ليدفع حجارة رومية الى الثورة والانتقاض ، وكانت عينه تلتمع بنور الوطنيـــة ، وصدره يعلو ويهبط جائشاً بالعواطف العامة كالعباب الزاخر . . . . ثم كنت أتلو خطبته فى المساء أو الصباح فأعجب لتفهها وفراغها وخلوها من كل روعة أو جمال ، وأكاد أقول انها غير ماسمعت أذناى منه . لانها ليست سوى الرماد الذى صارت اليه النار التى كانت تزغرد فى مسمعي ، ولأن الاشارات المقوية ليست هنا ، ولا الصوت الفاتن الذى يسحر المرء عن نفسه ، ولا النظرات الموحية ، ولا الوقفة الناطقة ولا الجماعة المتعاطفة المعدية

ولعل أقوى الخطباء فعلاً فى نفوس الجماهير وأبلغهم تأثيراً لا يكون الا أشبههم بها وأقربهم اليها وأقدرهم لذلك على النزول الى مستواها . وليس فى وسع الخطيب اذا شاء أن يبلغ من السامعين مايشتهي ، أن يجاوز السطوح أو يهوي الى الاعماق ويطلب الاغوار ، والا جاوز محيطهم وحلق فوقهم وغاب عن نظرهم فلم يلحقوا به . تأمل ماتظنه أقوى خطبة سمعتها وقل لي من أى شيء تراها مبنية؟ أليس قوامها الألفاظ المبتذلة والعبارات المذالة،وما ألفت الجماهير أن تسمع وتتأثر به وتنفعل له ؟ وهذه المبتذلات أفعل بألباب الجماهير لأنها لا تكلفهم مشقة ولا تدعهم حيارى،ولا تتركهم فاغرين أفواههم كالبلهاء ، ولا يحول دون وقوعها فى نفوسهم حائل من تعويص أو عمق أو دقة أو سمو خيال أو لطف تصور ، ولأنها تحرك المزاج العام وتشبّه ولا تصدمه ، ومن هنا لم تكن بالخطيب حاجة الى العمق أو الابتكار ، وكلما كان أدنى الى طبقة الأوساط العاديين كان هذا خيراً له ولهم وأجدى عليه وعليهم ، فان حائك الجيش ، كما يقول « نورداو » ، لا يفصّل ثيابه على قدّ جندى ممشوق القوام من معارفه بل على الطول المتوسط . ويقول « نورداو » ، وليس أصدق مما يقول : « تصور أربعمائة من طراز « جويته » ، و « كانت » ، و « هلمهولتز » ، و « شكسبير » ، و « نيوتن » ، واضرابهم محشودين فى مكان واحد ليبحثوا شأناً عملياً،ويبدو آراءهم فيه ! قد تختلف خطبهم عن الخطب التى تلقى فى المجالس النيابية - وحتى هذا مشكوك فيه - ولكن مايخلصون اليه من النتائج ويتفقون عليه لا يتعرض لمثل هذا الاختلاف . فلماذا ؟ لا لسبب سوى أن كلا منهم — فضلا عن خصائصه التى تفرده وتكسبه شخصيته الممتازة — قد ورث خصائص الجنس التى يشاركه فيها ، لا زملاؤه المحشودون معه وحدهم ، بل كل نكرة من نكرات الشوارع أيضاً — ونقول بعبارة أخرى أن بين الناس العاديين شيئاً مشتركا لا تكاد تتفاوت قيمته نرمز له بهذا الحرف « ا » ، وأن الأفراد الممتازين يجمعون بين هذا المشترك وشيء آخر خاص يختلف باختلافهم

وينبغى أن نرمز له بحرف مختلف فى كل حالة مثل «ب» و «ج» و «د» الخ. والآن فلنفرض أن اربعمائة من العبقريين اجتمعوا فان النتيجة اللازمة تكون أن يجتمع عندنا اربعمائة «ا» وباء واحدة وجيم واحدة ودال واحدة وهكذا. فلا يسفر ذلك إلا عن أمر واحد هو أن تحرز الالفات الاربعماية نصراً مبيناً على الباءات والجيمات والدالات المفردة، أى أن ما هو مشترك بين الجماعة يتغلب على ما هو من الخصائص اليتيمة التى لم تُتأم. ولقد تعلمنا منذ زمان بعيد فى المدارس أن المختلفات لا تقبل الجمع، وهذا فى الواقع هو السبب فى أن من الممكن أن نتصور مجتمعاً من الأفراد العاديين لا من الآحاد النوابغ. ومن المستطاع — إذا طرحت الأمر للتصويت — أن تحصل على رأى أغلبية فى مذاق توابل الكرنب! أما فى قيمة نظريات الحياة فلا سبيل الى ذلك. والأرجح فى الاحتمال — إذا أُحصيت الأصوات على هذه النظريات — أن تفوز كل نظرية بصوت واحد هو صوت صاحبها!!»

(ولكن للكاتب شأناً مختلفاً جداً. عليه أن ينضج ما يريد أن يفضى الينا به ويطلعنا عليه وإلا كان لا شىء. والوقت أمامه فسيح لتلمس المواد وللعبارة عما يدور فى خاطره ويتمثل لخياله، والقراء مستعدون أن ينتظروا ويصبروا حتى يهتدى الى ما يبغى ويوفق الى ما يشتهى، وهو مطالب بأن يؤدى ولا يمطل دينه للحقيقة وللطبيعة). إذ كان لا يخاطب نفوس الجماعة المتعاطفة بل عقل الفرد، والناس ينظرون إليه نظر التلميذ إلى المعلم، لا الظهير إلى الظهير. فمن حقهم أن يتقاضوه الدقة والعمق وموافقة الصواب وتحرى الحقيقة وحسن البيان وعلو اللسان. وأن يكشف لهم عما أفاده الدرس والتحصيل والنظر، وما ذخر على الأيام من كنوز الفكر وأن ينصف نفسه وعقله ومواهبه، وأن يجيل لحظه فى سماء فكره لا فى وجوه الجماهير. وليس ما يطلبه الكاتب على طرف اللسان أو حدّ القلم، بل هو ملفوف فى طيات القلب ومنقوش على صفحات العقل طبقة فوقها

طبقة ودونها طبقة يرفعها الخيال والفكر واحدة إثر أخرى ، ويلتمس لها العبارة التى تجلوها فى أحسن حلاها وأقواها

وعسى من يقول : ولكن للخطيب مشجعاً كافياً من ثناء الناس عليه فى وجهه ، وتصفيقهم له ، وما يراه من الموافقة ويحسه من القبول ، وما يشهد من قدرته على حمل الناس على رأيه . وليس كذلك الكاتب المسكين الذى يسهر الليل لمن ينامون عنه ، ويكد قريحته للناعمين بالراحة . فنقول نعم يلقى الخطيب من يصفق له ويهتف ، ويدخل السرور على نفسه أن يلمس أثر كلامه ويحس وقعه ويشهد ذلك بعينيه وبكل جارحة فيه . ولا شك أن الكاتب قد حرم هذا وما يجرى مجراه . غير أن هذا لا يضيره ويحسبه من التشجيع أنه أمين وفىّ للحقيقة والطبيعة ، وانه قوة يحسها من نفسه ويحسها الناس منه .

ولقد كان هو قارئاً قبل أن يكون كاتباً ، وليس يخفى عليه ولا من الغريب عنه مايجده القارىء من المتعة وما يفيده من الغبطة . والخطابة فن أجوف إذا اعتبرت القيمة الحقيقية للكلام لا التأثير الذى تحدثه والوقع الذى يكون لها ، فمن حقها أن يكون الجزاء عليها التصفيق الوقتى وما إليه من الأعراض الزائلة . وفن الكتابة أسمى وأجل ، فجزاؤه من جنسه ، معنى سام لا مظهر خشن عامى

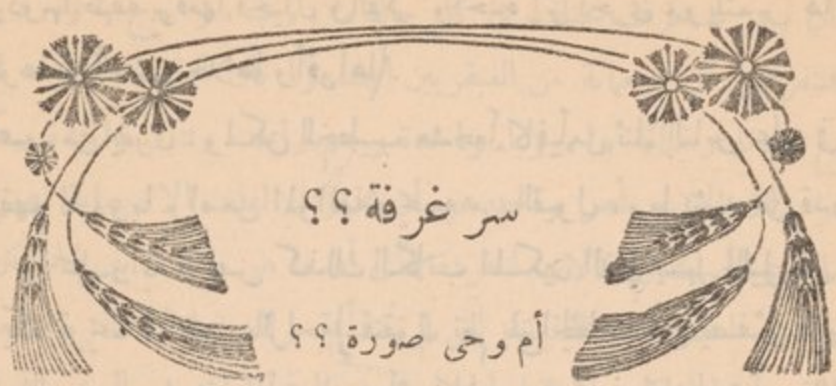

سر غرفة ؟؟

أم وحى صورة ؟؟

لاأدرى أحلم هو أم حقيقة ؟ ولكنى سأقصه على القراء وأكل الفصل إليهم، وأكبر الظن أنهم أقدر على ذلك منى أنا الذى أعيش بين الأشباح والطيوف، وأغدو وأروح فى حاشية منها، وأستوحش إذا افتقدتها فأزورها وأستثيرها من مراقدها وأحف نفسى بها وأنقاد لها وأعاطيها التذكر والحديث حتى نلتئى جميعاً « كأنا قد تعاطينا المداما ». ولكل واحد من الناس حياته الخاصة ياسيدى القارئ. لك مجالس انسك ولهوك وسمرك وما شئت غير ذلك صاعداً ونازلا على جانبى المقياس، ولى أشباحى لا أرتاح إلا إليها، ولا أرسل نفسى على سجيتها إلا معها، ولا تخلص أنفاسى إلا بينها، ولا أستعذب سوى حديثها، وإن كان مثله من غيرها حقيقاً بأن يثير الكبرياء ويكوى الغرور من فرط الازراء، ولكم قالت لى، وأنا أخبط فى الصحراء معها « أتعرف هذا الوجه الذى يطالعك من الظلام ؟ » فانظر إلى حيث تشير فلا تأخذ عينى شيئاً غير الظلمة الدامسة، فتقول لى « لا تحوّل نظرك عنه تستوضحه » فأغرز عصاى فى الرمل وأتكىء عليها وأرسل لحظى الى حيث تومئ، فيرتفع مثل الأستار واحداً بعد واحد عن وجه لا معنى له ولا حياة فيه فأنكره وأثنى اليها الرأس سائلا عن صاحبه فتقهقه وتجلجل ضحكتها فى الفضاء وتقول « كيف لا تعرفه ؟ » فأعجب لانكارها عجزى عن تذكر وجه كالصورة الميتة ليس فيه ما يحرك الخاطر أو ينماز به من المعارف

عن مئات الألوف من أمثاله ، فتنطقه لى فلا أزداد به الا جهالة ،وله الا انكاراً، فتبسم ابتسامة السخر وتقول « لقد كنا نحسبه أشبه الناس بك ! ولكن دعنا من هذا ولنتركه للظلام يحتويه ، فما هو بأهل لغير ذلك ! »

* * *

والآن الى القصة ، اذا جاز أن تسمّى كذلك ! . .

أقمت على ساحل بحر الروم أياماً ، وفى احدى الليالى أبتُ الى غرفتى فى ساعة متأخرة وقد أدارت رأسى مناظر الدنيا على ساحله ! ومن حقها ان تفعل ذلك بابن الصحراء وساكنها ! وكان الليل عاتياً

كأن شياطين الدجى فى أهابه تغنى على زمر الرياح وتغرب

ففتحت النافذة وجلست أصغى الى صوت البحر الجائش واستنشى ريحه ، فدخلت علىّ بلا استئذان غادة فى حفل من الزينة دخول من هذا مكانه . ونزعت قبعتها والقتها على منضدة هناك ،وأقبلت على المرآة تصلح من ثيابها وتمسح شعرها وتلوى خصله الذهبية حول اذنيها ،وتفرقه على جانبي جبينها وهى تقول اذ تنظر الى نفسها بادية فى صقال المرآة من قريب ومن بعيد،وتصعد طرفها الى صدرها وثديها الناهدين الراسخين ،ونحرها الذى يضيئه عقد من اللؤلؤ ، وتصوبه الى قدميها الصغيرتين ،وتكشف عن ساقها فى جورب بلون الجلد « من مبلغه انى هنا الساعة ؟! انى أتعقبه حيث يكون من الأرض،ولا أدعه يفلت منى ، وقد أكون أدنى شىء اليه وهو لا يدرى — الى مباءات الحالمين ، وتحت الأشجار التى لا يعشش فيها غير البوم ، والى سيف البحر حيث اللج يرمى بالزبد — ولكنى ، مع الأسف لا أستطيع أن أناديه أو أدعوه أو اسمعه صوتي أو أشعره بوجودى وان كنت منه كظله ! ! وقد يناجينى فيروى سمعي بنجواه ويطلعنى على ما كنت أجهل وما كان يطويه عنى جهده ويكاتمنيه ما وسعه الكتمان ، فأعجز عن جوابه اذ كنت

لا أملك غير الاصغاء ! فيا ليت من يبلغه عنى ذلك ليعلم أنى ما زلت على وفائى الذى الزمنيه، والذى لم أندم عليه.! ولن تبرح مخيلتى قط تلك الليلة التى طال فيها بيننا الحوار وكاد يفضى الى شر حال ، وكيف نهض عن كرسيه ، هذا ، وأنا قاعدة على سريرى ، وحدق فى عينى وأومأ الى بسبّابته وقال ، ستفين لى على رغم أنفك هذا (وغرزت اصبعها فى المرآة) أتفهمين ؟ ، فدفنت وجهى بين كفى وانطلقت أبكى ، فما عبأ بى شيئاً ! فياما كان أقساه فى تلك الليلة ! ولما طال الأمر ولم تجف عبراتى صاح بى بصوت قوى ، خير لك أن تنتهى عن هذه الحماقة التى لن تغنى عنك شيئاً . ولقد صارحتك بعزمى ، ولو نُقل هذا البحر بالغرابيل ما تحولت عنه . وقد آليت أن أقتلع من بين جنبيك هذه الوساوس والحماقات بجذورها كما تقتلع النباتات الطفيلية ، ولو انتزعت معها أصول أحشائك ! وسترين أني فاعل — بسوطى هذا ، وذراعى هذه . اذا احتاج الأمر الى هذين ! ، وقد فعل.. ولكنى ذويت . . ذويت . . حتى صرت الى ما أرى ! ،

وتراجعت عن المرآة ووجهها اليها ، ثم أقبلت عليها ودارت أمامها ثم مضت الى السرير فارتمت عليه برهة حدثتنى النفس فى خلالها أن ألوذ بالفرار ! والحق أقول إنى خفت جداً ! ولكنى جمدت مكانى ولم أستطع حراكاً حتى لكأنى استحلت بعض ما فى الغرفة من أثاث !

ثم اعتدلت كالمفيق من غشية ، وجعلت تجيل عينيها فى الغرفة وتنفض كل ما فيها ، غير أنها كانت نظرة من لا يكاد يرى . وعادت الى الكلام بصوت مخنوق هافٍ أيقنت منه اني فى أمان !

« نعم كانت ليلة داجية كهذه . عاصفة الرياح مثلها . وكنا ضجيعين على هذا الفراش . غير انى كنت لا أنفك أفلت من عناقه وأشيح بوجهى عنه كلما أهوى الى بفمه ، وأمنحه جانب محيّاى دون صفحته . وأتقى أن تلتقى عيوننا أو أتلقى

أنفاسه الحارة بغير خدى . وأعيته الملاطفة وحز فى نفسه فتُوري، فاعتمد على كوعه وهو مستلق الى جانبي وألح على يستخبرنى عما بى ، وعن علة ما كان بادياً علىّ من الزهادة والسآمة ، ويسألنى ما لجفونى قد جفاها الغمض ويقول « ماذا يجول فى هذا الرأس الصغير ؟ أى هم يقض مضجعك ؟ »

فأقول مرائية « كيف يستضيفنى الهم وأنا الى جانبك ؟ »

فيقول « أترانى أخلفتُ لك وعداً أو أسأت بكلمة أو اشارة ؟ لقد نحيّت عنك ذراعى فى جفوة لا يتوقعها الزوج بعد أسابيع من زفافه ؟ أتراك نادمة على زواجنا ؟ أم فاتك من هو خير منى وأحب ؟ أم خاب لك أمل ؟ أم ماذا؟ قولى بالله؟ صارحينى ! لا تخشى شيئاً ! دعي هاتين الشفتين الدقيقتين المطبقتين تنفرجان ! »

فأطبقت جفونى حتى لا أراه . ووضعت ذراعى على جبينى لا كشف الستر بينى وبينه ، ولبثت هكذا لا أنبس بحرف كالذى يريد أن يستغرقه حلمه — نعم كنت أحلم ،ولكن بغيره — وا أسفاه ! بذاك الذى أقسمتُ له وأنا بين ذراعيه ، وفمه على شفتىّ يوسعهما لثماً ان لا أساكن سواه أو أبادل غيره القبلات حتى الممات . والذى لا أحتضن إلاه حين أطوق هذا الزوج ! . . . فهممْت أن أقول له « اسمع يا صاحبي ! انك زوجى . . . لا أنكر ذلك ، ولو أنكرته لما أجدانى الانكار شيئاً ، ولكنه كان لى صاحب — أو حبيب إذا شئت وأبيت إلا أن تسمى الاشياء أسماءها كيفما كانت — وهو ممن خلقوا ليعشقوا ، ولا تكاد تراه حتى تتعلقه وتهواه ، ولكنه فقير لا يملك أن يبلغنى من الدنيا مناي ، وليس يخفى عليه أنى مخلوقة لنعيم الغنى لا لخشونة الفقر وذلة الفاقة ومراقعها ، وأن صبرى على الاقتار عسى أن يكون عسيراً ، فجعلت من أجله أدافع الخطّاب عن نفسى وأتجنّى وأبدى الزهادة فى حياة الزواج ، وأرفض الرجال وأنت فى جملتهم! حتى انتهرني أهلى واستحمقونى وأشبعونى لوماً وتقريعاً ،فقبلتك بعلاً . . . أتظن انك

لا تعرف صاحبي هذا ؟ ؟ بلى تعرفه ! ومن تراك تعرف إذا جهلته ؟ ؟ ولقد عاد منذ قليل بملء جيوبه ذهباً وهو يحسب أن قد ساعفته الأيام على بلوغ أربه ولا يدرى انه آب بعد الأوان ! . . وان من حقه ان أكون له دونك ، وقد كتب إلى يتقاضانى الوفاء الذى أقسمت له عليه فألهب كتابه النار التى كنت اخالها قد خبت . . وماذا عليك لو تركتنى له ؟ القنى له ولو كالعظمة ان شئت ! وانت امرؤ لا يرى الدنيا إلا سوقاً تفسدها العواطف . وقد شاء ربك أن يرد قلبى إليه ويحفظه عليه ولست بقادر ، مهما تصنع ، ان تعترض قضاء الله او تحول دون مشيئته ، ولخير لك أن ترمى الىّ بزمامى . ولأن تدعنى جاهلاً ما كان من أمرنا أفضل من أن تبقينى فتعلم ما نطويه عنك . . . نعم فقد رأينا ان الزواج لا سبيل إليه بعد ان بنيت انت بى ، فتوافينا الى بقعة مهجورة على ساحل اليم وتعاهدنا ان نكون زوجين واشهدنا على زيجتنا هذه نجوم السماء والبحر والريح . وانه لعقد لا يعترف به الناس غير انه مع ذلك صحيح فيما بيننا ، ولأن يكون هو زوجى وعقيدتي اولى من ان تكونهما انت ! ! ولا نكران أن الأمر كان موكولاً الى اختيارى وانى آثرتك عليه امام الناس ولكن هذا كان لا مندوحة عنه ولابد منه . وهل كنت تتوقع منى غير هذا فى سبيل التحفظ بشرفى ؟ ؟ نعم شرفى ! ولست بأول انثى اتخذت من الزواج ستاراً لخنيها ! ! ولا يخفى علي انى من أجل هذا استحق اللعنة ولكنى كنت مضطرة اليه اضطراراً . . فأنت ترى أن كل شيء يدعوك الى تركى واطلاقى اليه . . .

هممت بأن أكاشفه بهذا ولكن شيئاً عقد لسانى والجم فمى ، فمنحته ظهرى واستقبلت الحائط . وكأنما مل طول صمتى وآله انصرافى عنه واستدبارى إياه كلما حاول ان يتألفنى من نفرتى فجذبنى إليه بعنف أو لعله لم يعنف ولكن ما كانت تجيش به نفسى جسّم لى الأمر فهاج هائجى واضطرم صدرى وثرت به ارجمه بكلام لا أملك حبس لسانى عنه وأقول له فيما أقول

« انى ابغضك . . امقتك من اخمص قدمى الى فرع راسى ! »

قال : « ماذا تقولين ؟ » واعتدل فوق الفراش

قلت : « لقد قلتها ! ألم تسمع ؟ لقد كان غيرك اولى بى لو انصفت المقادير !! »

فوثب عن السرير الى قدميه كالنمر الهائج وجذبنى اليه من شعرى وصاح بى بصوت وحشى اشاع الرعب فى كيانى « مَن غيرى هذا ؟ افصحى ايتها اللعينة ! »

فلم أستطع جواباً وعقد الخوف والألم لسانى وأنا جاثية عند قدميه وخصل شعرى ملفوفة على يمينه ، وشماله على جبينى يرفع بها وجهى إلى عينيه ومضت برهة كأنها الدهر ونحن كذلك ثم شد شعري وقال « انهضى » ودفعنى الى السرير « اسمعى ! لن أقتلك فأنت أهون من ذاك وعندى ما هو شر من القتل . فاعلمى انى لست كغيرى من الرجال ! انك زوجتى « انا » — وعض هذه الكلمة — وستظلين زوجتى « انا » رضيت ام سخطت ! ولست أعبأ شيئاً بالناس وما عسى أن يقولوا . ويميناً ليس عندى لك سوى السوط امزق به جلدك وأطير به من رأسك الفارغ كل ما يمكن أن يعشش فيه من الأباطيل ولأطعمنك اياه كلما أجاعتك إليه الاهواء السخيفة »

فبكيت وسرت فى بدنى كرعدة الحمى وتصاكت أسنانى فصاح بى ان « ازجرى عينك عن البكاء فلست ممن تلينهم الدموع أو تخدعهم ! ويظهر أنك تغفلتنى أو كنت تحدثين نفسك بتغفلى . وسألقى عليك درساً يؤدبك غير هذا الأدب »

فلم أجبه وظهرت على وجهى وهيئتى أمارات الاستخذاء والضراعة ولم يتركنى حتى أقسمت له ان أصدقه الولاء وأمحضه الوفاء .

ثم نهضت الى المرآة مرة أخرى وهى تقول « وقد أخلصت . . وحمد لى اخلاصى . وتبنى غلام صاحبى ، ولكنى صرت الى ما أرى ! . . وقد اسمعه أحياناً يهتف بى مناجياً « أيتها المرأة التى أفتقدها ! من لى بأن أراك كما كنت تبدين لى !

لشد ما اتعثر الآن فى سيرى بعدك ! وما اكثر ما يتساقط حولى من أوراق الحياة وأزاهيرها ! ، ولكنى لا أستطيع أن أجيبه حين يهيب بى وان كنت اتبع له من ظله . »

* * *

وتقشعت السحب عن القمر فنفذ الى الغرفة نوره فرفعت طرفى اليه ثم ثنيته اليها فاذا بالفتاة قد غابت ! . . ذهبت كما جاءت بلا استئذان ولا احتفال . . فخطر لى أن اعالج الباب لانظر أمفتوح هو أم مغلق وأن أرى ماذا فى الدولاب وتحت السرير ! ولكنى استحييت من نفسى ! واشعلت سيجارة وجعلت أدخنها رائحاً غادياً فى الغرفة حتى اذا قاربت الانتهاء منها الفيتنى واقفاً أتأمل صورة حسناء ! ! فابتسمت وقلت : « اهذا انت يا فتاتى ؟ ؟ كيف خرجت من إطارك هذا بالله عليك ؟ ؟ لشدما ازعجتنى يا سيدتى ! فما جزاء من يعابث ضيوفه على هذا النحو ؟ ؟ أن أواريك عن عينى ! نعم ! »

وقلبت الصورة وادرت وجهها الى الحائط وقلت وأنا أتمطى على الفراش . الآن أستطيع أن أنام فى امان من خيالاتك أيتها الحسناء الماكرة !

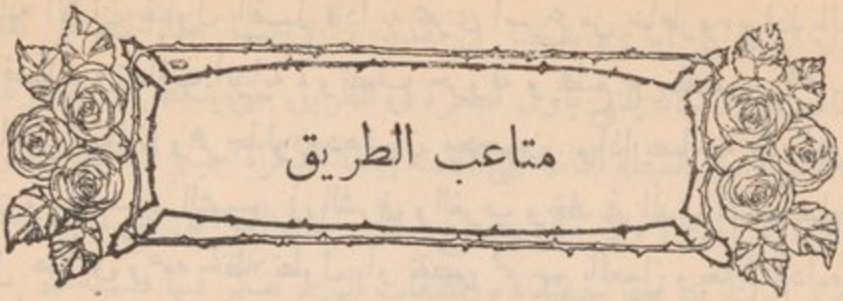

متاعب الطريق

ليس أخطر من التعميم فى الأحكام ، ولا سيما اذا كان الأمر خارجاً عن دائرة العلوم المضبوطة وخاصاً بما يختلف فيه الناس ويتباينون ، ولكننا مع هذا نستطيع أن نستغنى عن الاحتياط الى مدى بعيد ، وأن نأمن الخطأ الى حد كبير حين نقول ان المرء حين يعشق ، أى حين تستبد به الرغبة وتطغى به العاطفة ، قل أن يفكر فى الاحتمالات أو فرص النجاح ، أو فى ماله من الصفات والمؤهلات التى تعين على التوفيق أو تحول دونه أو فى طبيعة المرأة التى فتنته واستولت على هواه . ذلك أن المرأة تقع من نفسه فيجيش صدره بالرغبة فيها وتضطرم نفسه عليها ويغيم كل ما عدا ذلك فلا يرى أو يسمع أو يحس الا هذه العاطفة المتأججة التى تسد عليه كل فجاج النظر . وغير منكور أن فى الناس من يسعه ضبط نفسه وقياس آماله الى قوته وكبح عاطفته اذا تبين أنها موشكة أن تركض به بين الوعور ، كما أن فيهم من يمضى على وجهه كالمعصوب العينين أو كالمخمور حتى ينتهى الى غايته أو يقع دونها ، ولكن هذا لاينفى أن العاطفة تتملكه قبل التفكير وهذا هو الذى نريد أن ننبه اليه لو أن الأمر محتاج الى تنبيه

والاديب شبيه بالعاشق ، يعرض له الخاطر فيستهويه ويسحره ولا يجرى فى باله فى أول الأمر شىء من المصاعب والعوائق ولا يتمثل له سوى فكرته التى اكتظت بها شعاب نفسه ، ولا ينظر الا الى الغاية دون المذاهب ، ويشيع فى كيانه الاحساس بالأثر الذى سيحدثه وقد يتصور الأمر واقعاً ، ولا يندر أن يتوهم انه

ليس عليه الا أن يتناول القلم فاذا به يجرى أسرع من خاطره ، واذا بالكتاب تتوالى فصوله وتتعاقب أبوابه ، وتصف حروفه ويطبع ويغلف ويباع . ويقبل عليه الناس يلتهمونه وهم جذلون دهشون معجبون . واذا بصاحبه قد طبق ذكره الخافقين وسار مسير الشمس فى الشرق والغرب وخلد فى الدنيا الى ما شاء الله !! يكبر كل هذا فى وهمه لحظة تطول أو تقصر ثم يهم بالعمل ويعالج أداءه فيتبين أن عليه أن ينضج الفكرة ويتقصى النظرة ويلم بهذا ويعرج على ذاك ، ويستطرد الى هنا ويمضى الى هناك ، ويدخل شيئاً ويخرج خلافه ، ثم أن يصب ذلك فى قوالب ملائمة ينبغى أن يعنى بانتقائها ، وان يتوخى فى الأداء ضرورات تقسره عليها طبيعة الخواطر او المسائل — هذه تتطلب ايضاحاً وتلك لامعدى فى سوقها عن تحرى القوة فى العبارة أو اللين أو السهولة أو الجمال أو غير ذلك — وأحر به حين يكابد كل ذلك ان تفتر حرارته الاولى وأن يدب الملل فى نفسه ، وان يضجره أن يضطر أن يقطع الطريق خطوة خطوة ، ويكتب الفكرة الرائعة الجليلة التى استغرقته وفتنته ، كلمة كلمة ، ويتناول منها جانباً بعد جانب ، وان يعانى فى أثناء ذلك مشقات التعبير ومتاعب الاداء ، وأن يذعن لاحكام الضرورات ، فلا يستعجل فيفسد الأمر عليه ، بل يكر أحياناً الى ما كتب ويعيد فيه نظره ويجيل قلمه مرة وأخرى وثالثة اذا احتاج الأمر الى ثانية أو ثالثة ، ويصبر على برح ذلك وعنائه وتنغيصه وتغثيته يوماً وآخر ، وأسبوعاً وثانياً ، وشهراً وعاماً وأكثر من عام أو أعوام اذا دعت الحال . وفى أثناء ذلك كم خالجة عزيزة يضطر أن ينزل عنها ويدعها مدفونة فى طيات نفسه لعجزه عن العبارة عنها وتصويرها وابرازها فى الثوب الذى ينسجم عليها ويجلوها للقارىء كما هى فى ذهنه ، أو لأن كلمة واحدة — واحدة لا أكثر — تنقصها لتستوفى حقها من التعبير الذى يكفل لها الوضوح أو الحياة ؟ كم معنى يتركه ناقصاً أو غامضاً وهو « يحسه » تاماً ويتصوره فى ضميره كاجلى

ما يكون ؟ وما كل امرىء يدخل فى مقدوره أن يحتمل هذا المضض كله . ومن الكتّاب من لا يكاد يلتقى بأول صخرة فى الطريق حتى ينكص راجعاً وهو يشعر بمرارة الخيبة بعد الغبطة التامة التى أفادته إياها الفكرة حينما نشأت ، ويروح يطير من فكرة الى أخرى ولا يكاد يصنع شيئاً . لان العوائق التى لم يقدرها تغلبه ، والوعور التى لم يتوقعها تهيضه ، والمشقات التى لم يفكر فيها تسئمه .

والأدب إلهام وفن . ولكل فن أدواته وآلاته ، ولا بد فيه من الاحسان والتجويد ، أى من الصبر وصحة النظر وسلامة الذوق وصدق السريرة وحسن الاستعداد ، وما كان الصواب وصحة النظر ودقة الاحساس وحسن التخيل والقدرة على ذاك وغيره بمقصورة على الادباء ولا هى بوقف عليهم ، ولكن كم ممن تفيض خواطرهم بالخيالات الرائعة والآراء السديدة والاحساسات العميقة يستطيعون أن يبرزوا هذه ويحدثوا فيها صوراً ويجلوها للناس كما هى فى نفوسهم ؟؟ الألفاظ ، التى هى أدوات الكتابة ، موجودة ، ولعل غير الاديب لها أحفظ وبها أعلم ، وهى فى طريق من شاء ، غير أنها ليست كل ما يحتاج المرء ليكون منه كاتب . كذلك الأصباغ والألوان حاضرة من شاء مدّ اليها يده وتناولها وصنع بها ما أحب ، وهى مادة التصوير ، ولكن من ذا الذى يحسب أنها كل ما ينقص المرء ليكون مصوراً ؟ وكذلك لا يغنى العلم بالقواعد والاصول . وما عسى أن تكون قيمتها وحدها ؟ هذا وجه يريد المصور أن يرسمه وينقل الى اللوح ما يترقرق فى صفحته من المعاني ويجول فيه من الأمواه ، فكيف بذلك ؟ كيف يجعل هذه الشفة ناطقة بالسخرية ، أو تعويسة الذقن معبّرة عن التصميم ، أو لمعة العين شاهدة بسجاحة الخلق ورضى النفس ؟ وكيف يشعرك ما يشعر به هو من السحر أو الدلال ، أو القوة والجلال ، ويفيدك ما أفاد من الانس والغبطة والروح ؟ أو كيف يجعلك حين تنظر الى الصورة الحاكية تشتهى — مثله حين يجتلى الأصل —

أن تغمض عينيك وتنقل نفسك الى عالم آخر من الخيالات والخواطر والاحساسات؟ وما يقال عن المصور يقال مثله أو أكثر منه عن الكاتب أو الشاعر . والأمر فى كلتا الحالتين يحتاج الى فطرة مهيأة له أسبابها وذوق مؤازر وسليقة مناصرة وملكة معينة على حسن اختيار الرموز الكفيلة بافراغ الخواطر فى القوالب الملائمة ، والقادرة على إحداث الصور المطلوبة فى أذهان القراء . وعلى ذلك يكون المرء صانعاً لا أكثر اذا رزق الفن وحرم الالهام — صانعاً كهذه الآلات التى تدور بلا روح وتخرج ألواناً وضروباً من الصور تعجب بصقلها ودقتها واحكام صنعها ولا تحس أن يد انسان حي أو قلبه وراءها

وكم من الناس يفكرون فيما يقاسيه الأديب ؟؟ أين ذاك الذى يطالع الكتاب أو الديوان ويعنى بأن يصور لنفسه الجهد الذى بذله صاحبه والغصص التى تكبدها وصبر عليها — جهد التفكير والأداء ، وغصص النجاح والفشل على السواء ؟؟ انه لا يقدّر ذلك الا من عانى هذه المآزق وخاض غمراتها وذاق مرارتها . وشبيه بهذا أن يقف رجل من الأوساط العاديين أمام صورة يتأملها ويدير فيها عينه ويعجب بها أو لا يعجب ، وهو لا يدرى أنها ليست ألواناً وأصباغاً مزجها المصور وزاوج بينها وساوقها ، بل قطعة حية من نفسه اذا نظر اليها صاحبها كرت أمام عينه سلسلة طويلة من الألم واللذة والندم والغبطة والغيظ والكمد والسخط والرضى والأمل والخيبة ، ومن أسبابها ودواعيها المباشرة وغير المباشرة

لى صديق مصور مخلص لفنه دعانى مرة الى محله — وكان هذا منذ سنوات ثلاث — وقال : « انى أريد أن أرسمك لانى أتوسم فى رأسك مادة صالحة لصورة لها قيمة فنية » فشكرت له ذلك وقلت له ، ان عندى من الغرور ماهو فوق الكفاية ، ولم يكن ينقصنى أن أعلم من فنان مثلك أن رأسى جدير بالتصوير ، ثم جعلت اختلف الى داره فى الاوقات التى يعينها ، وأجلس اليه فى كل يوم من هذه الأيام نحو نصف ساعة تتخللها فترات أستريح فيها من هذه الجلسة المتعبة .

فكان ربما بدأ مرتاحاً إلى العمل مقبلاً عليه مهتماً، ثم لايلبث أن تعتريه الكآبة ويعلو وجهه الوجوم فتتدلى يداه وينثنى رأسه على صدره ثم يرفعه ويرسل زفرة غيظ من بين أسنانه المطبقة ويعود كالذى يهم أن يتناول اللوح فيمزقه . ويعمد إلى فيرمى رأسى بالكراسى والألواح ، ويطردنى رفساً بقدميه ! ! وكنت أحاول أن أرد إليه مايعزب عنه فى هذه اللحظات من خلقه الوادع وأقول له، ان هذا الذى تكابد ليس بغريب عنا معشر الكتاب وربما كنا أسوأ من المصورين حالاً وكان فننا أشق وأمر ، فيقول كلا ! انكم أيها الكتاب . تستطيعون أن تسوقوا خواطركم ومعانيكم واحداً فى أثر واحد فان أغفلتم معنى لسبب من الأسباب فقلما يفطن القارىء الى ما أهملتم ، وهل كان يدرى قبل أن يقرأ كلامكم انه كان فى رؤوسكم كذا وكذا . فأوردتم منه هذا وأطرحتم ذاك ؟ ولكن صورة الوجه على اللوح إما ان تكون حية ناطقة أو ميتة خامدة الروح، وليس يخفى موتها أو حياتها على الناظر إليها ، وقلما يفوته التقصير فى انطاق الوجه وإداء المعانى المرتسمة على صفحته ، وقد تدق بعض المعانى المكتوبة عن الافهام لتعويصها أو غرابتها أو سموها أو لطفها ودقتها ، ولكن شخصية الانسان لا تخفى على الانسان . وقد يعجزه أن يصفها ولكنه لامعدى له عن أن يحسها ، والصورة كذلك ، ومن هنا كانت أشق وكان الاخفاق أخلق بأن يكون أبين

وأذكر أني منذ أكثر من خمسة عشر عاماً قام بنفسى أن أضع كتاباً «ضخماً» فى فلسفة الشعر ، وأن أجعل هذا عملى الأدبى فى حياتى ، وقلت لنفسى حسبى به إذا رزقت التوفيق فيه ، واستخرت الله فى امضاء الفكرة ، ولم يكن يغيب عنى فدحها فشرعت أعد لها العدة الكافية وأقرأ كل ما استطعت أن أقرأه مما له علاقة قريبة أو بعيدة بموضوعي . وقسمت الكتاب إلى أبوابه التى تنطوى تحتها أغراضه. وحصرت كل ما أريد أن يتفرع إليه ، ثم لم تزل تقوم الموانع وتعترض الحوائل

ومضت علي وعلى كتابي هذه السنوات الخمس عشرة ولم أتجاوز الى هذه الساعة المقدمة وفصلين أحدهما هو المدخل !؟

ويظهر أنه ليس أعون على المثابرة والصبر من « خفة » الاحساس ، ومن أن يكون المرء بحيث لاتهتاج آماله أو مخاوفه الى درجة من الألم والالحاح لاتُحتمل ولا يسع المرء معها رفقاً بنفسه وابقاء عليها إلا أن يفرغ من الأمر الذى يعالجه ولوخسر فى سبيل ذلك غايته ، وأعنى أن يكون المرء هادىء النفس قليل الاكتراث قادراً على الانتظار ، مطيقاً للصبر ، راضياً عن نفسه مستعداً للارتياح إلى كل ماعسى أن يشغله ، يستوى عنده أن يكتب فى الفلسفة أو يصف حوانيت الباعة ، وأن يستكشف القطب الشمالى أو يهتدى الى حانة تبيع الوسكي بأثمان زهيدة ومقادير كبيرة ، ما دام هو الذى يفعل هـذا أو ذاك وما دام رضاه عن نفسه لايضعفه سبب من الأسباب . وليس من النادر أن يرزق هذا الضرب من الناس حظاً من البساطة الطبيعية ترفعهم وتذرى منهم . ولكن ما عسى صبر الذين تطغى بهم البواعث القوية وتلج بهم الأشواق الحادة والرغبات الجامحة ، وتدفعهم الى محاولة الوثوب ، وتعجلهم ولا تدع لهم فترة راحة يروضون فيها نفوسهم ؟

ولعل هذا هو السبب فى أن الأمة الانجليزية لم تنبغ فى شىء نبوغها فى الشعر الذى يرجع فى مرد أمره الى الارادة والعاطفة ، وأن الأمة الفرنسية من « أفصح » الأمم . ذلك أن الشعر عبارة عن الاحساس الذى يعترف به المرء لنفسه ساعة الخلوة بها ، ويرمز له بما هو أقرب إلى الصورة التى هو عليها فى نفس الشاعر . أما الفصاحة فاحساس كذلك ولكنه يصب فى أذهان أخرى ويلقى إليها طلباً لعطفها أو التماساً للتأثير فيها أو نشداناً لتحريكها وحفزها الى العمل ، ومن هنا كانت الأمة الفرنسية أضعف الأمم الكبرى شاعرية وأفصحها فى الوقت ذاته إذ كانت أشدها غروراً وأعظمها اعتداداً بالنفس !

مجالسة الكتب

ومجالسة الناس

كنت أهم بأن أكتب غير هذا المقال ، وكانت الفكرة حاضرة ، والورق مهيأ ، والقلم مبرياً ، ولكنى أشرفت من النافذة فأخذت يمينى صبياً يلعب بالحصى ويهيل الرمال ، وفى ناحية أخرى فتاتان تتحادثان وتتضاحكان ، فقام بنفسى سؤال لم أستطع التملص منه على فرط ما جاهدت : ماذا يعبأ هؤلاء بما كتبت أو بماعسى أن أكتب ؟ ؟ بل هبنى جعلت الصبى والفتاتين موضوع مقالى وأدرته على ما أرى منهما ومنه ؟ ؟ أيكترثن لى أو يحفلن بى وبما أسطر ؟ كلا ! ولعل أحرى بى أن أسأل : أيعود أحد منهم أصلح للحياة وأقدر عليها وأعرف بهـــا من أجل أنى أجريت هذا القلم بكلمات فيه أو عنه وهو لو قرأها أو تليت عليـــه لما أحس انه موضوعها ؟ ؟ كلا أيضاً ! ومع ذلك أباهى بما قرأت ، واعتز — على الأقل فيما بينى وبين نفسى — بما كتبت ، وأفرح بالخالجة تدور فى نفسى لحظة ، ويجيش بها صدرى برهة ، وقد أضعها فى كفة وأضع الطبيعة كلها فى كفة أخرى ! وبعبارة أخرى أغالى بالفن وأعدو به قدره ثم انقلب بجزاء من يفعل ذلك !

أى شىء هذه الكتب ؟ ستقول انها عالم حافل بالمتع ، وانها لكذلك ، ولكن أين ذلك الذى يسعه أن يزعمها العالم الوحيد ؟ ؟ وهي ديوان قيد فيه السلف ما وسعهم أن يورثونا اياه من معارفهم وخواطرهم وتجاربهم ، غير أن هذا ليس

معناه انها كل ما يمكن أن نعرف أو يخطر لنا أو نحسه أو نجربه . والحياه كتاب أوسع وأضخم من كل ما حوت المكاتب قديمها وحديثها وليس ما على رفوفنا سوى صفحات قليلة من هذه الموسوعة الهائلة . ولقد عبر « هولاكو » على جسر من الكتب فلم تقف الدنيا ولم يثقّل الزمن رجله ، ومضت الحياة فى طريقها كأن لم يحدث شيء ولم يفقد الناس هذه الكنوز ، بل كأن لم يكتبها أحد ولم يضن فيها نفسه ، ولم يخلق فى تحبيرها ايامه ، ولم يبل فى اخراجها حياته ! بل كأن لم يكن أصحابها قد خلقوا قط . الوهل ما أخرج الكتاب من آثار أقلامهم هو كل ما كان يمكن أن يكتب ؟ ؟ لا أظن أحداً ممن يعانى الكتابة يذهب الى هذا ، فلعل ما كتبوا ليس الا بعض ما اضطرب فى صدورهم وقد لا يكون خيره . والكتاب الذين ظهروا فى هذه الدنيا ليسوا كل من يحس أو يفكر فرب تاجر يمسى ويصبح بين السلع ، جيدها ورديئها ، والمساومات شريفها ووضيعها ، والمكاسب حلالها وحرامها ، هو أبعد مدى ذهن وأوسع مضطرب فكر من كانت أو كونت أو من شئت غيرهما ، ورب حمال يقضى عمره حانياً ظهره للاثقال هو أحس بالحياة والطبيعة من ابن الرومى ، وقد تزدرى أميا جاهلاً وهو — لو علمت — أحكم طبعاً من المتنبى ، ولكنه الغرور ولا أدرى ما ذا أيضاً — فليس أبغض الىّ من التقصى — يخيل لنا أن الحياة تعقم بأمثال من ظهروا ويظهرون فيها من الكتاب والشعراء والفلاسفة ومن اليهم ! وكل هؤلاء الذين نعدهم « نكرات » يأتون الى الدنيا ثم يخرجون منها ولا يخلفون وراءهم أثراً أدبياً والدنيا لا تنقص بذلك كما انها لا تزيد بمن نعرف من أبنائها « المعارف » ! والحياة كالأوقيانوس الأعظم لا يزيده صوب الغمام ولا ينقصه ما تأخذ منها وهب الدنيا خلت ممن عليها من الناس ، وصفرت من كل أصناف الخلق فماذا اذن ؟ لا شيء ! تظل الأرض دائرة حول الشمس ، ولا تكف الشمس عن اضاءتها كما تفعل الآن اذ نحن عليها نروح

ونجيء ونكد ونسعى ونشقى ونسعد ثم نموت ! ونحن نموت أفراداً وجيلا فجيلاً أليس كذلك ؟ ولا تعود الدنيا موجودة فى نظرنا — لو انه بقى لنا بعد الموت نظر — ولا نعود نحن فيها ، أليس هذا هكذا أيضاً ؟ فهب جيلنا كان آخر جيل ، أفتظن أن الدنيا كلها تقضى نحبها من أجل أننا نحن قضينا نحبنا ؟ اذن لا « تصوب » نظرك يا مازنى الى هذه الحيوات الصغيرة الساذجة التى تبدو لعينيك اذ تطل من نافذتك ولا تبتسم اذ تجتلى مظاهرها كأنك تزدريها أو « ترثى » لأصحابها الذين لم يقرأوا ما قرأت ولم يعرفوا ما عرفت . فانها حافلة بالمتع والعجائب كهذه الكتب التى تعنى بها ولا تكاد تحفل ما عداها ، ولعلها — لو بلوتها — أجدى عليك وأشرح لصدرك مما أضعت عمرك فيه

وما من ريب فى أنى لو كنت أصغر مما أنا اليوم بعشر سنوات أو خمس عشرة ، لخرج المقال من يدى على غير ما يخرج الآن ، ولكان الأرجح فى الاحتمال أن أشيد بذكر الكتب والعكوف عليها والانقطاع لها والانصراف عن الدنيا من أجلها ، ولكنى لسوء حظها كبرت !! وبلوت من جرائرها ما أسخطنى عليها وبحسبى من ذلك أن صارت مجالس الناس وأحاديثهم عندى غثة لا تكاد تساغ ولا تستمرأ ، وأنى مضطر أن أعالج نفسى لأطيقها وأصبر عليها ولا أقول لأستمتع بها . وليس ذلك لعزوف طبيعى عن الناس وكراهة لمخالطتهم ولكنها الكتب قبحها الله ردتنى كالمترف الذى تؤذيه خشونة العيش ! ألست قد عشت بين خير العقول وأحسن النفوس ، وألفت أن أتناول عصارة الأذهان وخلاصتها النقية الممحصة ، واعتدت الصقل فى سوقها والفن فى عرضها وابرازها ؟ فما عسى الصبر اذن على أحاديث المجالس الخاوية المكررة المبتذلة ؟ ؟ كيف لمن يقضى الشطر الأكبر من أيامه ولياليه بين شعراء الدنيا وكتابها ، باطاقة المستوى الذى لا تكاد ترتفع عنه أحاديث المجالس ؟ ؟ وما للكبر دخل فى هذا ولا للغرور أصبع فيه ولا ظفر ، وانما هى العادة التى يقولون عنها انها طبيعة ثانية . وما مثلى الا كمثل

الذى نشأ فى بيئة ارستقراطية كما يسمونها ودرج على عاداتها وتقاليدها وآدابها ، مثل هذا لايحسن أن يعايش من هم من طبقة الخدم والطهاة أو العملة وباعة الأسواق . ولاشك أنه يحادثهم أحياناً ويحتك بهم قليلاً ولكن هذه ليست معايشة ، وأكثر ما يكون اتصاله بهم حين يصدر الى واحد منهم أمراً أو يبتاع سلعة أو يفعل ما هو من هذا بسبيل ، ولو أنه جالس طائفة من هذه الطبقة لملها واستثقل وطأتها على كاهل صبره . والعكس صحيح أيضاً . وليس السبب أن هذا من طبقة عالية وذاك من طبقة واطية أو متوسطة بل السبب فيما أظن هو أن من تتباين نشأتهم وتتباعد طبقاتهم تضيق بينهم الدائرة المشتركة ، والأحاديث تدور على الأكثر فى هذه الدائرة . ومن هنا لايطرد الحديث فى مجاريه العادية بين من ألفوا الكتابة والقراءة وبين سواد الناس . ذلك أن الكاتب اعتاد التفكير واطالة النظر الى المسائل من كل الجوانب التى يتفطن إليها ويسعه أن يحيط بها ، وأن يعرضها مرتبة مبنياً بعضها فوق بعض ويسوقها فى عبارة يتخيرها لها ، وليست الأحاديث كذلك فهى متقطعة متوثبة سطحية فى الأعم والأغلب ، ولا يزال الناس ينتقلون فى مجالسهم من موضوع الى آخر ولا يتريثون هنا أو هنا ، فيكون الكاتب بين أمرين : أن يلزم الصمت ، أو أن يثقل على جلسائه . ولا شك أن غشيانه المجالس واختلافه اليها يصقله ويعده لها ويذلل له ما تقيمه عادته من العقبات وقد ينفعه ذلك ويحرك ذهنه ويطلقه من القيود التى تحفه بها مزاولة فنه . ولكنه لا شك أيضاً فى أن روح الأحاديث هو التعاطف وأن تباعد ما بين الجلساء يضعف هذا التعاطف ويحيل المحضر موقراً باحتمالات الملل والسآمة من الجانبين . والمرء لا يستطيع أن يسمو فوق مسعاه لأن استطاعة ذلك معناها أن المرء يسعه أن يحلق فوق نفسه وهو عين المستحيل . واعلم أن « الماسونية » ليست بمقصورة على رجالها وأن لكل طبقة منها نصيباً ، وكما أنه لا يفهم رموز الماسوني حق فهمها إلا صنوه وقرينه كذلك لايتم التفاهم إلا بين القريعين . على أن بعض

الناس يذهبون الى أنه لاخير فى محادثة القرناء إذ كانوا خلقاء أن يعرفوا ماعساك تقول وإنما يحلو الحديث وتجدى — كما تجدى الصداقة — بين المختلفين . وهذا صحيح ولكنه ليس كل الصواب لأن كون اثنين فى مستوى واحد لا يستوجب التطابق بينهما . وهذه المدارس تلقن التلاميذ علوماً واحدة غير أن هذا لايجعلهم أشباهاً ولا يحيلهم كالنسخ المتعددة من الكتاب الواحد . وقد يقرأ الكتاب رجلان ويخرج أحدهما بغير ما يخرج به صاحبه

والكاتب يعنى بالفكرة قبل أن يعنى بوقعها ، وهمه الأول جلاؤها وعرضها فى أحسن حلاها وأقواها ، ولا ريب أنه وهو يكتب يجعل باله أيضاً الى التأثير ، ولكن هذا لايشغل من نفسه الحيز الاكبر بل هو يأتي تبعاً لمعالجة الأداء . والحال على خلاف ذلك فى الأحاديث فأن المرء لا يزال يدير عينه فى وجوه الجلساء ليستشف منها الأثر الذى أحدثه كلامه . وما أشبه الكاتب بالممثل الذى يعنى بدوره ويصرف همه إلى القيام به ويخلى ذهنه ، على قدر ما يسع انساناً أن يفعل ذلك ، من التفكير فى جمهور النظّارة الذين يجعلونه قيد أبصارهم ، أما حديث المجالس فقريب الشبه بالخطابة ، بل هو صورة مصغرة منها ، والمرء لاينفك ، كما أسلفنا ، يستنبىء الوجوه ويستخبر العيون ويحاول أن يتخذ منها مرايا يجتلى فى صقالها وضاءة حديثه وبهجة كلامه ، ومن ذا الذى لايعنيه ماينمّ عن شفتيه ولا يبالى أين وقع ، ولا يكترث لكلامه أتلقفه الناس أم ذهب مع الريح ولم يلتفت له أحد ؟ ؟ ولهذا لايسع المرء إلا العناية بأمر جلسائه ، وإلا مراقبة حالة نفوسهم ، فيرتفع معهم ويحلق إذا رآهم مطيقين للتحليق ، راغبين فيه ، مستعدين له . ويهوى معهم إذا هوت بهم البلادة أو التعب أو الضجر أو غير ذلك .

وأتعس المجالس وأثقلها على نفس الأديب تلك التى تتألف من الأوساط أدعياء الثقافة . فيها يدور الحديث على الآداب والفنون ولكنه حديث منقول

عن الصحف والمجلات يلوكون فيه ما تكتبه لهم ، ويفسدونه افساداً لا سبيل الى الصبر عليه . وعذرهم واضح وعذرك أوضح . فالموضوع الذى يردونه منك اليك لا يعنيهم كما يعنيك ولا يستمدون الباعث على طرقه من أعمق أعماق نفوسهم مثلك . وقد لا يدرون عنه إلا بعض ما التقطوه منك . وتشعر بالتقزز اذ ترى القوم يمزقون بأنيابهم خواطرك ومعانيك ويلقونها اليك خرقاً قذرة ، وتصدك الآداب العامة عن تنغيصهم ، ويقضى ذلك على صدق السريرة ويذهب بالاخلاص ، ويغيض من جراء ذلك معين اللذاذة المستفادة من الاجتماع . ومن هذا الضرب أفراد يحفظون من الكتب أسماءها وأسماء مؤلفيها ، وبعض مايقال عنها ، ويدورون بهذا على المجالس يعرضونه عليها كالاعلانات حتى لكأنهم فهارس حية أو قوائم متنقلة !

وليس من النادر أن يكون الأدب أو العلم ، أو غير ذلك مما اشتهرت به من ذنوبك عند بعض الناس ، فلا يكاد يغشى أحدهم مجلساً لك أو يلتقى بك حتى يشرع فى تنغيص متعك وتكدير صفوك . فاذا كان الشعر فنك أنحى على الفن كله ، وبسط لسانه فيه ، وسمّى كل سخافة «خيال شاعر» . واذا مدحت شيئاً أو أظهرت ارتياحك اليه أو ولوعك به ذمه وسخر منه أو عرض بسوء رأيه فيه واحتقاره له — ولك ضمناً — اذا جبن عن التصريح . وهكذا يظل يطاردك ويتعقبك حتى يسوّد الدنيا فى عينيك ويملأ نفسك نقمة على الحياة والناس اكراماً له !

والأديب كالمغنى الذى يرسل صوته غير معتمد على آلة موسيقية تشبع أنغامه وتسد نقصها ، وتملأ فراغها ، وقد ألف أن يجعل معوّله على ما للعبارة وحدها من وقع . وليست كذلك الأحاديث التى تستمد جانباً كبيراً من قوتها أو حلاوتها أو بهجتها من المكان ، والاجتماع ، والجلساء ، وهيئة المحدث وإشاراته ونظراته وصوته . ومن هنا يخطىء كثيرون ممن يبرزون فى المجالس فيحسبون أنهم

يستطيعون أن يظهروا فى عالم الكتابة كما ظهروا فى عالم المجالس ، ويتوهمون أن الواقع الذى يوفقون اليه فى أسمارهم لا يخطئهم اذا تناولوا القلم وأجروه بدلاً من اللسان .

وليس أشق — عندى على الأقل — ولا أشد اجهاداً للاديب من مجالس النساء ! ماذا يقول لهن ؟ ؟ فى أى شىء يحادثهن ؟ ؟ كيف يجعلهن يرتحن الى حديثه ويتقى املالهن ؟ ؟ هن لا يكدن يحملن معهن غير ثيابهن وزينتهن وعجبهن ، وما يتصل بذلك من قريب أو بعيد ، وهو لا يكاد يحمل معه سوى آرائه ، فكيف السبيل الى التوفيق بين هذه وتلك ؟ ؟ ومجالسة الكتب تحيل المرء أشبه بها حتى ليعود وكأنما لا ينقصه الا أن يغلّف ويوضع على الرف بين اخوته ! ! وطول العهد بها يشيب النفس قبل إشابة الرأس ، ويطفىء لمعة العين ، ويعوق تدفق النشاط الجثمانى ، ويغرى بالسهوم والصمت ، ويفعل ما هو شر من ذلك : يبعث على التعلق بالمثل العليا وصور الكمال ، ويُشرب النفس حبها ويعلمها نشدانها . فاذا راح يضرب فى غمرة الحياة تعثّر ولقى فى كل خطوة صدمة : كالذى يسلك طريقاً ومعه مصور لخلافه : !

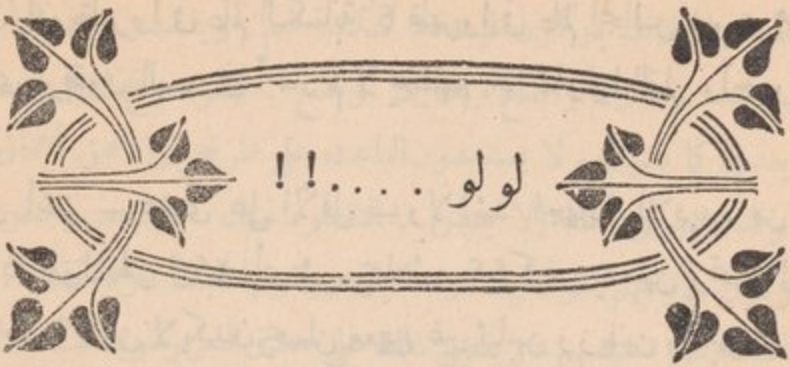

لولو ؟ ! ما « لولو » هذا أو هذه ؟ أهى فتاة حرة المقلد ؟ أم طفل غرير مدلل ؟ أم زهرة نضيرة ؟ أم عصفور مغرد ؟ أم أغنية شجية ؟ أن فى اللفظ ما يُشعر « بالصغر » ويكر بالذاكرة الى « الشباب » — ان كان قد ولى أوانه — وحسبك أن نطقه يتقاضاك زم الشفتين ، وتكليف العينين ابتسامةَ الدعابة ولمعةَ الغبطة ، وتجشيم الأسارير الابراقَ ، والنفس محاولةَ الأشراق ، فماذا هو ؟ لا أدرى ! ! ولعله كل ذلك ، فما اعرف من اللغات الا ما ليس فيه هذه ، ولقد شببت عن الطوق « جداً » وارتفعت عن كل حداثة ارتفاعاً أجلسنى على ربوة الحياة حيث تنازع السحب الضياء ، وأما الشباب وإيماض العيون واشراق النفس فانى أنا القائل :

نضب العزم ، والمنى ثرّة العين ... لعمرى ما أسوأ القرناءا !
شيبة العزم مع شباب الأماني ! ... أضعيف يظاهر الأقوياءا ؟ ؟
دون ما تبتغى حوائل ضعف ... فاجعل العزم والمنى أكفاءا
أيها « الطين » ما ترى بك أبغى ! ... لست فيما أرى لشىء كفاءا ! !
ان طلبت السماء قلتَ لى الأرض ؟ ... أو الأرض كنت لى عصاءا
صرت حتى الذى أفكر فيه ... لست أستطيع صوغه والاداءا

والنفس تهرم أحياناً قبل الجسم ، فتعود وكأن الزمان عمرها ، وإن كانت

بسنها صغيرة ، وكلما أحس المرء دبيب الهرم زاد شعوره بالتبعات ، ووجد أن الحوادث لا تتوالى على روى واحداً ، وأن منطق الطبيعة غير منطقه ، وأنه يدنو من مركز الدائرة وينأى عن محيطها ويشعر بالدنيا تدور حوله فى صخب وضوضاء يزعجان تلك الخلية الضئيلة التى تسمى الحياة ، ويرجانها فيتمنى لو أنه استطاع أن يحول دون النمو ، وأن يأخذ على الأيام متوجهها ، وأن يبقى عمره طفلاً يدور مع الحياة على محيطها .

ولكن الذى أدريه أن صديقاً لى ، فيه شذوذ قلما أفهمه ، قال لى عصر يوم فى الاسكندرية « متى تعود الى مصر ؟ » قلت « صباح غد . » قال : « اذن قم بنا الى ساحل البحر » قلت « البحر ولا شك خير من جوف هذه المدينة ، فلننهض اليه اذا شئت ، ولكن الى أى بقعة من ساحله نذهب ؟ » قال « وما يعنيك من هذا ؟ أوليس كله ساحلاً ؟ » فلم أشأ أن اثقّل عليه فيضيق صدره ويسوء خلقه . ونهضنا الى الترام فركبناه ، وخليت بين صاحبى وبين سبيله حتى انتهينا الى آخر موقف ينساب اليه الترام ، فانحدر بى الى طريق لا يفضى الى بحر ولا الى صحراء ! ! وانما يؤدى الى درب بين الحقول تقطعه السيارات الى ابى قير ، ويترقرق على محاذاته جدول صغير . ثم أخذ ينفض المكان بعينه كالذى ينقّب عن مخبأ فيه وهو معبس محدق فى الارض يعد خطواته فى هذا الطريق الذى ملنا اليه ، ومعلوم ان الخواطر كالمطاط لا تشغل حيّزاً واحداً على الدوام . فقد ترى الخاطر الضخم مضغوطاً فى الذهن من فرط الزحام حتى ليعود كالذرة . وقد تنتفخ الخالجة الصغيرة وتملأ من الذهن كل فراغ يكون فيه . كذلك كان رأس صاحبنا خالياً الا من أمر واحد هو الذى ساقه وساقنى معه الى هذا المكان

ولم أرد أن أزعج عصافير رأسه وأطيّرها عنه ، فتركتها تسقسق له وخليته ينصت اليها ، وسرت الى جانبه صامتاً مخففاً الوطأ ، وصرت أشفق عليه حتى من

وقع قدميه . وكنا قد ملنا الى جانب معشوشب من الطريق حسبته آثر المشى على حشائشه الندية لأن صوت الأقدام فيه أخفت ولكننا لم نكد نقطع منه بضع عشرة خطوة حتى وقف بغتة كالذى صده جدار وأومأ بسبابته الى الأرض وهو يقول لنفسه « هذا هو المكان بعينه » وارتمى على الأرض دون أن يكترث لى كأنه لا يرانى أو كأنى لست معه ! فضقت ذرعاً بهذا الخال ، وأسفت على مسايرته ، وما ذنبى حتى أتكلف الصبر على كل هذه الكتلة من الشذوذ ؟ لقد أردت الرياضة ولكنى أرانى كالذى خرج ليدرس موضوعاً ! غير أنى مع هذا كبحت نفسى عن مطاوعة السآمة والاستسلام للضجر ، وأقنعتها بأن من المروءة أن يحترم الانسان احساساً — كائنا ما كان — يستغرق النفس الآدمية الى هذا الحد ، حد الذهول ، ويستولى على كل جوانبها ، ويملأ كل شعابها ، وينبض به كل عرق . وما يدريني ؟ لعل هذا الاحساس ، مهما يكن باعثه المباشر ، ثمرة احساسات عمر بأسره وحياة بكل ما انطوت عليه ! ومع هذا ، وعلى الرغم من ذلك ، هممت بأن أقف على كيانه المتداعى هذا وأقول له ساخراً « أعاشق أنت ياسيدى ؟ انها لساحرة تلك التى تستطيع أن تصنع هذا بمثلك ؟ » ولكنه كان خاطراً كخطف البرق ماجاء حتى ذهب . فقعدت الى جانبه وخلعت طربوشى وغطيت به وجهه ! ! فاستوى قاعداً وهو يقول « اني أعرفك شيطاناً ! فلماذا أطرت أحلامى ؟ » فانحنيت له معتذراً ! فقهقه ضاحكاً وكف فجأة وأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وقال بلا تمهيد

« لقد كان هذا المكان ساحراً ، وكانت أوراق الشجر والحشائش كالجديدة ، يومض فيها طلها تحت أشعة الشمس ، وكان يخيل لى أنها « مستوردة » لا نابتة وكانت من رقة النضارة فى رأى العين بحيث كنت أشفق أن أطيل النظر اليها مخافة أن أذويها باجالة الطرف فيها . وكانت الشمس قوية ، وكان يقينا لفحها هذا

السياج من النبات ومن خلفه هـذه الخراف بأعيانها سوى أنها كانت مستلقية على الأرض لا ترعى ، وكانت الفراشات لاتكف عن الطيران من هنا الى هنا كأنما حماها صغرُها تأثيرَ الحرارة التى تذبل ماهو أكبر منها . وكان بساطنا هـــذه الاغيصان الندية ، والناس يمرون بنا ويديرون عيونهم فينا ثم يذهبون عنا ونحن فى شغل عنهم وعن لحظاتهم بأحاديثنا و . . . »

وماذا كنتم تقولون ؟ أو لعله ينبغي أن أقول ماذا كنتما ؟ ؟

فلم يلتفت الى استدراكى وقال

« كانت لولو . . . . فهذا اسمها عندى . . ألا تعرفه ؟ . .

قد عرفته الآن !

« . . كالتى يفيض قلبهـــا بشىء تحبس نفسها عن الافضاء به . وكانت ربما أشاحت بوجهها عنى وأسندته الى كفها وأرسلت لحظها فى الفضاء غير ناظرة الى شىء على التعيين وتركتنى أصب فى مسمعها ما أهضب به . وقد تجيبنى أحياناً ولكنى كنت أقرأ فى عينيها غير مايجرى به لسانها ، فكان بيننا حديث مسموع وآخر صامت ، وكان الصامت أصدق الحديثين ، نعم فهى عجيبة فى تناقضها ، عجيبة فى ازدواج شخصيتها ، لينة النظرة ، جامدة الفم ، ريضة الخلق ، ساكنة الطائر ، مكلومة الفؤاد ، هادئة المظهر ، تتناول كفها فلا تدرى ألينة هى أم صلبة ، وتتأمل محياها فتحس فيه الذائب والجامد ، والسلس والوعر ، والترف والخشونة ، والحرارة والفتور ، والرغبة والزهد ، والضـــعف المتناهي والقوة التى تغرى بقلة المبالاة وتدفع الى عدم الاكتراث بما كان وما هو كائن وما سيكون . ولقد استثارتنى رقة عينيها فأمسكت عن اتمام ما كنت قائلاً كأنما كان الكلام يعوقنى ، كالذى يخلع نعليه ويدعهما ويعدو حافياً ، وجذبتها الىّ بغتة وان كان لاشك انها كانت تتوقع ذلك ، وضممتها وطبعت على ثغرها قبلة . ولكنها ضمت شفتيها ولم تعاطنى التقبيل !

وان كانت عيناها قد ظلتا تلمعان بنور الابتسام ، ثم مسحت بكفها على الحشائش وقالت « لاينبغى أن نظل هكذا جالسين فقم بنا نعد من حيث أتينا فقد أمسينا .»

قلت « دقائق أخرى ! »

قالت « بل يجب أن نعود أدراجنا »

قلت « فقبلة ثانية أولا »

قالت : « حسبك واحدة » بلهجة من يكظم زفرة طويلة حارة . ثم رفعت الي وجهها فقرأت فى صفحته :

« انى أخشى أن أرعبك اذا أنا كشفت لك عن حدة رغبتى فى الاستسلام لعواطفي ! كلا ! لست بالفاترة التى تراها وأنى لأحس انه كان الأولى ألا أُحيى بهذه المفاتن اذا لم يكن من حقي أن أتمتع بها . وهل وهبنى الله اياها ليتمتع بها الناس دونى ؟ ؟ »

« ومع ذلك ألحت أن نعود ! ! »

وأكب ينظر الى الأرض برهة وجعل يقتلع الحشائش ويعبث بها ويقول :

« ولها نظرة انكار أوشك تلقي اليك بها بجانب عينيها ، كلها تصديق وكلها تكذيب ! كأنما علمتها الأيام أن تستريب ولا تطمئن الى ما تسمع ، وأن تعد عبارات الحب والعطف ملقاً ودهاناً ، اولهواً وعبثاً ، ولكن شبابها يغريها بالركون الى ما يدرك عقلها الذى نضج قبل الأوان انه « الفاظ ألفاظ » كما يقول هملت ! فيالها من نفس ظامئة ! ما أقسى الحياة التى تحمّل زهرة ليس لها غير الحسن قوة ، ما تنوء به الشجرة الضخمة ! »

ثم التفت الىّ فجأة وسألنى « وكم تظن عمرها يا صاحبى ؟ انها لا تزال فى العقد الثانى من حياتها ! فلشد ما أخشى أن تذبل هذه العين وأن تخلو من المعنى لحاظها ! لقد جالستها ثلاث ساعات طوال لم تنطق فى خلالها بما يملأ خمس دقائق ! وشفتاها

مع ذلك تهمان أبداً بالانفراج ، ولكن شيئاً يطبقهما ويعيد ما يحاول أن ينفذ من بينهما ، إلى صدرها فيعلو ويهبط وتظل الشفتان مطبقتين ! ولقد قلت لها جاداً « هنا شيء يجثم على هذا الصدر » فأدارت الى بعض وجهها ونظرت الىّ بمؤخر عينها ، وقالت واللمعة شائعة فى العينين ، والتحجر مرتسم على الشفتين « أى شيء ؟ » قلت « لا أدرى ! ولكن هنا شيئاً على التحقيق ! وأراهن ! » فهزت كتفيها كالآسفة وقالت « لا ! أبداً ! ! » فالحفت فى المسألة وداورتها فلم يجدنى ذلك ولم أفز بطائل فليت لسانى كان فى فمها ! إذن لنطقت عنها ولرفهت عن هذا الصدر المثقل بما لا تحسن العبارة عنه ! وهل هو إلا الظمأ إلى الحب ؟ ؟ هو ذاك على التحقيق ، الظمأ الى ما تحلؤها عنه الدنيا وتحرم عليها أن ترد شرعته وتعب فيها نخلق الله : وماذا عسى أن يكون غير ذلك وهى فتاة غضة الاهاب تنأى بها ظروف لا حيلة لها فيها الآن على الأقل عن الزواج وتتقاضاها هذه الظروف عينها أن تبقى عفيفة محصنة ؟ شبابها وجنسها يأمر انها أن تنشد الحب وأن تنشد به الحياة والنسل ، والدنيا تأمرها أن ترفض هذا ، وأن تخرس اللسان الذى يدعوها إليه ، وتضع أصابعها فى مسمعيها دون الصوت الذى يناجيها به : وأى لسان ، وأى صوت ؟ انه لسان الجمال الذى يعبّدنا جميعاً وصوت الحياة التى تسخرنا ولا ترحمنا ولا تعفينا ولو مقدار ثانية من الاذعان والامتثال . فكر فى هذا ثم أنكر وهز رأسك بعد ذلك إذا استطعت . »

وبعد اطراقة قصيرة أخرى :

« وتالله ما كان أقساني عليها ، وأعنفنى بها ، وأقل ترفقى بهذا القلب الجديد ، حين قلت لها وقد ساقنى الحديث الى ذلك « ان فى وسعك أن تستغنى عن زوج بل أنت لا معدى لك عن ذلك ولا خيار لك فيه ، ولكنه ليس فى مقدورك أن

تستغنى عن رجل » . ولقد لبثت بعد ذلك وقتاً أعتذر عن نفسى من هذه القسوة بالقول بأنى أحسنت إليها بالعبارة عما فى نفسها ، وبأن دللتها بكلامى هذا على مكان الجرح من قلبها ووضعت أصبعها عليـــه ، ولكنى أخشى جداً أن أكون قد نكأته ! »

— « وماذا كان جوابها ؟ »

— « لم تجب بشىء سوى نظرة طويلة إلا الفضاء ! وماذا كنت تتوقع منها ؟ أن تتكر أن لها جنساً ! ولقد خاصرتها وأنا أعود بها فى هذا الطريق بعد أن انحـــدرت الشمس فلم تنحّ ذراعى عن خصرها ، ولم تتحرك لذلك شعرة واحدة فى بدنها ! فكأنى كنت مطوقاً بذراعى الحي هـــذه دمية لا تستطيع أن تحس حرارته ! »

— « وماذا أنت منها الآن ؟ اني أخشى . . »

— « ماذا أنا منها ؟ لا شىء على الخصوص ! أحب أن أراها من حين الى حين ، وأن أستشف نفسها وأطلع من عينيها على المغيب فى ضميرها . وسمّ ذلك حباً ان شئت ، أو سمّه لهواً ، فما يعنينى كيف تصفه ، وما أعرفنى عبأت قط بهذه الألفاظ . ولكنى لا أكتمك انى أعطف عليها وأرثى لها . واحسبنى إنما أعطف على نفسى فى شخصها فان بى منها مشابه . غير أن بيننا حوائل تتعاظم المجتاز ، وجونا عريضاً يعيي ساقى أن تتخطياه . وليتنى أدرى كيف أحييها وأرد إليها روح الشباب الذى تقمعه الأيام قبل الأوان ! ولكنى كبرت ، وا أسفاه ! وفقدت أنفاسي حرارتها . والنساء عندى كتب تُقرأ وموضوعات تدرس لا جمال يعشق . ولقد كنت فى زمانى شاعراً أو شبهه ، وكان للدنيا بنفسي حلاوة ، ولكنى أصفيت بعد أن نضب معين الشباب وعدت كما تقول يا صاحبي « كأنى من دمائى أشرب »

قلت « قم بنا عن هـذا المـكان فقد أوجعت رأسي وسودت الدنيا فى عينى .

تالله ما أجهلك بالدنيا وبصاحبتك ! » قال : لقد كان لا بد لى من مكاشفة صاحب بما فى نفسى وقد فعلت ! فاستحمقني إذا شئت ، ولكن خل رأيك لنفسك فما أحفله كيف يكون مادمت أجهله . »

ونهضنا نعود فسمعته يقول فى بعض الطريق « لقد كبرتُ ! » ولا أدرى كيف حدث منى هذا : ولكنى رأيتنى ابتسم وأدفع ذراعى حول خصره وأطوقه بها ، فانتفض مذعوراً وصاح بى

« أيها الشيطان اللعين ! ! »

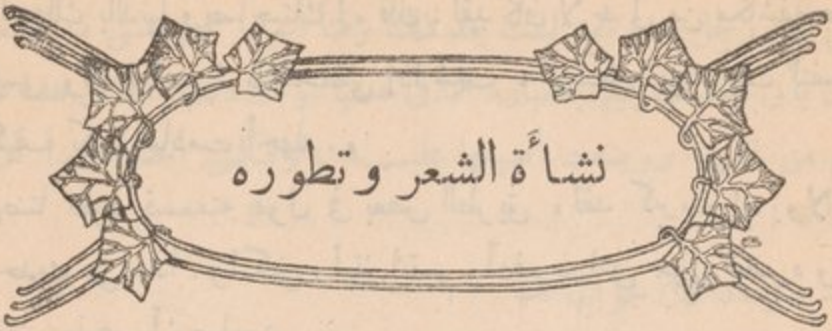

نشأة الشعر وتطوره

كنت فى ليلة أقلب ديوان ابن الرومي وأدير عينى فى صفحاته متأملاً ورقها دون ما حوته من الشعر ، ولم يكن مرادى ان أقرأ شيئاً بل ان أحول بين العين والمطالعة ، وكانت الرغبة فيها شديدة ولكن الأطباء يعظونني أن لا أجهد عينى بالقراءة على ضوء المصابيح . وماأدراك ما الأطباء ! هم الذين يقول فيهم اديسون على ما أذكر ، ان المغول والتتار كانت غاراتهم كثيرة قبل أن يعرفوهم ،فلما ظهر الأطباء بينهم وكثروا — الى حد — انقطعت الغارات !! ولنرجع الى صاحبنا ابن الرومى فنقول ،انى بينما كنت أجيل عينى فى ديوانه ، غير معتمد شيئاً على التعيين ، استوقفنى قوله من قصيدة يهجو بها البحترى ، وكان معاصراً له :

قبحاً لأشياء يأتى البحترى بها ... من شعره الغث بعد الكد والتعب

كأنها حين يصغى السامعون لها ... ممن يميز بين النبع والغرب

رقى العقارب أو هذر البناة اذا ... أضحوا على شعف الجدران فى صخب

ولا نعرف ما رقى العقارب ، ولكنا نعرف ما يعنى بهذر البناة على شعف الجدران ،فهى ماينشدونه ويرددونه اثناء عملهم من الأغانى الساذجة . وقد ذكرت لما قرأت هذا ، بالليلة يوماً وبالبيت موضوعاً له قيمته فى نشأة الشعر . فأما اليوم فكان فى الاقصر منذ عامين وبضعة أسابيع وكنا — انا والاستاذ الدكتور حسين باشا هيكل — فى معبد الملكة حتشبسوت ،فيما يسمى الآن « الدير البحرى» وهو معبد منقوب فى الجانب الشرقى من وادى الملوك وممتد شرقاً الى الصخور

التى تفصل الوادى عن سهل طيبة. الى هذا المعبد أقلتنا مركبة ذات عجلات عريضة، هى شر ما يحمل أنساناً فوق تلك الأرض الصخرية. وكان النهار قد انتصف فاتخذنا من الحجارة كراسى ومن صخرة ضخمة هناك مائدة تناولنا عليها طعامنا بين أعمدة البهو الأسفل عند مدخل المعبد، وحولنا رسوم ونقوش محت الايدى والأيام بعضها ولم تبقِ منها واضحاً سوى صف من الجنود يحملون عدا السلاح اغصاناً والوية يقابلهم فريق من الرماة، والى اليسار صور قصابين وكهنة يعدون الضحايا والقرابين، وفوق هؤلاء وأولئك زوارق تنحدر على النيل وفيها مسلات. فلما أصبنا حظنا من الطعام رقدنا على الأرض وأسند كل منا رأسه الى حجر سد مسدّ الوسادة. وإنا لكذلك واذا صوت فضّى النبرات يصافح آذاننا، فراعتنا حلاوته وضاعف حسنَ وقعه ما يحيط بنا فى هذا الوادى القفر من الاطلال وما تثيره فى النفس من الخوالج والذكريات. وسألنا الحارس فقال، هؤلاء عمال يحفرون الأرض ويرفعون التراب عما يظنه مستأجرهم أثراً أو قبراً، وعادتهم ان يغنوا وهم يعملون. فاعتدلنا حيث كنا وجعلنا بالنا الى هذا الصوت، وكان صاحبه كلما غنى شطراً اجابه جمهور الفعلة ورددوا على أثره جملة لا تكاد تختلف، يعيدونها ويرجعونها بعد كل وقفة منه. وكان الوزن ظاهراً فيما يغنى الصبى وتعيد الجماعة، فحاولت أن أدون ما ورد سمعى من ناحيتهم ولكن بُعد ما بيننا وبينهم حال دون الدقة فى النقل والضبط فى الرواية وعلى ان ما أثبتُّه من ذلك قد ذهب لا أدرى أين؟

وهذا كل ما اهتديت اليه:

أنا اجول للزين سلامات على حسب وداد جلبى

خبط الهوى على الباب جلت الحبيب جانى

أتاريك ياباب كدّاب تنهد من عالى

ولقد كنت أحب أن أورد للقارىء سطوراً أخرى من ذلك ليس أعون منها على تبيين ما أريد أن اقول غير أنه يعزبنى عن فقد ذلك ان القارىء لا يعييه أن يجد بديلا يقوم مقام ما ضاع منه . وما عليه الا ان يلاحظ النوتية وهم يعملون فى زوارقهم أو سفنهم ،أو العمال وهم ينقلون الاحجار أو يحفرون أرضاً أو يجرون ثقلاً ، أو نحو ذلك ، فانهم فى اكثر الأحيان يغنون ويتسلون بمثل ما كان جماعة العمال فى طيبة يغنون ويتسلون . واكثر ما تجد ذلك فى القرى النائية عن الحواضر وفى حيثما يحتاج العمل الى أيد كثيرة تشتغل معاً وفى وقت واحد . غير ان هذه الاغانى ليس لها ضابط أو صورة نهائية . إذ هى لا تنفك تتغير ولا تثبت على صورة واحدة بل تنشأ وتتحول ويطرأ عليها جديد يوقع على أنغام قديمة أو تغنى مقاطيع منها قديمة على ألحان جديدة . وقد يثبت ما يردده المشتركون فى الانشاد ويتغير ما يغنيه الفرد ، وفى وسع المغنى الذى يكون كالزعيم للجماعة أن يبتكر ما يشاء ويرتجله ،وأن يستحدث فى المأثور الذى يحفظه ويقدم ويؤخر فيه ويمضى فى ذلك كله الى غير غاية مستمداً من ذاكرته أو من وحى الساعة ، أو من إلهام العاطفة التى تتملكه ، أو من هاتيك جميعاً . فليس أسهل من الارتجال فى مثل هذا الموقف. والقارىء اذا تدبر عصور الشعر العربي خليق أن يتبين منها أن الارتجال يكثر فى أولاها ،أى فى العصور التى يكون الناس فيها متقاربين متشاكلين لا يتميز بعضهم عن بعض كثيراً . والمرء اذا ألقى نفسه بين أترابه وأنداده اطمأن وأرسل نفسه على سجيتها لأنه فى هذه الحالة يضمن المقدار الكافى من التعاطف اذ كان بين مماثلين له

وهذه الاغانى التى نتكلم عنها كثيرة فى المدن والقرى ، وان كانت فى القرى اكثر منها فى المدن . ولكن ما أقل ما يستطيع المرء أن يدون شيئاً منها على أنه مثال لها وعنوان عليها ! ذلك انها كالتيار العام ،قطرة منه ،أو ملء ما شئت عمقاً

واتساعاً ، ليس بالتيار ! كذلك يكتب أحدنا مقطوعات يسمعها من هذه الاغانى القديمة المتجـــددة كموج البحر فاذا هو لم يفز بشىء لانها لا تستقر على حال ولا تثبت كما أسلفنا على صورة

ودع الحاضر وارجع الى الماضى ، وصوّر لنفسك جماعة من الناس لا يزالون على الفطرة لم يأخذوا من المدنية بنصيب ولم تقسمهم الصفاتُ الشخصية والملكات العقلية طوائف ، ولم يفرق بينهم اختلافُ المراتب وتباين الاعمال وتعدد الآراء . وتلك مرتبة من الحياة لا تكون فيها أبواب التعبير الطبيعى موصدة ، ولا يجهل فيها المرء — أو لا يحس أنه يجهل — ما يجرى فى ذهن جاره أو رفيقه ، ولا يستحيى أن يعرب عما يجول فى خاطره ويجيش به صدره مخافة أن لا يفوز بالعطف والتقدير اذ كانت حدود الفرد هي حدود التقاليد المشتركة بين الجماعة كلها . فى هذه المرتبة من الحياة كيف تكون نشأة الشعر ؟ يكون — كما هو ظاهر بالبداهة فيما نظن — عملاً من أعمال الجماعة كلها وملكا لها لا لفرد . ويجىء تالياً للرقص والغناء وتابعاً لهما ومتفرعاً عنهما وغير منفصل منهما . فان شككت فى أن الأمر لا بد أن يكون كذلك فقل لى أيهما تظن كان أسبق فى تاريخ الانسان ؟ الحركة ام اللغة ؟ نحسب ان الجواب على هذا لا يمكن أن يتعدد ! فان الانسان قد صدرت عنه الحركات قبل أن يعرف ان له لساناً يمكن أن يكون أداة لنقل الاحساس أو الخاطر الى زميله الانسان . فالحركات البدنية اسبق من اللغة على التحقيق . ولكن هل الوزن كذلك ؟ نقول نعم ، ولا نتردد ، لأن الوزن ليس شيئاً سوى الانتظام فى الحركات ، فهو أشد ارتباطاً وأسهل مساوقة لحركات الجسم ، وما زالت الاشارات والحركات من متممات التعبير اللفظى الى الآن ، واللغة ليست إلا اداة للتعبير تحل تدريجاً محل ما كان قبلها هو الاداة لهذا التعبير ، لأن العبارة عن العاطفة بالحركة الموزونة على تدفقها ، أسهل — ومن أجل ذلك كانت أسبق — من العبارة بالألفاظ التى

انتظمت بها الأصوات ، وتعينت واستقرت على معانى صارت محدودة مألوفة . ومتى انتظمت حركات المجتمعين واتزنت على مقتضى العاطفة المشتركة بينهم — لفرط تماثلهم — كان من المعقول بعد ذلك أن تخرج الألفاظ مستوية فى ترتيبها على وزن هذه الحركات ، وعلى ذلك يكون أول ماعرف الانسان من الشعر هو عبارة عن لحن موزون يندّ عن أفواه المجتمعين إذ كان جارياً على ما تتطلبه وتؤدى اليه الحركات التى يشتركون فيها ويؤدونها معاً على نسق واحد وعن عاطفة عامة شائعة بينهم على السواء ، وليس من الضرورى ولا من المفروض أن يكون لهذا اللحن معنى معقولاً أو غير معقول مرجعه الى الفكر ، ولكن العاطفة أسبق فى تاريخ النشوء الانسانى من الفكر

اذن كان الشعر لأول ماعرفه الانسان ألفاظاً مجموعة تكرر ، وأسماء تتخلل الألفاظ ، وعبارات لها قيمتها الايحائية عند الجماعة لا أكثر ، على الأرجح ، وصرخات تند بين ذلك ، مصبوباً كل هذا فى قالب موزون على حركات الجماعة فى حفلاتها المختلفة لمناسبة زواج ، أو وفاة ، أو غير ذلك ، ومعقول أن تكون الاشارات أو التلحين أبرز من سواهما فى هذا الطور الساذج

ثم ماذا ؟ ثم ياسيدى يجدّ عامل جديد يؤدى الى التطور . كانت الجماعة متشاكلة الأفراد ولكن التميز يحدث ، ويقوى الشعور بالذات شيئاً فشيئاً ، ويزداد الاحساس بالاستقلال ويبرز الفرد تدريجاً ويأنس من نفسه ما لايأنس غيره من نفوسهم . فلا يقنع بأن يبقى فى حلقة الجماعة يردد ما يقولون وليس له من الشأن إلا مثل مالكل منهم ، ويندفع مجترءاً على التقاليد — لأنه لايسعه إلا هذا — ويعلو بصوته أصواتهم فيروعهم فتخفت أصواتهم قليلاً ، ويمضون فى حركاتهم ولكن عيونهم تتعلق به وأذانهم ترهف له ، فاذا به يستحدث مالا عهد لهم به ويدخل على ماكان قصاراهم أن يفعلوه ، حواراً مرتجلاً يقص به قصة ساذجة بطبيعة الحال .

فيحسن وقع ذلك فى نفوسهم ويطيب لهم أن ينصتوا ولكن الطفرة محال كما يقولون، فلا يصمتون كل الصمت بل يتعلقون بعبارة مما يسمعون منه فيرددونها وراءه كلما سكت . وليست هذه بالخطوة القصيرة . فقد كانت الجماعة قبل ذلك هى المؤلفة للأنشودة - اذا جاز اطلاق هذا اللفظ على ما كانوا على الأرجح يتصاخبون به - وليس للفرد الا مثل مالسواه من الفضل . ولكن الجماعة بعد الآن بدأت تقتصر على الرقص والاشارات ، وتجتزىء بسماع مايصبه فرد فى آذانها وبترديد عبارة معينة لاتعدوها وصار عمل الفرد فى ابتكار القصة أو الحوار ، أبرزَ وأظهر . وهو يروى ويقول ماتخطره الظروف فى ذهنه وتجريه فى باله وعلى لسانه ، وهى تكتفى مما كانت تقوم به بمشاركة هذا الفرد فى حالته النفسية وبترديد ما يوكل اليها ترديده

ثم تتوالى الخطوات متتابعة متلاحقة كالعجلة تدور بصعوبة فى مبدىء الأمر ، ثم تزداد ادارتها سهولة بعد ذلك . فيتضاءل عمل الجماعة من الاشتراك فى التأليف الى الاقتصار على الترديد الى صيرورتها معينة بحركاتها للفرد على المحافظة على الوزن ونمثل لذلك بفرق المغنين عندنا . تجتمع طائفة منهم هذا بعوده وذاك بقيثارته وذلك بقانونه أو مزماره وغير هؤلاء بحناجرهم ! ثم يفتتحون العمل بتوقيع موسيقى لا يصحبه غناء ثم بموشح يوقعونه ويغنونه معاً حتى اذا انتهوا من ذلك شرع زعيمهم يغنى صوتاً ينفرد هو بأكثر مقطوعاته ويشترك معه الباقون فى بعضها ، وقد يغنى بعد ذلك موالاً لايشاركه فى غنائه أحد ولكن يظل ينقر له الموسيقى على وتر معين ليساعده على الاستمرار على تصرر الصوت وعدم الخروج عنه . وليس هذا سوى مثل ضربناه تقريباً للمسألة من الافهام لا لنقيس هذا على ذاك

وهكذا يختفى أثر الجماعة تبعاً للتطور ويظهر الفرد حتى اذا تألفت تأليفاً سياسياً وانتقل بذلك مركز الثقل ظهر الشاعر الفنى المستقل عن الجمهور وصار أمر

الشعر كله الى الفرد وأصبح هذا الشعر ديواناً تقيد فيه الأخبار وتسجل حوادث التاريخ وأعمال الابطال فيتسع الأفق ويرحب المجال امام الشاعر ويغشى غمار الحرب والسياسة بعد أن كان لايلم قديماً فى شعره بغير المرأة ، ويركض فى حلبة الحوادث العامة التى تمس حياة القبيلة أو الأمة ولا يقتصر على ماله علاقة بالاسرة أو النفس . وهكذا . .

والجماهير ؟ يبقى لها شعرها الخليق بمستواها . ولكنه لا يتقدم ولا يترقى . لأن مستوى الذكاء المتوسط ، يمنع شعر الجماهير أن يعلو ويسمو . وهذا هو حده . أما من يمتاز من الأفراد عن هذا المستوى ، ويرتفع عن طبقة الجماهير وحاجاتها وأذواقها ، فلا يبقى له محل إلا بين من يستطيعون أن يقدروا مزاياه التى انفرد بها وخلت به عن الجماهير . وان أحدنا ليسمع الأنشودة فى الاقصر ، ويسمع أخرى فى القاهرة ، وثالثة فى غير هاتين المدينتين ، فلا يملك إلا أن يحس كأن واضع هذه وذلك واجد ، إذ لا خلاف ولا فرق الا فى النطق والا فيما تدعو اليه الأحوال المحلية التى لاتقدم ولا تؤخر ، ولا تمنع التشابه بل التطابق فيما هو جوهرى

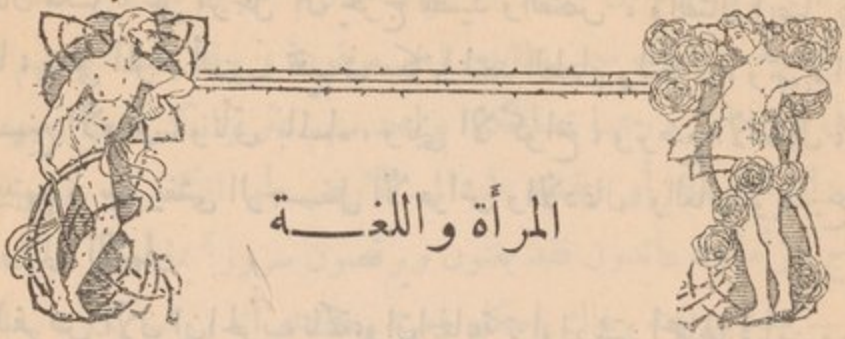

المرأة واللغـــة

أول معجم وأقدم ديوان

يقول شاعر قديم :

كتب الحرب والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول !

وبهذا البيت المفرد لخص وظيفة الجنسين فى نظره أوجز تلخيص، وأقربه الى الصواب وأشبهه بالحق . ولكن القافية جنت على المرأة وساعدها فى جنايتها عليها وظلمها لها، تعصب الرجل لجنسه . ولعله بعد لم يعدُ ما كانت عليه الحال فى زمنه ، أو لعله لم يقصد الى المقابلة بين وظيفة الرجل فى الحياة ووظيفة المرأة فيها ، وإنما أراد أن يؤكد عظم ما هو موكول الى الرجل ويجسم خطره ، ومشقته ، ويبرزه فى أقوى صورة بأن يرفع قبالته ظاهرَ ما تكون عليه المرأة من خلو البال وفراغ اليد والاطمئنان ، والتنعم بمجهود الرجل . وعسى أن يكون قد شكا وتضجر من حيث أراد أن يباهى ويفخر ، غير أنه على أى وجه قلبت بيته وإلى أى تأويل أخرجته ، قد ظلم المرأة وغمطها حقها وجنف فى حكمه وقسا عليها فيه . وليس فى مقدورنا أن ننصفها نحن من كل وجه بمقال واحد ، ولكننا على هذا سنحاول أن نصف بعض ما قامت به فى تكوين هذه اللغة وفى تمكين رصيفنا القديم من إرسال بيته هذا الدائر على الألسنة الى يومنا الحاضر . وما الى ذلك من سبيل بغير أن نرد عقربى الساعة بضع مئات أو آلاف من السنين ، علمها عند ربك ، وأن نكر راجعين الى تلك الأيام البعيدة التى كانت الجماعات الانسانية فيها ساذجة .

أيام كان مكتوباً على الرجل أن يخرج للصيد والقنص ، والقتال أيضاً كما يقول شاعرنا ، وعلى المرأة أن تقيم فى مكانها لتعد الطعام ولتغزل ، وتهيىء الجلود ، وتصنع الأوانى ، وتأتى بالماء ، وتبنى الأكواخ ، وترضع الأطفال ، وتقوم على تربيتهم ، بينما يغشى الرجل الأحراش والأدغال والغاب ويفترع الجبال وينحدر الى الأنهار

ولنفرض الآن ان الحرب نائمة ، وان الجماعة تزاول شتى أعمالها فى أمن وسكون. فى مثل هذه الأوقات يصبح الرجل فيحتمل أدواته كائنة ما كانت ، ويذهب الى الماء لصيد الأسماك ، أو يصعد فى الجبل ، أو يمضى الى الغابة ليقنص الحيوان. وقد يخرج الرجال فى طلب الصيد بأنواعه زرافات ولكنهم لا يلبثون بطبيعة الحال أن يتفرقوا ويتشتتوا ولو قليلاً ، ويضطرهم ما هم فيه الى الصمت أكثر الوقت لأنهم وهم يجوسون الأرض على الطريدة مكرهون أن يخففوا الوطأ وأن يمنعوا الجلبة وأن يكتفوا حين يريدون التفاهم فيما بينهم باللمح والاشارة على الأكثر حتى لا يزعجوا الطير أو الحيوان فيفلت منهم وينجو . والمفاجأة هنا نصف الظفر ولا يكون الكر منجحا إلا بتحريها ، وقديماً قال ابن الرومى

وليكن الكر على غرة والصيد فى مأمنه سارب

ومن أجل هذا لا يحسن بهم أن يتلاغطوا كأنهم فى سمر فلا مُعدى لهم عن الصمت فى غاراتهم ولو كانوا كردوساً متلاصقاً ليصيبوا الغرة ويقعوا على الفريسة . وليس معنى ذلك انهم لا يتكلمون قط ، بل معناه أنهم أكثر مايكونون فى صمت يتواصون به ويلزمونه حتى يقضوا وطرهم ما ساعفتهم القدرة على الصمت وأطاقوه لأن طبيعة المهمة تقتضى ذلك وتحتمه الى حد كبير . أما قبل أن يبلغوا مكان الصيد فهم يتلاغطون ويتضاغون ويعربون ما استطاعوا عن آمالهم التى يرجون أن يبلغوها فى يومهم ، وعما يقدرون لأنفسهم من اللذة والمتعة فى السعى

وراءها ،وعما يتوقعون من سرور نسائهم وصغارهم حين يعودون بأكف ملأى، وعياب محشوة ، وقامات معتـدلة ،ورؤس مرفوعة ، وقد يصف بعضهم لبعض ما كان فى يوم سابق وربما تضاحكوا بواحد منهم عثر وانكب على وجهه وهو يعدو وراء الطريدة أو رفسته فخر الى الأرض أو انكسر به غصن فهوى وتدحرج ، وأما وهم عائدون فقد يغنون ويرقصون سروراً بما أصابوا ويتحدثون بفعالهم — هذا بسرعته وذاك باحكام رميته وذلك بجرأته ورابع بكثرة ما أصاب وهكذا ،حتى إذا بلغوا محلتهم ألقى كل منهم حمله الى المرأة وبه من الزهو مايصده عن الكلام أو من التعب ما يغريه بالانصراف عنه والتماس الراحة . ولكنهم فى أثناء الطرد والصيد يصمتون أكثر الوقت كما قدمنا ولما كان الصيد يستغرق أكثر النهار فهم أكثر النهار قليلو الكلام

وندعهم فى صيدهم ونعود الى المرأة . فاذا بها بين أترابها لايضطرها عملها الى الوحدة . فهى على الأغلب تباشره فى جماعة منهن قليلة أو عديدة وفى يد كل منهن عملها كائناً ما كان وهن فى أثناء ذلك لا تستريح ألسنتهن فى حلوقهن ولا تنقطع عن الجرى . كعادة النساء فى كل عصر ومصر . فان النساء أكثر كلاماً من الرجال . وقـد يجلس الرجل الى صاحبه وينقضى أكثر الوقت بينهما وكلاهما مطبق الفم . أما النساء فهذا هو المستحيل عليهن ! ومتى جلست امرأتان فى هـذه الدنيا صامتتين ؟ ان المرأة لا تصمت ولا تكف عن الكلام إلا إذا عجز لسانها عن الجرى وانقطعت أنفاسها . لأن الكلام لا يكلفها نصباً عقلياً ، وان الرجل منا ليشهد مجالس النساء فلا يسعه إلا أن يعجب لهن من أين يأتين بمادة الحديث ! لقد كنت أعد نفسى فى الرجال مهذاراً ، كثير الثرثرة ، فاذا باحدى السيدات الفضليات تزعمنى صموتاً ! ؟ وما أكثر الرجال الذين يشكون من متاعبهم العائلية عجزهم عن مواصلة الحديث الفارغ وتقصيرهم فى واجب الثرثرة !

واللغة الكلامية انما تتقرر وتصقل الفاظها بالتكرار . وليس يكفى أن ينطق فرد بكلمة أو ينحتها ويستعملها مرة وانما تشيع اللفظة ويعم استعمالها بتكرر الحاجة اليها ، وكثرة ترديدها من جرّاء ذلك . ولقد نحت جونسون الكاتب الانجليزى المشهور مئات من الألفاظ من اللغة اللاتينية ، واستعملها فى كتاباته وعدل بها عما يؤدى معناها من الكلمات الانجليزية المستعملة، وآثرها عليها لموافقتها لمزاجه ولما فيها من الطنطنة المرضية لذوقه

ثم مات جونسون وذهب فى سبيل من غبر ، فدفنت الفاظه التى نحتها معه ولف عليه وعليها كفن . ولم يعش بعده منها الا النزر الذى سد حاجة ، وملأ فراغاً . وكم فى لغتنا العربية مثلاً من الفاظ يخطئها الحصر لا تدور على الألسنة ولا تجرى بها الاقلام ؟ كم يستعمل حتى أشد الناس حذلقة من هذه الألفاظ الميتة ؟ ما حاجتنا الى خمسمائة اسم للسيف أو صفة له على الأصح ونحن لانكاد نذكر السيف ؟ فموافقة اللفظ للحاجة وتكرر استعماله ولوكه مرة بعد أخرى . هذا هو الذى يذيع اللفظ ، ويشيع استعماله ، ويجعله مادة حية فى اللغة . وفضل النساء فى ذلك عظيم . هن الثرثارات اللائى يخدمن اللغة ويقررنها بالتداول ، ويشعنها فى الجماعة ، ويدرنها على ألسنتها ، ويثبتنها فى الذاكرة ، يجىء اليهن الرجل بقنصه ويقص عليهن ما جرى له فى يومه وقلما يعيد القصة ، ولكن المرأة تحكيها لا ترابها مائة مرة ومرة وعلى مائة صورة وصورة ، تارة بأفاضة وأخرى بايجاز وطوراً توشيها بأخيلتها الحسية وطوراً تطرزها بوصف هيئة الرجل وهو يلقى قصته ، أو بنعت ما تقدره فيه من المزايا والصفات وتخرج من ذلك وتستطرد الى مائة موضوع آخر قد يعيي الرجل أن يلمح الصلة التى تربط هذه المواضيع بالحكاية الاصليـــة . أضف الى ذلك ما لا تفتأ تتحدث به عن عملها أو أعمالها هى وأكثرها فى الاطوار الأولى من نشوء الجماعات الانسانية صناعى أو أدخل فى باب الصناعة مما عداه . والأطفال ؟

أليس يدع الرجل أمر تعليمهم الأول الى المرأة ؟ هى التى تغذى الطفل وتنشئه وتعلمه الكلام بما لا تنفك تصبّه فى أذنيه من عبارات لها معنى أو ليس لها معنى . وتفعم له ذاكرته بالمحصول الأول من اللغة ، وتعدله اول ما يلزمه من الذخيرة فى رحلة حياته . فليست المرأة فقط عاملاً لا يستهان به فى تقرير اللغة الكلامية وصقلها ، بل هى أيضاً أول معلم نتلقى هذه اللغة عنه ونحذقها منه

ولا نريد أن نقف هنا أو نقتصر على هذا بل نجاوزه ونقول ، أن المرأة من أكبر عوامل التوحيد فى اللغات أو التشابه بينها ذلك أن المرأة لم يكتب عليها الحرب والقتال كما يقول شاعرنا القديم . وانما كتب ذلك على الرجال دونها . ولم يتصل بنا ولا قرأنا أن النساء فى أى عصر كن يقاتلن الى جانب الرجال ويتولين الحرب مثلهم ولكنهن مع ذلك كتب عليهن السبي يلتقى الجيشان ويقتتلان ما شاءا حتى يقهر أحدهما خصمه . وليس يندر ولا سيما فى الحروب القديمة أن يعمل الظافر السيف أو ما يقوم مقامه من أدوات الطعن والضرب فى أقفية المنهزمين ، وأن يتعقبهم الى ديارهم وان يقتل منهم حتى من يضعون السلاح ويسلمون . ولكنه ندر أن يقتل المنتصرون النساء وانما يسبونهن ويحملونهن معهم فى عودهم الى محلاتهم فى جملة ما يحملون من غنائم الحرب ، ويقتسمونهن اقتسام غيرهن من الأسلاب

وقد كانت الحروب فى الأزمنة السابقة اكثر وإن لم تكن على هذا افتك أو أهول منها الآن ، وقل ان كانت تنتهى حرب بدون سبى . بل لعلنا لانخطى جداً حين نقول أن الرغبة فى السبى كانت من اكبر مثيرات الحروب وبواعثها . فهل يحسب أحد أن الخود اللواتى كن يسبين فى حروب آبائنا الأقدمين كانت تقطع السنتهن وتقتلع من أصولها أو توضع على أفواههن الكمائم . ؟ لسنا نظن أحداً سيدعى ذلك أو يقول به . وكيف كان يحدث التفاهم بين المسبية ومن صارت من

نصيبه ؟ كان يستعصى ذلك فى أول أيام المعاشرة وكانت الأشارات والحركات وملامح الوجه ونظرات العين تغنى فى ذلك بعض الغنائم ثم يعتاد كل منهما أن يقرن اللفظة التى يسمعها بالحركة أو الأشارة أو النظرة أو غير ذلك مما يصحبها ، ويفهم منها ما يستخلصه من اجتماع ذلك . فيزيد محفوظه ومحفوظها ويدخل فى لغتها ولغته الجديد من الألفاظ والأوضاع وطريقة التغيير ويؤدى ذلك مع التكرار الى التقارب من بعض النواحى بين اللغتين

ولقد ذكرنا الحرب ولكنها لم تكن الوسيلة الوحيدة لأحداث هذا الاختلاط والتشابه بين اللغات . فقد كانت الهجرة كثيرة ، والخطف مستمراً ، ولما كانت المرأة بطبيعتها أو بطبيعة وظيفتها أكثر كلاماً من الرجل ، وكان نطاق أحاديثها أوسع ومادتها أوفر ، وكان سببها أعم ، لذلك كان من المعقول أن تكون المرأة صاحبة الفضل الأكبر فى بذر الألفاظ وما تنطوى عليه من الاحساسات والخواطر

وحتى هنا لا نريد أن نقف . فانه ليس يكفى أن تخترع اللفظة أو تنحتها أو تشتقها لما تمس الحاجة الى العبارة عنه . فان الاحتفاظ بهذه اللفظة الجديدة لازم للغة مثل اختراعها او اشتقاقها . وليس تغنى اللغة وتبقى لها ثروتها إلا بهذا الاحتفاظ ، ولا اعون على ذاك من المرأة . ولا تنس ان كلامنا كله دائر على الماضى البعيد لا على الحاضر ولا الامس القريب . وكما أن المرأة كانت احسن معاجم اللغة ، كذلك كانت أداة المحافظة عليها وتوريثها الاجيال التالية . ذلك أن المرأة هى التى قامت بالصناعات اللازمة للانسان ، بينما كان الرجل يتولى الصيد ويباشر الحرب . وهذه الصناعات بقيت على الأيام لأنها من ألزم اللوازم الأولية وقد طرأ عليها تحوير كثير وتولدت منها أخرى وتعددت وتنوعت ولكن الحقيقة بقيت دون أن يلحقها تغيير . وهذه الحقيقة هى أن المرأة هى مخترعة الصناعات الاولى . ومن غير المعقول كما أسلفنا أن تزاول المرأة أعمالها يوماً بعد يوم

دون أن يتحدر لسانها بالكلام على ما تفعل . بل المعقول والذى لا يُقبل سواه هو أنها كانت تهضب بالكلام وتسح بلا انقطاع ، وأنها سمت الأشياء أسماءها وأوجدت لها نعوتها وافتنت في ذلك وما هو بسبيله الى المدى الذى استطاعته . ولما كانت أعمالها مستمرة متوارثة فقد ثبت معها ما تعلق بها من الكلام وصار جزءاً أصلياً من اللغة ،وأتيحت له فرصة البقاء .وقديماً لاحظوا ان المرأة على فرط شغفها بالجديد وجريها وراءه وتعلقها به ، أكثر « محافظة » من الرجل . ولعله ليس من الخطأ الشديد أن نقول انها كالذاكرة للنوع . وحسبك أن تتأمل فضلها فى المحافظة على الأساطير والخرافات ،وأغانى الجماعة وأقاصيصها وحكاياتها .ومَن مِن الرجال يحفظ مثل ما تحفظه المرأة من الأغانى والأساطير ؟ ان القارئ خليق أن ينصف المرأة من هذه الوجهة اذا تفضل وذكر جلساته الى احدى العجائز فى طفولته وصدْر أيامه والحاحه عليها فى أن تقص عليه بعض ما تحفظ من الأساطير والحكايات المرويّة عن العفاريت والمرَدة والوحوش وما الى ذلك ؛ وهي التى تغنى الطفل لينام أو ليكفّ عن البكاء ،أو ليهدأ وتسكن نفسه ،كما لايحسن الرجل أن يفعل .ونحن الآن فى عصر المطابع فلا يسعنا أن نقدر على وجه الدقة قيمة ذلك فى العصور الخالية قبل أن توجد المطابع ،بل قبل أن يهتدى الانسان الى طريقة يكتب بها الكلام ويدونه . فى تلك العصور كانت المرأة هى ذاكرة الجماعة ومكتبتها وديوان أخبارها وأغانيها وأمثالها وحكمها ،ان كان لها من ذلك شىء قليل أو كثير . وما زلنا الى الآن نرى المرأة أحفظ للأمثال وأشد أحاطة بها . وإذا تدبّرنا ذلك كما ينبغى أن نتدبره ،أفيكون مخطئا من يقول أن المرأة كانت من أكبر

العوامل فى المحافظة على اللغة وفى صون ثروتها ومساعدتها على الاتساع والنمو تبعاً لذلك ؟

هذا وجه أو وجوه مما كان للمرأة من الفضل على اللغة . وثم وجوه أخرى بعضها يسهل الغوص عليه والبعض يشق مطلبه ويعزّ مناله . ولسنا نستطيع أن نلم بكل أوجه البحث فى مقال واحد ، ولذلك نرجىء التتمة ولا سيما الفرق بين لغتى الرجل والمرأة ، الى فرصة أخرى

بين السماء والأرض

كأس على ذكرى

قالت الفتاة للفتى — ان كان إبن خمس وثلاثين يُعد فى الفتيان

« هذا أنا . . . قد جئت . . »

فمد اليها يده ، ولكنها لم تصافحه ، فقال :

« أهو كِبْر ما بنا أم جَفْوة ؟ »

« لا كبر ولا جفوة . . . وانما أنا مغيظة »

« منى ؟ »

« كلا ! »

« ممن اذن ؟ »

« لماذا تسأل ؟ . . . . من نفسى . . . »

« مسكينة يا فتاتى ؟ وماذا صنعت مما يورث كل هذا الأسف ؟ »

« لست آسفة على شىء . . . وهـذا ما يغضبنى ! ولو وجدت للأسف مساً لكبرت فى عين نفسى . . »

وكانت الليـلة مظلمة والرياح كالمجنونة ، ولا يكاد أحدهما يحس من صاحبه — وهما مستندان الى سور السطح — غير صوته ، فقال :

« أنت فى عينى كبيرة وجليلة »

فلان ما كان متجمداً من نظراتها ، وسلس الصعب من جانبها ، ورقّت حاشيتها وانسجم صوتها ، ودنت منه ووضعت يمناها على كتفه وأقبلت عليه تسائله ، أصحيح ما يزعم ؟ أحق انه يكبرها وسيظل يكبرها على الرغم مما فعلت ومما تفعل ؟

فقال ، وتناول يدها فى يده :

« وماذا فعلت يافتاتى ، أو ماذا تفعلين الآن أكثر من أنك قد جئت تؤنسين وحشتى تحت عيون هذه النجوم ؟ »

فرفعت وجهها اليه ورمته بعين مفتوحة كمغمضة وقالت :

« أوهذا كل شىء ؟ »

« كل شىء الآن . . . الى الآن »

ولبثا هنيهة صامتين تحت هذه السماء المهولة المتلاحة النجوم ، ثم قالت :

« ماذا كنت تريد أن تقول لى ؟ »

« متى ؟ »

« ونحن على الطعام ؟ »

فاربَدَّ وجهه ولكنها لم تره فى ظلمة الليل ، ولم تدرِ ماذا عانى حتى عاد محيّاه يرف لها ، بينما كانت هى تجذبه من كتفه وتلح عليه بالسؤال :

« كنت أريد أن أقول ، ان هذا لذيذ » (بابتسامة متكلفة)

« ما هو ؟ »

« كون يدك فى يدى ! »

فانتزعتها وقالت .

« لقد أنسيتُ أنها فى يدك »

« إنسيها مرة أخرى ! »

« لا أستطيع »

« تناسيها أذن ! »

« كلا ! »

« هل من سبب ؟ »

« لـــــــــا ! » (ممطوطة طويلة)

وتناول يدها ، وسكتا مرة أخرى ، وتكلم بينهما الهوى

* * *

وقالت « لن أفعل هذا مرة أخرى ؟ »

« لن تفعلى ماذا ، يا فتاتى ؟ »

« ألقاكَ هكذا ! هى الأولى والأخيرة ! »

فابتسم صاحبها ابتسامة فيها من الحنان والعطف عليها وعلى نفسه أكثر مما فيها من صبابة الحب ، وقال

« لا أدرى أى سحر ضربته علىّ حتى صرت ، كلما عزمت أن أروض نفسى على مراجعة الصبر فيك ، لا تكاد عينى تأخذك حتى يتحلل العزم — فى كل يوم أعالج ان أرد نفسى على مكروهها ، ثم ما هو إلا أن أراك ، أو ان تخطر فى القلب ذكراك ، حتى أنسى كل شىء سواك ، ولا يبقى لى منى الاكِ ! »

« وماذا تريدُ أن تصنع بى ؟ »

« ماذا ؟ أريد أن أحملك معى وأخفيك حتى عن عيون اخوتك ! هذا ما أريد ! أن رأسى ليدور حين أرى أخاك او ابن عمك او ابن خالك او أحـداً من الخلق ينظر اليك ! ولكن لك قدرة على المباعدة والمجافاة حين تشائين ، وانى ليخيل لى أحياناً أن تناسخ الأرواح حق ، وانك أنت « برونهيلده » بعينها يحيط بها سور النار الذى حولها »

« ليتنى كنتها ! ! ليت حول كل فتاة مثل هذا السور من النار ! تمتحن به من ينشد قلبها ! »

« بحسبك غرائزك النسوية سوراً من النار »

« ولكن ألا تعرف ان ماتبغى عسير لايقع فى الامكان ؟ فما جدوى هذا الذى نحن فيه ؟ »

« أعرف ؟ من أين لى علم هـذا ؟ كل ما أعلمه ان اهلك حمقى وانهم يضحون بك فى سبيل . . . لا تضعى يدك على فمى ! دعينى أتكلم ! انهم يحولون دوننا تقديماً لغيرك عليك وقـد علموا انك لى لا محيد عن ذلك ، عن رضى منهم أو محمولين على مكروههم ! . . »

وفى هذه اللحظة دفعتها الريح الى صدره فاشكره قربها وأخذ منه شذا شعرها . فضحك ضحكة عصبية ورفع وجهها اليه وأهوى على فمها يقبله فى بساطة كأنما كان هذا حقاً له ، وهى تجاهد وتعالج ان تفلت من عناقه ويأبى هو ان يدعها

« انك . . . »

وعضت شفتها وردت اللفظة التى همت بها

« أنا أى شىء ؟ قوليها ! اقذفى بها فى وجهى ! »

« وحش ! فظيع ! هذا أنت ! دعنى ! »

غير أنه لم يدعها بل ضمها وهو يضحك فى رقة وجذل وسكر حتى همست فى أذنه

« لم أكن أعنى ما قلت كما تعلم »

« لم تعنه أبداً بالطبع »

وقبلها ثانية

وقالت وقد تخلصت من عناقه

« كيف تعيدها وقد وعدت ألا تفعل ؟ »

« أنا ؟ متى وعدت ؟ »

« كيف تسأل يا . . . »

« يا وحش ! قوليها ! »

« ولكن أليس لك ضمير ؟ »

« ضمير ؟ يا له من سؤال ؟ بالطبع لي ضمير ! »

« لا أراك تحفل به الليلة ! »

« أنا فى شغل عنه ! قبلينى ! »

« أى فكرة ؟؟ »

« أفعلى »

« مستحيل »

« من فضلك »

« مستحيل ! قلت مستحيل ! »

« أذن تعالى أقبلك »

« ولا هذا »

« لم لا ؟ الا يسرك أن تكونى محبوبة ؟ »

والتف حول خصرها ذراعه ، ووجدت شفتاه السبيل الى شفتيها ، فهل هذا معنى أن تكون محبوبة ؟ وهل هى له كما سمعته يقول بلهجة اليقين ؟ انها على كل حال لم تعد تحس أن لها فى نفسها كثيراً أو قليلا ! فياليت من يدريها ماذا أصابها ففترها وأفقدها الارادة والقدرة على ضبط نفسها ، وعلى انها لم تعد تكترث لذلك او تفكر فيه فقد كان الدم يتدفق كالمجنون فى عروقها !

« أمصغ أنت ؟ »

« نعم » (بصوت تخفته عربدة الشفتين فى نحرها)

« انى اعلم انى وقعت من قلبك . لا شك فى ذلك ، والا ما فعلت الليلة

ما فعلت . ولكن أية فتاة تستطيع أن تفتنك عن نفسك ساعة . وما أحب أن يكون هذا أثرى عندك ولا أن يسهل تلهيك عنى وتعللك بالدنيا ، ولقد أردت أن أهبك ما تذكرنى به — ما يطيل أدّكارك لى . ألا تفهم الآن لماذا تركتك تقبلنى هكذا ؟ انه الزهو والغرور والانانية . . »

« بل قولى أنه الحب . . »

« هو هذا وذاك ، ولكنى أردت أن تذكرنى . . »

« أوتحسبين أن نفسى ستطيب عنك ؟ »

« أخشى ! »

« لماذا ؟ »

« كل أمرىء ينسى القبلة بعد أن تبترد شفتاه »

« من علمك هذا يا . . »

والتقت شفاههما فى قبلة طويلة ، ثم تناولت خديه بين راحتيها وقالت

« دعنى أذهب الآن »

ولكنه ضمها وهو يقول « أدعك ؟ كلا ! انا ايضاً أخشى أن تتسربى فى الهواء اذا تركتك »

« كلا ! لا تخف »

وعاطته التقبيل وخنقت صوتها العبرات وهى تلح عليه أن يدعها فسألها

« أواثقة أنت انك تريدين أن تمضى ؟ »

« كلا ! ولكنى واثقة انه « يجب » أن أذهب »

فخلاّها فتراجعت قليلا ثم أصلحت ثيابها وشعرها والتفتت اليه وهى تقول « لا يشق عليك ما يقول أهلى . وأيقن أنى . . على . . ولكن ليتنى اكون أنا على يقين من وفائك ! »

ومضت أخف من الفراشة !

* * *

قال صاحبي

« أنا صاحب هذه الذكرى . وهى كل ما خرجت به . وانى لأحييها فى كل شهر مرة — فى الليلة الظلماء المفتقدة البدر ، لأن ليلتنا كانت حالكة ، ولأن الليل أوقع ما يكون فى صدرى حين أرسل اللحظ لأخرق به أحشاء الظلماء فتشف لى عن نجوم السماء ويرتد عما دونها كليلا حسيراً ، وأروع ما تكون السماء عندى ، حين تتنقل العين فى اجوازها المرعبة فلا تقطع منها سوى بيد هائلة عن بيد أشد هولا . . . كذلك كانت ليلتى تلك وكذلك أريد ان تكون ذكراها فى مثلها . فأصعد الى السطح واتكىء على السور وانظر الى السماء كما كنا ننظر . هي مفتونة بجمالها وأنا يكاد يسحقنى الرعب اذ أجيل عينى فى فيافيها اللانهائية وأقول لها فيما أقول كأنما كان يعنينى أن أنغص عليها متعتها

« ثق ان هذه السماء ليست مجعولة للانسان مهما تكن علة وجودها . وانه لاشىء فى الأرض أو فى السماء مجعول لهذا المخلوق الذى يحسبه الفارغون مركز الدائرة ومحور الوجود ! بل ليس أقدر من هذه السماء على اشعار الانسان ضآلته أو لاشيئيته اذا شئت »

فتدير الىّ وجهها وتقول ، وهي لا تفهم حرفاً من كلامى : « ماذا يوجد بين هذه النجوم ! »

فأقول : « يوجد — ان صح التعبير بلفظ الوجود — صحراوات فضاء مظلمة تركها من يعلم السر ، بلا شموس ، وتوجد أوقيانوسات من الفراغ لا آخر لها يجمد الفكر كلما حاول أن يتصورها . هذا ما يوجد ! »

فتصمت ولا يبدو عليها انها فهمت فأمضى وكأنى أحدث نفسى ، وقد شعرت فجأة ، على كل حبيبها ، كأنما بينى وبينها بُعد ما بين الأرض والمشترى .

« وهذه السماء التى يسحق النفس جلالها المرعب ، ويهول الخاطر أن يقذف

به فى اجوازها اللانهائية . . . ليس جمالها الذى يسحرك بالخالد ولا الباقى ! حتى هذه مرجوع وهاجها رماد ! انظرى هذا النجم الذى يكاد يخبو وميضه بين اخوته نجوم الدب الأكبر ! لقد كان منذ بضعة قرون يخفق مثلها لمعاناً ! فليس يخلو كل هذا الجلال من دواعى الرثاء ! ! وتصورى هذه النجوم كلها قد خمدت ؟ تصورى عقلك يتلمس طريقه فى سماء مظلمة خبا فيها كل ما كان يضىء ! ! تصورى عقلك يصطدم فى ظلمة الكون بقطعة كابية من هذه الكواكب ! ! نحّى عينك ! غضى بصرك عن السماء اذا أردت أن تستبقى بشاشة نفسك ! »

فتفزع وتقبل علىّ وتسند رأسها الصغير الى كتفى هذه وتريح خدها على جانب صدرى وتعلق يسراها بكتفى الأخرى فأمسح لها شعرها حتى يزايلها الخوف ، وانى لأراها الآن كما كانت فى تلك الليلة ، وان كنت أنا هنا وهي هناك ، وبيننا مابيننا من الابعاد . وآه لو ان كل مابيننا فرسخ أو فراسخ ! اذن لأمكن أن نبتسم ! وقد يعزينى — لو ان هذا مما يعزى — اننا ، سعدنا أو شقينا ، سنذهب كما ذهب من كانوا قبلنا ، وان الدنيا ستومض فيها عيون غير عيوننا وتخفق فيها قلوب أخرى ، وترهق عقول جديدة ، وانها ستشهد أشجاء طريفة تُندب ومسرات ومباهج حديثة تُطلب ويستعز بها على حين نعود نحن كما سيعود كل شىء قبضة من تراب !

ولكنى أحيى هـــذه الذكرى على خلاف ماتتوهم ، فان الهواء هنا لم يهف باسمها ولا خفق على موجاته الشدو بمفاتنها ، والعيون التى تجتلى هذا الفضاء الرهيب لم تتلاق مع لحاظها ، وظلها لم يرتسم على هذه الرمال ، وقدمها الدقيقة لم تطأ ذراتها — كلا ! مامن شىء هنا يعرفها أو يحمل ذكرها على صدره كما أحمل على صـــدرى حبها ، فسبيلى أن أعتمد على سور السطح وأظل كذلك حتى أعود وقد شاطرت ماحولي عدم الشعور بها ! »

ثم امسك وقال بعد اطراقة قصيرة :

« والآن فلنشرب كأساً على هذه الذكرى »

المفعول المطلق

ليسمح لى القارىء أن اكون كما خلقنى الله ، وأن اسوق اليه الكلام على طريقتى التى أوثرها والتى تلائم مزاجى ولا تنافى ما بنيت عليه . وقد شاء ربك أن يخلقنى بعين لا تفتأ كلما وقعت على شىء تنثنى مرتدة الى نفسى تدير فيها حملاقها مفتشة باحثة منقبة ثم يهتف بى هاتف من ضمير الفؤاد أن هات « المسطرة » فأمد اليها يدى وأذهب أقيس الابعاد بين ما كنت وما أنا اليوم .

وقد اتفق لى أمس أن ذهبت الى « ادارة الجريدة » فى شأن لى فجاءنى من وكلت اليه الاشراف على تحريرها فى غيبتى يسألنى أن أراجع كلمة كتبها أحد الزملاء ، فيها أشارة الى اصلاح نحوى ، فلما كان الليل آويت الى فراشى وفى مرجوى أن يجيرنى النوم من أوصاب ما أعانيه ، فرأيت فى منامى ، وقلما أذكر احلامى ، كأنى بلمتى التى وخطها الشيب — قد عدت تلميذاً ، وكان شيخ من اساتذتى ، رحمه الله ، يختبر الفرقة فى « المفعول المطلق » ولكن الأستاذ كان فيما بدا لى أشبه برئيس جلسة منه بمعلم صبيان ، وكان كلامنا نحن التلاميذ « الكبار » أشبه بالخطب والمناقشات البرلمانية .

ثم أفقت من حلمى وابتسمت ، فقد ذكرت بحلمى هذا الذى جره علي زميلى ، أستاذاً لى فى التعليم الابتدائى ، أعياه أن يُفهمنى « المفعول المطلق » ويوقفنى على « سره » ويحل لى « لغزه » وكان كلما عرضت مناسبة ، يقول لى « يابن عبدالقادر » فأقول « نعم »

فيسألنى : ما هو المفعول المطلق

ولم يكن من عاداتي أن احمل شيئاً — وبخاصة هذا المفعول المطلق — على ظهر قلبي من كتب التعليم . فكنت أقف جامداً ، وفمى مفتوح وعينى الى وجهه ، ولسانى كأنما استل من حلقي ، ويدى تغمز جارى الحافظ الذى لا يهمل حتى يهمس بالتعريف المطلوب فألقيه إليه وأهم بالجلوس وقد ظننت انى نجوت ، وكان يعرف انى مجّاج الاذن فيسألنى الاعادة فأتلعثم وألعن من أصبحت على وجوههم ! وقد يتجاوز عن الاعادة ويقول « مثل » وهنا الطامة الكبرى !

« مثل » ! ؟ وكيف آتيه بمثال لما انتهيت منه الى اليأس من فهمه ؟ ! وكثيراً ما كنت قبل ابتداء الدرس اتفق مع جار لى ابله على أن ينهض فى اثرى ويجيب عنى اذا أعيانى سؤال غير منتظر فكان يبر بوعده ويفعل فيتحول اليه سخط المعلم ، ويحل به وحده غضبه ، فأدعهما وأقعد وانجو بهذه الحيلة التى لم تكن تجوز إلا على هذا الجار المغفل !

مر ببالى هـــذا وما إليه من حوادث الصبا على عهد التلمذة ، كما تمر أشرطة الصور المتحركة على عين الناظر ؛ فقلت لنفسى — وانا مستلق على فراشى — إن من حق المفعول المطلق أن يكون له هذا الشأن فى صـــدر أيامى فقد كان له شأن ضخم فى حداثة الدنيا أو من عليها من الآدميين وكما ان آباءنا الأولين لم يعرفوه الا بعد عصور لا يعلم طولها إلا الله ، من معاناة أزم التعبير عما فى نفوسهم كذلك انت « يابن عبد القادر » لاعيب عليك اذا كابدت منه نصباً

والواقع ان هـــذا « المفعول المطلق » يمثل فى تاريخ النشوء اللغوى خطوة انتقال اتسع بعـــدها الأفق ورحب على اثرها المجال ، وتفتحت أبواب التعبير المغلقة . واللغات ، كما يعلم القارىء أو كما لا يعلم ! — لم يجدها الانسان تامة ناضجة مســـتوفية كل مايحتاج اليه الرجل للعبارة عن مراده ، وانما نشأت على الأيام

واتسعت شيئاً فشيئاً على قدر الحاجة . وهي لاتزال الى الآن — وستظل — تنمو وترحب وتحيط بما كانت تقصر عنه أداتها . ومن شاء أن يقدّر فضل المفعول المطاق على اللغة وعلى العقل الانسانى أيضاً فليتصورها مجردة منه ولينظر اليها كيف تعود ؟ أو الى أى حد تضيق ؟ وقد يتعذر تقدير ذلك على وجه الدقة لأننا الآن ميراث واحد لها جميعاً . ولكن مادلالة هذا ؟ ولأى غرض نورده ؟ دلالته القريبة أن الشعوب التى تتشابه لغاتها فى هذا وغيره كانت قد اجتازت مرحلة البداوة وقضت أزمنة مديدة فى ظل السلام قبل أن تتفرق ويذهب كل منها فى ناحية وتكتسب كل لغة على اثر هذا التفرق شخصيتها وطابعها الذى تمتاز به . فنشأت فى كل شعب أجيال نحتت لنفسها ماتحتاج اليه من الفاظ الحرب والمغامرة

* * *

دارت بنفسى هذه الخواطر وانا راقد ، وعينى تنظر من النافذة الى القمر الذى ينام ضوءه اللين على صدرى ، فمددت يدى الى المنضدة المجاورة وقد انسانى النظر الى القمر انى لم أعد أعنى باعداد الورق والأقلام الى جانبى قبل أن أنام وانى انقطعت منذ سنين عن استيحاء بنات الليل واستلهام طيوف الظلماء ؛ وانه ردنى عن ذاك وصرفنى عنه من جعل حاجتى الى هذه الزجاجات من الدواء

الذكوره والانوثة

١٠ فبراير .... الناس فى هذه الأيام آنق أزياء ، وأنظف ثياباً ، وأبهج بزة منهم فى أى عهد مضى . ولست أذكر أنى قبل خمسة وعشرين عاماً كنت أرى افندياً يلبس طربوشا مبطناً بالخوص والحرير ، أو يرتدى غير السترة الاستامبولية القديمة ذات الزرارين اللذين يجمعان طرفى بنيقتها على الرقبة ، والتى يبدو فيها المرء كأنه مربوط من عنقه . حتى الأحذية كانت أكثر ما تكون سوداء ، ولم تكن الأقمصة الافرنجية تتعدد ألوانها ، وكان الأغلب فيها أن تكون بيضاء لامعة قوراء ، ولم يكن الشيوخ يعنون — على الأعم — باحكام التفصيل ودقة انسجام القفطان أو الجبة على أبدانهم ، أو بتحرى أن يكون لون « الحزام » مجاوباً لصبغة القفطان ، أو بأن تكون لفة « الشال » على طربوش العمامة بارعة الشكل تخفى من الطربوش بقدر وتبدى منه بقدر ، أما النساء فكان زيهن اذا برزن الى الشوارع يصد العين عن النظر ولم يكن الواحد يدرى أهي آدمية تلك الملفوفة فى ملاءتها أم حشوها ـ زفٌ يبعثره الريح ـ فالآن صارت العين تتعب من النظر الى مجالى الذوق حتى فى الطرقات ، ودع عنك المجتمعات والسهرات ، نعم

لا فرق الآن مثلا بين أزياء المحصنات وغيرهن ، ولكن لا بأس ، ستتميزن بغير الأزياء ، وصحيح ان الرجال والنساء تقاربوا — حسن أيضاً ! ليس فى الامكان أبدع مما كان !

* * *

١١ ... لا أدرى ممن سمعت ، او أين قرأت هذه العبارة وهى أن الله سبحانه وتعالى وكّل الى ملك معين من ملائكته أن يسبح بحمده جل وعلا على أن أنعم على الرجال باللحى وعلى النساء بالشعر الطويل . والله وحده أعلم بصحة ذلك ولكنى أحسب الملك الموكول اليه هذا الواجب — ان صح الخبر — قد جدّت على صوته نبرةُ تهكم لاذع — علينا نحن بنى آدم الفانين .

ومع ذلك لماذا ؟ أمن أجل ان النساء يقصصن شعورهن ويتشبهن بالرجال فى بعض أرديتهن ، وان الرجال يحلقن — معذرة ! فسيختلط الأمر بكرهي وكرهكم — يحلقون شواربهم ولحاهم ويتخذون من الثياب ما لا يخلص الهواء بينه وبين الجسم — أمن أجل ذلك يكون الأمر مدعاة لنبرة سخر ترتفع مع تسبيحة الشكر ؟ ان الصحيح فسيولوجياً هو ان الآدمى خليط من عناصر الذكورة والانوثة ، وان نسبة هذا الخليط لامعروفة ولا محدودة ، وان درجات التفاوت فيها كثيرة ، وان هـذه العناصر يقوى بعضها أو يضعف على مدار الحياة . فلكل واحد من الذكور حظ ضئيل أو كبير من الأنوثة ، ولكل أنثى نصيب كذلك من الذكورة . ومن هنا يكون الشاب الذى هو فى رأى العين وفى نوع احساس النفس به وتقديرها لصفاته ، أشبه بالأنثى . ومن هنا أيضاً النسـاء المترجلات أو اللواتى هن بالرجال أشبه واليهم أقرب .

والمعضل الذى يعنينى أن أحله هو : هل فقد الرجال ما كان لهم فيما مضى من القدرة على اجتذاب المرأة والاستيلاء على هواها بما كان لهم من صفات طبيعية ؟

أم أصبحت الرجولة التى كانت تجدى عليهم قديماً فى المعركة الجنسية لا تنيلهم شيئاً الآن ؟ أم ضعف احساس المرأة بهذه الصفات وانحط تقديرها للمزايا الجنسية الطبيعية ؟ أو أجعل السؤال من الناحية الأخرى : شهدنا زمناً كانت فيه المرأة إذا بدا منها خنصرها من تحت الملاءة أو ما يماثلها ولمحته عين الرجل شهق وفهق وانتابته كالحمى ، فالآن تبدو له نصف كاسية — او نصف عارية — وما استتر من جثمانها فى حكم الظاهر من فرط الدقة فى جعل التفصيل كفيلا بعرض المحاسن وجلو المفاتن . ومع ذلك لا يكاد الرجل يزيد على الاعراب عن الاعجاب الفاتر ، فهل تبرز المرأة الآن على هذه الصورة المجلوة لانها تحس أن صفات الرجولة فى الرجل قد ضعفت ؟ أم هى بدأت تتجرد وتتزين شيئاً فشيئاً وسايرها هو فى احساسه بجلوتها فألف هذا التجرد والتزين درجة فدرجة فهى أبداً تعالج أن توقظ احساسه بالجديد فالأجد وهو لا يكاد يألف جديداً حتى يفتر عن اجابة ما يهيب به منه ؟

* * *

١٢ . . . نسيت أمس الحرب العظمى وما أفقدت الرجال وكلفت جنسهم من خسارة فادحة فى مادة الرجولة لا تعوض فى الأجيال . وكيف احتاج الأمر أن يحل النساء محل الرجال وأن يملأن فراغهم فى شتى الأعمال وكيف أنمى ذلك صفات الذكورة فيهن وكيف تحتفظن بالمنزلة التى رقين اليها ولم ينزلن عنها ثم انتقلت عدوى ذلك من الغرب الى الشرق كالعادة

مثال لتأثير الحرب . . . . موافقة مجلس العموم الانجليزى بسهولة وسرعة على تخويل المرأة حق النيابة عن الأمة كالرجل . وقد ظلت النساء فى انجلترا يجاهدن أعنف جهاد بضع عشرة سنة لينلن حق التصويت فقط ! الخ الخ

الانسان مخلوق

غير شريف

فبراير ١٥ . . . . يخيل لى أن الشرف والنزاهة وعفة اليد وسائر ما يجرى هذا المجرى ، مما لم يركب فى طبع الانسان ولم يفطر عليه ، ومعنى ذلك بعبارة اخرى ان الانسان بطبعه مخلوق غير شريف ! ! والدليل حاضر . وهو هذه الآلاف من الأوامر والنواهى والأقاصيص وما اليها مما يقصد به الحث على هـذه الفضائل ومجانبة اضدادها . ولو أن الانسان كان كذلك بفطرته وكان الأغلب والأعم فيمن تلقى من الناس عفيفاً نزيها شريفا لما احتاج الأمر الى كل ما فى هذه الكتب مما أشرنا اليه . وكثيراً ما خطر لى أن أسأل : لماذا اتفق أن تجد من يحضك على مزاولة هذه الفضائل وأخذك نفسك بها ولا تجد واحـداً يأمرك بخلافها مثلا : فيقول : اذا استطعت أن تسلب ما فى يد غيرك فافعل ! أو احذر أن تدع ما فى جيوب الناس يبقى فى جيوبهم ولا ينتقل الى جيبك ! الخ الخ ! أليس ذلك لأن الأصل فى الانسان هو التطلع الى غير ماله والرغبة فى غصبه أو انتهابه أو الاحتيال على استلابه فالحث عليه تحصيل حاصل ؟

وأحسب أن من الأدلة على أن الأصل فى الانسان هو هذا ، ان فى كل مصلحة كبيره من المصالح — حكومية أو غير حكومية — نظاماً دقيقاً للمراجعة يضطر

الناس الى الأمانة أرادوا ذلك أم لم يريدوه ، ويحول دون من تحدثه نفسه بالاختلاس . فأكثر الناس لا يختلسون ، لا لأنهم اشراف أمناء نزهاء ، بل لأن السبيل مكتظة بالوعور والعاقبة غير مأمونة . ولست ممن يستطيعون أن يصدقوا أن هذا الصراف الفقير الذى لعله ترك بيته وعياله دون ما يكفى لقوتهم ، يعف عن رضى بقسمته وقناعة بحاله ، عن قبضة مما يدخل الخزانة التى هو قائم عليها وفى يده مفاتيحها :

ولولا الصعوبة وخوف التورط فيما لا يسهل الخروج منه لغش كل انسان كل انسان . ولكن من العسير أحياناً أن تركب الترام الى حيث تريد دون أن تنقد العامل ثمن التذكرة . وأشقّ من ذلك كثيراً وأوخم عاقبة أن تسافر على قطار حديدى بلا تذكرة . وانى اعترف انى إذا كنت على شىء من الشرف ، والذمة ، والأمانة ، والنزاهة ، فليس ذلك لأنى خلقت متحلياً بهذه الفضائل ، بل لأنه ينقصنى القدر الكافى من الجرأة والاقدام ، أو بعبارة أخرى لأن نصيبى من الجبن فوق المتوسط ، فليس لفضيلة فىّ انى لا أنشل ما فى جيوب الناس إذا لاحت لعينى متضخمة بما فيها من أوراق النقد ، ولكن لأنى أجد نشل الجيوب أشق علي وأبعد مطلباً من الكتابة باللغة اليونانية التى لا أعرفها . وكثيراً ما تخايلنى التحف الثمينة فى الحوانيت من وراء الألواح الزجاجية فاشتهى أن تكون لى بلا ثمن ، وأتمنى لو استطعت أن أمد اليها يدى ثم أمضى فى سراح ورواح وأمن واطمئنان . ولكن هذا الخاطر وحده ، دع عنك الفعل نفسه ، يحلل قواى ويفكك أعصابى حتى لأحسّ أن بى حاجة الى من يأخذ بيدى ويعينى على السير . وربما فكرت فيمن يزيفون ورق النقد ويتخذون ذلك حرفة ومتجراً فيُطير النومَ من عنى ليالى عدة هول ما يقدمون عليه من المخاطر . وما أظن بى لو انى كنت نشأت بين اللصوص والسراق ، إلا أن جبنى كان قميناً أن يؤدى الى تنبيه الشرطة والحراس

الى ماأنوى حتى قبل الشروع فيه ، لفرْط ما أقدر انه كان ينتابنى من الاضطراب

والحقيقة أن خراب الذمة يتطلب سكوناً فى النفس ، وان شئت فقل برودا فى الطبع ، وجرأة فى الجنان ، وقدرة على الاحتيال ، ومضاء فى العزيمة ، وليس لى من ذلك كله نصيب . ولذلك ترانى إذا غشى انسان ، عفواً أو عمداً ، وأعطانى قطعة مزيفة من النقود لا أجرؤ — إذا فطنت اليها — أن أمد بها كفى الى أحد على أنها صحيحة ، بل أخفيها عندى أو أنتظر حتى أصـــير الى طريق مهجور ثم أطوح بهـا بكل ما فى ساعدى من قوة كأنما أريد أن أجعل بينى وبينها أطول ما يمكن من المسافة . وآه إذا مررت بشرطى وهى لا تزال فى جيبى ! آه من الاضطراب الذى يصيبنى ويخيل لى أن أعينُ الشرطى قد نفذت من الثياب الى حيث القطعة المغشوشة ، وانه يهم أن يعدو ورائى ليقبض علىّ ! وترانى حينئذ أسير وأتلفت ، وقد أضرب فى طريق غير طريقى لأتوارى عن هذه العين التى لا تمنعها كثافة الثياب أن تطلع على ما فى الجيوب من مغشوش !

وحدث مرة أنى سمعت رجلا يباهى بأنه أنقد (جرسون) خادم قهوة قطعة مزيفة من ذات الخمســة القروش دون أن يفطن اليها ، فحسدته وتمنيت على الله أن يرزقنى بعض هــذه الجرأة والثبات ! وشر من ذلك وأدهى ، وادعى الى الغيظ والســخط على النفس ، انى ما استطعت قط أن أدِع أحداً — تاجراً أو صرافاً مثلاً — يعطينى أكثر مما لى . وفى الناس من يستَبْضِع ما شاء وينقد البائع الثمن ويتناول الباقى ويعده ويجده أكثر مما يستحق فيدفعه الى جيبه فى هدوء تام ويمضى عن الدكان دون أن يختلج ، حتى جفن عينه . مثل هـذا أغبطه ولكن محاكاته عزيزة المنال مع الأسف ! وتالله ماأحسن استقباله لما يجيئه به الحظ ! ما أبرع ركوبه للمد فى عباب حياته ! ما أشد شكرانه لما يناله بغير كد أو تعب !

واتفق مرة ان كان فى بيتى عمّال يبنون حائطا . وكان صاحب البيت قد أنقد

أحدهم الأجرة مقدماً ، فاشتغل يوماً وانقطع أياما. ثم عاد فسألته ،أين كان ؟فقال، وهو جذلان ، والله يا افندى الحقيقة أنى بعد أن أخذت الأجرة من عمى . . . . سهرت ليلتى تلك وشربت قليلا، ومن حسن الحظ أنى انقدت الخادم ورقة بنصف جنيه فرد لى ثلاثة وثمانين قرشا،ظناً منه انى انقدته جنيها ،فحمدت الله الذى رزقنى من حيث لا أحتسب وأحييتها ليلة فى أثر أخرى

قلت « نعم ، هذا حظ غريب ، ولكن ألم تنازعك نفسك ، ولو لحظة فيّ ، أن تخبر الخادم المسكين انه أعطاك خمسين قرشا فوق مالك ؟ »

فحملق العامل فى وجهى ، وصوّب نظره ، وصعّده ثم حول وجهه عنى والتفت الى عمله دون أن ينبس بحرف . وما أشك فى انه كان أعمق ما يكون اقتناعا بأنى مجنون ، ومن العبث الكلام معه .

وقلّ أن تجد من يصارحك بفساد ذمته كما فعل هذا العامل . والناس فى العادة أكثر ولعاً بالكلام على فساد ذمم سواهم .وكثيراً ما يخيّل لى إذ أحادث واحداً من سوادّ الناس فى أمثال هذه الموضوعات انى وإياه الرجلان الشريفان فى هذا الكوكب الحافل بالانذال !

فى الشعر الجاهلى

تأليف الدكتور طه حسين

استاذ الآداب العربية بكلية الآداب بالجامعة المصرية

من أشق مباحث الأدب العربى ، ذلك العهد الذى يسمونه « بالجاهلية » ، وان كان ما أثره الرواة عنه ، وقالوا إنه انحدر الينا منه ، لا يختلف عن جنى غيره من العصور الاسلامية فى شىء . فالروح واحدة ، والنظرة الى الحياة متفقة ، والوجهة متحدة ، والكلام مستقيم على أوزان وقواف غير مضطربة بين هذه العصور . وأسلوب التفكير نهج غير متعدد ، حتى العبارة نفسها لا يكاد يعتورها تغير جوهرى . فما هو هذا العصر الجاهلى إذن ؟ إنه عصر يعرفه الفقهاء ، ومن يبغون أن يقيموا حداً بين الاسلام وما قبله . أما مؤرخ الأدب فمعذور اذا انكر ان له سمة يتميز بها وينفرد . فالجاهلية التى انتهى الينا ما رُوى من أخبارها وأيامها هي جاهلية دينية ، واجتماعية اذا شئت ، ولكنها من حيث الأدب شىء آخر مختلف جداً ، لا يسع الأديب الا أن يقف حيالها متردداً شاكّاً بل زافضاً ، كما فعل الأستاذ الدكتور طه حسين فى كتابه « فى الشعر الجاهلى »

ولكل أدب آنفته الساذجة وحداثته المتعثرة كما لكل شىء آخر فى هذه الحياة — يصدق هذا على الجماعات صدْقه على الآحاد ، وعلى العلوم والآداب وسائر ما ينشأ فى دنيانا هذه ، ولكن الأدب العربى ليس له أول يُعرف ولا نشأة تُوصف اذ أقدم ما وقع الينا منه — على قول الرواة — بشحم كلاه ، ان صح

هذا التعبير ، ونعنى بذلك أن هذا القديم مستو بالغ أشده ، وان الأطوار الأولى التى لا بد أن يكون الأدب قد تقلب فيها ومر بها ، كغيره من آداب الشعوب الأخرى ، حتى تناهى شبابه على النحو المأثور ، نقول ان هذه الأطوار مفقودة ضائعة لا سبيل الى العلم بها والوقوف عليها الا تخيلا والا بالطبع فى التخيل على غرار ما حدث للآداب الأخرى التى وقفنا على أصولها ونشأتها ، والا بأن نرسم لأنفسنا خط التطور طبقاً للسنن الطبيعية . « فالشعر الجاهلى » وصف غير صادق ، لأن جاهلية الأدب مطوية مع الأزمان التى غبرت ، وليس من المعقول ، ولا من المقبول ، أن يكون هـــذا الشعر المأثور أول ما قالته العرب ، لأنه شعر ناضج متساوق الأغراض مطرد النظام ، فيه فن وصناعة ، ثم هو بعـــد ذلك تعبير فيه خلط بين الأدب والدين .

وليس ثم ما يمنع أن يكون هناك شعر قيـــل قبل الاسلام ، بل الذى يرفضه العقل هو ألا يكون الشعر قد قيل قبله ، ولكن هل ما يعزى من الشعر الى من عاشوا فى العصر الجاهلى صحيح النسب غير ملزق بهم ؟ وهل اذا سألت هذا الشعر عن نسبه ينتمى اليهم ويعتزى بهم أم ينطق تكوينه ومنحاه وأسلوبه بأنه دعىّ دخيل ؟ ؟ هذان هما السؤالان اللذان يلقيهما كل أديب على نفسه . وقد تناولهما الدكتور طه حسين فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » وطرح السؤالين جميعاً ، وكان جوابه الرفض !

ولم يأخذنى الدكتور طه على غرة بهـــذا الكتاب ، فما أعرفنى قرأت شيئاً من اخبار هذه الجاهلية أو شعرها أو خطبها الا نازعنى فى أمره شك ضعيف أو قوى ، والا حكّت فى صدرى منه أشياء كثيرة أو قليلة . واشهد ان الدكتور كان بارعاً فى بسط رأيه وفى ابراز الشبهات التى تحوم حول هذا الشعر وتضعف الثقة بنسبته الى الجاهليين ، وفى تأكيدها أيضاً . ومن واجب كل متأدب أن يطّلع على هذه

الرسالة التى جاءت — على خلاف عادة الدكتور — خالية من كثير من حشوه المألوف. ونحسب أن لا خلاف فى ضرورة هذا البحث مهما تكن النتيجة التى يخرج بها المرء، وأن من الحماقة أن نسترسل فى الاستنامة الى ما جاء فى الكتب القديمة وان كان كل شىء يدعو الى الريب ويغرى بالنقد، وان نوصد بأيدينا فى وجوهنا ابواب التفكير مخافة ان يُظن بنا العقوق والتمرد على ما خلف لنا السلف، أو مدفوعين الى ذلك بحكم النزعة الانسانية الى التسليم. فما زال التصديق أسهل من البحث، والاقرار أيسر من النقد، والجمع أهون من الوزن وأمتع وألذّ أيضاً. وما من أحد نزع الى النقد الا اضطر أن ينبذ بعض ما يقع اليه. وفى هذا الاطراح خسارة متوهمة

والنقد مهمة قاسية، وما أكثر ما تكون بغيضة الى القراء، ولكننا لانعرف احداً أحرى بالعطف، وأحق بان تلين له الأفئدة من الناقد. فهو لا يجد — كالكيميائى — كل شىء حاضراً مهيّأ فى معمله، وليس امامه شىء من تلك الملاحظات المنظمة المدونة التى تغنى عن الشهود وتقوم مقام المعاينة، بل عليه أن يفحص كل ما تقع عليه يده ليستجلى غوامضه ويمحّص حقائقه، ان كان ثم حقائق يمكن استخلاصها، وان يخطو بحذر ويتوخى الاحتياط اذ كان العقل الانسانى نزّاعاً الى التساهل ميالاً الى تناول ما يتطلب الدقة، بغير احتفال أو تدبر. وما رأيت أحداً ينكر فائدة النقد ومزيته وضرورته، ولكن الاقرار بذلك أسهل من المعاناة. وحسبك أن تفكر فى القرون العديدة التى مضت، وعصور المدنية التى انقضت قبل أن يظهر « فن » النقد فى العالم، حتى فى عصرنا هذا لا يأمن المرء على الطالب أن يقع فى الاخطاء القديمة. لأن النقد يحيد بالمرء عن اتجاه الذهن فى العادة. وقد تعلم أن الميل اللدنّى للانسان هو التصديق والترديد حتى حين يختلف ما يتلقاه بالتصديق عما انتهى هو اليه من الآراء والملاحظات

ألسنا فى حياتنا اليومية نتقبّل بلا تمييز أو تمحيص ما يتأدى الينا من الاشاعات والأنباء التى لا نعرف لها مذيعاً ولا ندرى ما مصدرها ؟ وقد نشذ أحياناً عن ذلك ونجنح الى الشك والتنقيب عن أصل الخبر وقيمته ونحاول امتحانه ، ولكن هذا لا يكون منا الا بدافع من سبب خاص ، اما اذا كان ما يتصل بنا غير مستحيل فى ذاته ولا بعيد التصديق ، ولم يبلغنا ما ينقضه أو ينفيه فانا نزدرده ونفرح به ، وقد نضيف اليه ونزيد عليه !

وقد لا يجهل القارئ أن المرء حين يلقى نفسه فى الماء تكون حركاته الطبيعية الاولى من شأنها أن تؤدى الى الغرق . وان السباحة معناها اعتياد المرء الامتناع عن هذه الحركات اللدنية والقيام بغيرها . وكذلك النقد ليس بالعادة الطبيعية وانما هو شىء يُكتسب

وقد تخالف الدكتور طه اذا عزّ عليك التخلى عما درجت عليه ، أو توافقه على كثير أو قليل مما يذهب اليه اذا آثرت التعويل على العقل والمنطق ، ولكنك لا تستطيع على الحالين الا أن تقدّر جهده والا أن تقر بقيمة هذا البحث الطريف . وما من ريب فى ان الاكثرين يشق عليهم أن ينفضوا أيديهم مما عاشوا مطمئنين اليه ، غير ان الشعر الجاهلى لا يصيبه شىء ، فهو باق كما هو ، لم يحرقه الدكتور ولا سواه من خلق الله ، وكل ما يجدّ أن نسبته تتغير أو تصحّح . وما أحق ذلك بأن يكون رواية ممتعة . وانها لكذلك فى كتاب الدكتور

وهنا موضع التحرز : فلسنا نقول ان بحث الدكتور طه قاطع فى اثبات ما ذهب اليه وما نشايعه عليه من الرفض ، ولكننا نقول أن حجته أقوى من حجة القدماء ، وان رسالته ليست اكثر من باب فتحه لطالب الأدب الجاهلى اذا أراد أن يصل الى نتيجة يسكن اليها العقل ، وانها لم تخل من المآخذ ولم تبرأ من السقاط وان أولها خير من آخرها ، وصدرها أمتن من عجزها . ذلك انه لم يوفّق فى التطبيق

ولم يأت بشيء له قيمة ، ولو زهيدة ، حين أراد أن يتناول الشعر الجاهلي بالتفلية بعد أن مهد لذلك ببحث أسباب الانتحال ودواعيه

ولا بأس من أمثلة تجلو للقارئ مانريد

يقول الدكتور في رسالته ان « امرأ القيس . . . . . يمنيّ وشعره قرشيّ اللغة لافرق بينه وبين القرآن في لفظه واعرابه وما يتصل بذلك من قواعد الكلام . ونحن نعلم . . . أن لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز ، فكيف نظم الشاعر اليمني شعره في لغة أهل الحجاز ؟ بل في لغة قريش خاصة ؟ سيقولون نشأ امرؤ القيس في قبائل عدنان ، وكان أبوه ملكاً على بني أسد ،وكانت أمه من بني تغلب وكان مهلهل خاله ، فليس غريباً أن يصطنع لغة عدنان ويعدل عن لغة اليمن ولكنا نجهل هذا كله ولا نستطيع أن نثبته الا من طريق هذا الشعر الذي ينسب الى امرئ القيس ،ونحن نشك في هذا الشعر ونصفه بأنه منتحَل . واذن فنحن ندور: نثبت لغة امرئ القيس الذي نشك فيه ! » الى أن يقول « وأعجب من ذلك أنك لاتجد مطلقاً في شعر امرئ القيس لفظاً أو أسلوباً أو نحواً من انحاء القول يدل على أنه يمني فمهما يكن امرؤ القيس قد تأثر بلغة عدنان فكيف نستطيع أن نتصور أن لغته الأولى قد محيت من نفسه محواً تاماً ولم يظهر لها أثرما في شعره ؟ نظن أن أنصار القديم سيجدون كثيراً من المشقة والعناء ليجلوا هذه المشكلة »

فامرؤ القيس يمنيّ ، والشعر المعزو الى امرئ القيس عدناني اللغة قرشيّها . وهـذا حسن ،ولكن أحسن منه أن الدكتور حين تناول الأبيات المنسوبة الى امرئ القيس رفض بعضها وقبل البعض الآخر — وان كانت كلها عدنانية قرشية ! ! رفض مثلاً هذين البيتين

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... على بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف اعجازاً وناء بكلكل

وقبل هذا البيت الذى يتلوهما :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الأصباح منك بأمثل

فلماذا ؟ أهو يمنى اللغة دونهما ؟ أفيه شىء يخالف لغة عدنان وقريش التى نزل بها القرآن من حيث اللفظ أو الاعراب وما يتصل بذلك من قواعد الكلام ؟ أم وقعت المعجزة وبلغ من تأثر الشاعر بلغة عدنان أن محيت لغته اليمنية من نفسه محواً تاماً فى هذا البيت فقط ؟

وقد وقع الدكتور فى مثل هـذا الخطأ عينه لما تناول شعر عبيد وعلقمة وعمرو بن قميئة ومهلهل وابن حلزة ،وطرفةبن العبد الخ الخ ،وان اختلفت القبائل .

وهو مع جنوحه الى رفض القصص المنحولة يتقبل قصة الفرزدق وان كانت أشبه بالمنحول منها بأن تكون حقيقة ،ونعنى بها زعمهم انه خرج فى يوم مطير الى ضاحية البصرة وانتهى الى غدير فيه نساء ، فقال ما أشبه هذا اليوم بيوم دارة جلجل ،ثم انصرف فصاح النساء به « ياصاحب البغلة » وعزمن عليه الا ماحدثهن بحديث « دارة جلجل » قالوا فقص عليهن قصة امرئ القيس ،وأنشدهن قوله :

ألا رب يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل

ومن سقاطه أنه يذكر « ابتذال » اللفظ ، ويعنى أنه مأنوس غير حوشى ، ويتكلم على المتانة والجزالة ويريد بها حشو الكلام بالغريب الذى يحتاج المرء فى فهمه الى مراجعة معاجم اللغة . وهو مالا يُغتفر لرجل تذوّق الأدب ،بَلْهَ من يدرّسه فى الجامعة : ومن ذلك قوله عن قصيدة جُلّة فى رثاء كليب انها شعر « لاندرى أيستطيع شاعر أو شاعرة فى هذا العصر الحديث أن يأتى بأشد منه سهولة ولياناً وابتذالاً ؟ » والأبيات التى يشير اليها هى :

جلّ عندى فعل جساس فيا حسرتي عما أنجلى أو ينجلى

فعلُ جساسٍ على وجدي به قاصمٌ ظهرى ومدنٍ أجلى

يا قتيـــلاً قوّض الدهر به سقف بيتيّ جميعاً من عل
هُدم البيت الذى استحدثته وانثنى فى هـــدم بيتى الأول
خصـنى قتـــل كليب بلظى من ورائى ولظى مســـتقبلى
ليس من يبكى ليوميـــه كمن انما يبكى ليـــوم ينجلى

وهي أبيات ليس فيها ابتذال بالمعـنى المفهوم . .

ومن نظرياته ان لغة الـكلام عند العرب قبل الاسلام كانت وعرة حوشية ! ! أُنظر قوله ، فان فى قصيدة ابن كلثوم هذه من رقة اللفظ وسهولته مايجعل فهمها يسـيراً على أقل الناس حظاً من العلم باللغة العربية فى هـذا العصر الذى نحن فيه . وما هكذا كانت تتحدث العرب فى منتصف القرن السادس للمسيح وقبل ظهور الاسلام بما يقرب من نصف قرن ، فمن أدراك يادكتور ؟ ؟ ويالها من صورة معكوسة للغة فى ذهن الدكتور ! !

وقد أطلنا جـداً والمجال لا يتسع للافاضة . ولذلك نختم كلامنا بأن الباب الثالث من الـكتاب أشبه بتخبط الطلبة منه بابحاث الأساتذة . فليته استغنى عنه . وان الدكتور ليحسن جداً الى نفسه اذا تحاشى الخروج من النقد العام الذى يسهل مع التحصيل ، الى النقد التطبيقى أو الدراسات الفردية .

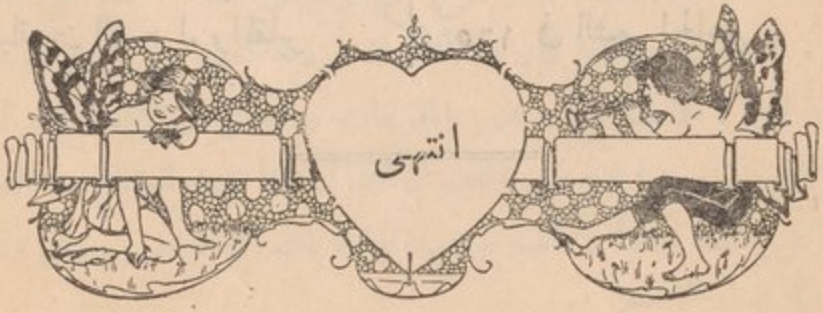

فهرس

صفحة	
٣	المقدمة
٥	بين القراءة والكتابة
١٤	على شاطىء بحر الروم
٢١	نظرة اولى فى كتاب حديث الاربعاء
٢٩	آراء شتى فى كتاب حديث الاربعاء
٣٥	الأساليب والتقليد
٤٤	قليل من الفلسفة
٥٠	القديم والجديد
٥٥	طه ومجنون ليلى
٦٣	التفاتات الذهن
٧٠	العمى والغريزة النوعية
٧٦	المرأة بين بشار وأبى العلاء
٨٤	ليلة بين الصحراء والمقابر

صفحة	
٨٩	ايحاء التمثيل
٩٥	ليلة
٩٨	الخطابة والكتابة
١٠٤	سر غرفة أم وحى صورة
١١١	متاعب الطريق
١١٧	مجالسة الكتب ومجالسة الناس
١٢٤	لولو !
١٣٢	نشأة الشعر وتطوره
١٣٩	المرأة واللغة
١٤٧	بين السماء والأرض
١٥٥	المفعول المطلق
١٥٨	الذكورة والانوثة
١٦١	الانسان مخلوق غير شريف
١٦٥	فى الشعر الجاهلى

﴿ القاموس العصرى ﴾

نقلاً عن مجلة التربية الحديثة — العدد الرابع ابريل ١٩٤٨

القاموس العصرى — للاستاذ الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية.

بين أيدينا ﴿الطبعة السادسة﴾ للقاموس الانجليزى العربى و ﴿الطبعة الرابعة﴾ للقاموس العربى الانجليزى . وقد كنا قرظنا طبعة القاموس الانكليزى العربي الخامسة فى هذه المجلة ، وكان يخيل الينا عندئذ انه لم يعد فى الامكان أحسن مما كان . أما وقد ظهرت الطبعة الاخيرة فقد تبدّد ظننا وأصبح لدينا تحفة لامثيل لها . . . . . فقد زيد فيها عدد المفردات ، وأدرجت طائفة كبيرة من العبارات والجمل الاصطلاحية الانجليزية من علمية وفنيـــة وعامّـة ، وامامها ما يقابلها من الاصطلاحات العربيـــة المألوفة ، وأدخل عدد وافر من الصور والرسوم الدقيقة الواضحة لاظهار المعـانى، حتى بلغت النسخة الانجليزية العربيـة ٨٠٦ صفحة والنسخة العربية الانجليزية ٨٣٥ صفحة . واذا علمنا ان واضع هـذين المجلدين قد اشتهر بالدقة فى العمل والأمانة فى الاخراج والغيرة على التراث الأدبى فضلاً عن معونة جهابذة العلماء الذين عهد اليهم مراجعة المفردات منذ أن ظهرت الطبعـة الأولى سـنة ١٩١٣ ، اتضح لنا ان كل مشتغل باللغتين من طلاب وأساتذة وصحافيين وأدباء وشباب ورجال أعمال ، بل كل مثقف ، ينبغى أن يضع على مكتبه هذين المجلدين .

ومن المبادىء المسلم بها أن الرجوع الى قواميس اللغة ، كلما خفى المعنى على القارىء أو الـكاتب ، وكلما كان هناك شـك فى دقة التعبير من أنجع الوسائل فى مضاعفـة الثروة الذهنية فيما يتعلق بالمفردات والتعمق فى الإفصاح والتعبير . والرجل الذى يقنع بمـا لديه من المحصول اللغوى ظناً منـه انه بلغ منه الذروة ، فيلقى قواميس اللغة جانباً ، انمـا يوصـد امامه باب الاجتهاد ويعيش « من يده الى فمه » كما يقول الانجليز . . . . . .

﴿ المفتاح العصرى ﴾

نقلاً عن مجلة التربية الحديثة

وقد وضع الاستاذ الياس انطون الياس كذلك « المفتاح العصرى » لفتح أغلاق المعاجم العربية ، وارشاد القارىء الى المادة التى يجد فيها الكلمة التى يريد الكشف عنها . والطريقة التى وضع بها هذا الكتيب الفريد فى بابه مبتكرة سهلة ، وطالما وددنا لو كان لدينا مثله منذ أن تعلمنا أن نلجأ الى المعاجم العربية العربية أو العربية الفرنسية أو العربية الانجليزية . فاذا أراد الطالب البحث عن لفظة فى أى معجم عربى ، فما عليه إلا أن يطلبها فى أول حرف فالثانى فالثالث من حروفها كما هى ، بصرف النظر عن حروفها المقلوبة عن غيرها . واذا تعذر عليه معرفة مصدر الكلمة التى يريد الكشف عنها فما عليه إلا الاستعانة بهذا المفتاح الذى يجب أن يرافق كل معجم عربى . ويقع هذا الكتيب فى ٨٠ صفحة . ونأمل أن ينتفع به كل من يضع على مكتبه معجماً من المعاجم العربية

حصاد الهشيم

تأليف الكاتب الكبير الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

لا حاجة بنا الى ترغيب القارئ فى اقتناء هذا السفر النفيس فمؤلفه أشهر من نار على علم . والكتاب يعد درة فى تاج المطبوعات العربية . مطبوعاً طبعاً نفيساً على ورق صقيل وقد جعلنا ثمنه فى متناول الجميع رغماً عن غلاء تكاليف الطبع فى الوقت الحاضر وذلك لترويج انتشاره

مكتبة الاطفال

مكتوبة بطريقة مبتكرة

تحبب القراءة للاطفال ، وتربى فيهم أفضل الاخلاق

للأستاذ كامل كيلانى

	ص
حكايات للاطفال .. الجزء الاول . الدجاجة الصغيرة الحمراء	١٥
» » .. » الثانى . ام الشعر الذهبى	١٥
» » .. » الثالث . بدر البدور	١٥
» » .. » الرابع . العلبة المسحورة	١٥
قصص جغرافية للاطفال .. » الاول . رحلة لفنجستون	١٥
» » » .. » الثانى . لفنجستون وستانلى	١٥
قصص مختارة للأطفال .. » الأول . وادى الذهب ..	٨
» » » .. » الثانى . صارع الأسد	٨
مكتبة الجيب للاطفال ..... الجواد الطيار	٥
» » » ..... بساط الريح	٥
جحا قال ياطفال ..... وزة السلطان	٥
» » » ..... سوق الشطار	٥
قالت شهرزاد ..... بنت الوزير ..... امير العفاريت	
عجائبُ القصص للاطفال ..... السعيد حسن ..... ارنبٌ في القمر	

سلسلة المطبوعات العصرية

تطلب من المطبعة العصرية - بمصر (ص . ب ٩٥٤)

(القائمة لكافة المطبوعات العصرية ترسل مجاناً لمن يطلبها)

القاموس العصرى انكليزى عربى
« « عربى انكليزى
« المدرسى عربى انكليزى وبالعكس
قاموس الجيب انكليزى عربى
قاموس الجيب عربى انكليزى
قاموس الجيب انكليزى عربى وبالعكس
القاموس الحديث فرنسى عربى باللفظ
الهدية السنية لطلاب الانكليزية
التحفة المصرية لطلاب الانكليزية
حكايات للاطفال ٤ أجزاء (كامل كيلانى)
قصص جغرافية للاطفال جزآن («)
عشرة أيام فى السودان (لمعالى هيكل باشا)
مراجعات فى الادب والفنون (للعقاد)
روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون)
روح السياسة « «
أصول الحقوق الدستورية (لابسمن)
الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
الحركة الاشتراكية (لرمزى مكدونلد)
ملقى السبيل فى مذهب النشوء والارتقاء
اليوم والغد (لسلامه موسى)
مختارات سلامه موسى «
نظرية التطور وأصل الانسان «
البلاغة العصرية واللغة العربية «
كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين «
مصر أصل الحضارة «
أناتول فرانس فى مباذله (شكيب ارسلان)
الدنيا فى اميركا للاستاذ (أمير بقطر)
حضارة مصر الحديثة ، لزعماء الثقافة المصرية
حضارة بابل واشور
اسرار الحياة الزوجية (ن . ح)
جمهورية افلاطون ، طبعة ثانية

خواطر حمار (للمرحوم الاستاذ حسين الجمل)
حصاد الهشيم (الاستاذ المازنى)
قبض الريح للاستاذ المازنى
نسمات وزوابع ، شعر منثور (مصور)
التعليم والصحة للدكتور محمد عبد الحميد
مركز المرأة فى شريعتى موسى وحمورابى
المرأة الحديثة وكيف نسوسها لعبدالله حسين
تذكرة الكاتب ، لتقويم الاخطاء اللغوية
الضعف التناسلى للمرحوم الدكتور فخرى
الامراض التناسلية وعلاجها «
يسوع ابن الانسان (لجبران جبران)
النبى « «
المجنون « «
رمل وزبد « «
كلمات جبران « «
السابق « «
مراقى النجاح (الارتمندريت بشير)
آراء حرة (دكتور طه حسين بك وآخرين)
رواية تايبس ترجمة احمد الصاوى، لاناتول فرانس
جريمة سلفستر بونار « «
« مكايد الحب فى قصور الملوك ، أسعد داغر
« القصص العصرية (٧٠ قصة مصورة)
« مسارح الاذهان (٣٥ قصة مصورة)
« أهوال الاستبداد (خليل بيدس)
« الانتقام العذب (أسعد خليل داغر)
« روكامبول ١٧ جزءاً (طانيوس عبده)
« أم روكامبول ٥ أجزاء « «
« باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
« غرام الراهب «
« دار العجائب (لنقولا رزق الله)
« الغلامان الطريدان «
« فاتنة المهدى أو استعادة السودان

المازني، ابراهيم عبد القادر
قبض الريح
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01038860

Ame ... irut

PJ7694
M47ZA

General Library

892.74
M4769A